الاله الـــكبير Ntr 3

د٠ / حازم احمد عطية الله
مدرس المصريات بكلية السياحة

أن مشكلة اثبات الوحدانيـــة فى الديانة المصرية القديمة وما ينبثق منها من معتقدات أخرى مازالت تحتاج الى دراسة جديدة ، لمـــا تحويه تلك المعتقدات من مظاهر ومدلولات تشير الى عبادة الاله الأوحـــد على مر العصور التاريخية المختلفة ٠

وقـــد اختلفت وتباينت وتداخلت تلك الظواهر والمدلولات فانعكس ذلك على الصفات والتسميات التى أطلقت للتعريف بهذه المعتقدات ، وهى فى النهاية لا تتعدى كونها مظاهر الوجود لذلك الاله الأوحد ٠

فمن خلال هـــذا المقـــال نتعـــرض على وجـــه الأخص لظـــاهرة الازدواجية لمدلولات وصفات الاله الأعلى ٠ وهى محـــاولة لطرح بعض النقاط المبتكرة الجديدة القابلة للتوسع والدراسة المتعمقة فيما بعد ٠

منذ البدء كان هنـــاك بجانب أو فوق الآلهة الأساسية معتقد أعلى يعبـــد (Ntr 3) (الاله الـــكبير) ٠

وكما سمى فى تعاليم الحكمة بصياغات متعددة أنه الاله الـــكلى ؛ « الذى نشأ من نفسه » « ســـيد الشىء الذى يكون ولا يكون » ، انه « الاله » ٠

« أنه يتنبأ ببعث الأشياء ؛ فتولد فورا » ٠ انه يبعثهـــا من خلال

صوته (تساوى الـكلمة الخالقة) • ويسن القوانين لما سوف يكون انه لا ينظم شيئا مؤذيا [١] •

انه « الأكبر » و « رب كل شيء » « الأله » فى صورته الأولى القديمة الذى يحمل فى نفسه كل شيء كائن ، فهو بدون نهاية أى « الأوحد » ، « الحى » ••• الخ • وكثيرا مايتصف بصفات النفى من أجل التعبير عن بعد الشيء عن طاقة الانسان الذى لا يمكن الوصول اليه ، مشابها فى ذلك لما هو متعارف عليه فى مفاهيم الأفلاطونية الحديثة والمسيحية [٢] •

وبالرغم من معرفتنا بالعبادات المحلية ،فقد كان هناك فى أقدم مرحلة معروفة لدينا للديانة المصرية القديمة اعتقاد بأن هناك الها أعلى هو الخالق الحافظ للعالم أجمع •

ونفس الشيء ينطبق على تطور مصر القديمة لتصبح دولة متحدة، فلم تكن الوحدة وما تحمله من اعتبارات سياسية هى الحافز لظهور الاله الأوحد الذى يحوى كل شيء بمقولة أن ترابط أواصر البلاد ينطبق على تلك الوحدانية ، بل على العكس من ذلك ، فهذا الـكيان الالهى يعتبر بمثابة الشرط والأساس لحدوث تلك الوحدة • ان ذلك الـكيان الالهى هو الذى يستحق فقط أن يسمى (Ntr) « الاله » ، وربما تكون تلك التسمية فى حد ذاتها قد عبر عنها بصفة « المختفى » •

وهناك هوة سحيقة تفصل بينه وبين الآلهة الأخرى التى خلقها هو والتى تعتبر كائنات سماوية تعلو من فوق البشر • ويمكننا أن نعتبر تلك الآلهة واجهات لجسم واحد ، وكل وجه يحمل صفة من صفات الاله الأعظم ، فهو فى النهاية لايعدو أن يكون محصلة تلك الصفات والقوى

---

(١) راجع
Drioton, ASAE, **XLIV, 111; Les dedicaces de Ptol. Euer. II.**

(٢) « المختفى » = Imn ، الذى لا يكون = Nn — wn

الموجبة والسالبة التى تتفاعل مع بعضها لتظهر فى النهاية فى صــورة خالق هذا الــكون •

وعلى هذا الأساس يكون « للاله الأعظم » أسماء الآلهة الأخرى المختلفة • فهى اذن فى مجموعها مظاهر لوجوده •

فالآلهة التى تمثل بالأشكال الحيوانية مثلا هى قوى حاميــة وهى جزء من الأصل أو تقمص له • وفى بعض الأحيــان ينــادى الــكائن الأسمى بأسماء وصفات مختلفة مثل : ـــ

الخالق ـــ البــانى ـــ المخصب ـــ الحى ـــ الحــافظ ـــ الرازق ـــ الدائم ـــ الحامى ـــ الموقظ ـــ الرابط •

وقد استخدمت هذه الأسماء خاصة فى الدولة القديمة :

« رائع التشييد » ـــ « الحى حامى الحمى » ـــ « الطيب الحامى » •••• الخ أو يسمى بكلمة « الــه » فقط ، كما ورد فى النص « المرء لا يعرف ماذا سوف يحدث ، وماذا يفعل الاله عندما يعاقب » [٣] •

وفى بعض الأحيان ينادى ببعض الصفات على أساس أنه :

رحيم ـــ لطيف ـــ ودود ـــ كبــير ـــ خالــد ـــ حى ـــ عظيم ـــ عادل ـــ عليم •

وبمقابهة الصفات الالهية السابق ذكرها تجدر الاشارة الى صــفة آمون ـ المختفى ، والتى يمكن تتبعهــا فى بعض المعبــودات الأخرى

---

(٣) راجع تعاليم الحكمة لــكاجمنى •

خاصـــة فى العصر المتأخر • فتلك الصفة تتسم بنوع من الغموض وهو ما أسميناه بالصفة السلبية • والتى من خلالها أمكن التعبير عن السمو الالهى ، كمـا ورد فى النص : « ان صـوته يسـمع ولـكن لا يمكن رؤيتـه » [٤] •

وبالنسبة لصـفة « العـدل » فيخاطب الاله كما لو كان وزيرا فهو « الوزير العادل » بمعنى العدالة الأرضـية المثلى المنفـذة لارادة الآلهة « ماعت » = احدى صـور الاله الأعظم التى تعمل على توازن نظام العـالم • والتى من خلال ارتبـاطها بالملك الحاكم أمكن التغلب على الفوضى وسوء الأحوال خلال العصر العتيق [٥] • وهى فى ذلك تربط المجـال الروحى بمجال الحياة •

والصفات الالهية الأخرى مثل السمع ، البصر ، والمعاونة ، مرتبطة فى نفس الوقت بمجال الحيـاة الدنيـا حيث تلعب دورا هاما فيها • وتعاليم الحكمة كقواعد لحيـاة الانسان مرتكزة على الخلفية الدينيـة تشير بوضوح الى ذلك ، كما ورد بنصوص الجمل التالية :

« يجب على المرء أن ينصت الى التعاليم » [٦] « الانصات لطالب الحاجة » « يجب على التلميذ أن يستمع » [٧] •

ثم ان المخلوقات النصف الهيـة تستمع أيضـا الى الالتماسـات

---

(4) Walter Wolf, **Das alte Agypten** d. t. v. S. 74.

(5) Ibid.,

(٦) قارن اختـاتون وديانة العمارنه . « سماع تعـاليم الحياة » . « التطلع لجمال آتون » .

(7) Brunner, **Altagyp. Erziehung.** Wiesbaden 1957, S. 131 f.

وتقوم بتوصيلها للآلهة تماما مثل الأشخاص المعبودة ، كما ورد بالنص:
« يا أهل مدينة الأقصر ، أخبرونى بطلباتكم والتى سوف أرفعها للاله آمون » [٨] •

وصفة الرؤية لها نفس الأهمية ، على أساس ارتباطها بالارشاد والهدى (ssm) من خلال النور الالهى : « متفتح الأعين ، والسماع من خلال الأذن » • « ارشاد الضال الى الطريق الصحيح » •• الخ •

وان ادراك النور الالهى يشير الى العلاقة بين النورانية الالهية وضوء عين الانسان • فكلمة ارشاد تحتوى فى حد ذاتها على « النموذج الأعلى » أو « المثل الذى يحتذى به » • على أساس أن الكلمة المصرية للصورة أو الشكل = ssm تعنى أيضا « المثل الذى يحتذى به » •

ان صفات السمع والبصر والارشاد الصحيح تؤدى الى حرية الحركة التى بمفهومها العميق تناسب الاله • « واسع الخطى » ، وهى تعبير عن حرية الاله فى التعامل والتصريف الكامل وليست بمفهومها الحركى •

ان الاله هو سيد الشىء « الذى يكون ولا يكون » انه « المرئى والغير مرئى » ، « الأمس والغد » [٩] •

انه خالق الكون وحاكمه ، وهذا يعنى أن تأثيره مستمر فى الحياة التى خلقها • فاذا نظرنا الى هذه الازدواجية من الناحية

---

(٨) نص على تمثال امنوفيس بن هابو بالمتحف المصرى •

(٩) كتاب الموتى الفصل السابع عشر •

الدنيوية فلن نجد لها أثرا فيــه • أما فى المجال الدينى فهو جزء واحد تجتمع فيــه الايجابية والسلبية معا • هذا الازدواج فى حد ذاته يؤدى الى انقسام المثل الأعلى الى قطبين أحدهما فى الواقع مذكر والآخــر مؤنث • القطب المؤنث يتمثل عادة فى صــورة البقرة الأم ، ومثالنــا فى ذلك الآلهه حتحور السماوية ، أو صــورة طائر [١٠] • ومع أن هذه الواجهة المؤنثة للمبدأ الأعلى [١١] سميت بأسماء مختلفة كنوت وايزيس وحتحور ونيت ونفتيس وغيرها من الآلهات ، فــكلها توضــح لنــا فى نفس الوقت واجهة هامة للاله الأوحد [١٢] •

وفى داخل هذا القطب المؤنث نجد نوعا من الانشقاق : الشق الأول يتمثل فى صــورة العنصر الأمومى • ولذلك يضع المصرى القديم على كل رأس مؤنثــة رمز أنثى النثر وعليــه يمثلون كل الالهــــات كأنثى النثر [١٣] •

---

(10) Junker, Sehender und blinder Gott, S. 37, 40.

(١١) « الــكبيرة » « سيدة كل شيء » ، قارن أيضا « بيشات »
JEA., 1941 p3pf.

(12) Capart, Quelques obs. S. 1. Deésse dél Kab, Brussel 1941, P. 171 ff..

(١٣) قارن أيضا النحلة (ملكة النحل) = ملكة مصر السفلى = نيت وعلى رأسها تاج مصر السفلى • قارن ايضا Brugsch, thes. 698, Pyr. 1434 c. s. فى نصــوص العصر المتأخر يلحق بكلمة « الحماية » رمز انثى النسر الذى يبسط جناحيــه للحمــاية • قارن Hopfner, Tierkult, S. 105 نربط هنا بين ذلك وبين الحاق صورة انثى النسر عندكتابة كلمة «ام» mut

ان مبدأ الاحاطة والحماية يظهر لنا فى صورة البيت أو بناء العش [14] .

(حتحور = بيت حورس ، انها تتلقى وتلد الطفل الالهى) « العالم ينظر اليه كبيت يبنى » [15] أما الثانى فيتمثل فى الطفلة البكر والذى يوحى بأن آلهات كثيرات يمكن حل كل منها الى جزءين : الأم الطفلة . فنحن نعلم أن هناك آلهتان حاميتان : أنثى النسر والثعبان. وآلهتان ندابتان : ايزيس ونفتيس ... الخ [16] .

ومن نصوص الأهرامات نعلم أن هناك « آمان » ، أى الثعبانين واللذان يظهران فى صورة « العينان » ، أو « التاجان » . انها الازدواجية التى سبق ذكرها : الأم والطفلة والتى تعبر عن تركيبة العنصر المؤنث نعنى بذلك أن الأم هى التى تحمى وتضحى بحياتها [17].

أما الطفلة فهى الابنة المخلوقة : « قبلى ابنتك ماعت ، ضعيها

---

(١٤) قارن « حورس فى العش » « وحورس فى القصر » = فى أحضان الأم .

أنظر لوحات أبيدس . قارن أيضا غطاء التابوت = نوت .

(١٥) قارن الآلهة سشات عند تأسيس المعبد .

(١٦) اعتقد أن هناك تشابها فى ذلك وشجرتى الجميز اللتين تلدان ابن الشمس . فمن الناحية المعمارية يتضح ذلك فى برجى بوابة المعبد الكبير للاله .. والذى يماثل أيضا « الجبلين » اللذين تشرق بينهما الشمس (رمز الصرح) .

(١٧) نذكر الآلام الشديدة التى أصيبت بها ايزيس عندما لدغ ابنها حورس من العقرب لدغة مميتة .

أمام أنفك = النفس ، النور ، الحياة ، كى يعيش قلبــك والا تبتعــد عنــك » [١٨] •

وبكارة الأنثى هنا شيء هام جدا لمـــا لها من صلة بمكانة زوجــة الاله والابنة المتبناه والتزامها ببقائها غير متزوجة [١٩] •

مما سبق ذكره يتضح لنــــا اتحاد قطبين داخل المبدأ الأعلى الالهى (Ntr 3) أحدهمـــا سالب والآخر موجب أو واجهة الصباح وواجهة الليل أو جانب حركى وجانب ســـاكن •• هـــذا العـــلو والسمو الأزلى للقوى القطبيـــة فى « الأوحد » والتى تتنافر وتتنـــاقض فى صـــورة الجوهر والشكل أو الروح والمادة ، يماثلها فى الحياة الدنيوية مفاهيم السلبية والايجابية ، الخير والشر ، والتى عبر عنها المصرى القديم على وجه الخصوص بأسماء الآلهة : حـــورس وست [٢٠] وعنـــد ذكرنا للاله « ست » تجدر الاشارة بأنه سواء ربطنـــاه فى مراحل تطوره الأولى بمصر العليـــا أو بشرق الدلتا فليس ذلك موضوع نقاشـــنا الآن [٢١] • والذى يهمنا أنه عبر عنه من النـــاحية الدنيوية منـــذ عصر الأهرامات كخصم لـــكل ماهو الهى ، انه الظلام ، الليل ، الصحراء ، ابن الليـــل

---

(18) CT 80, II, 35.

(١٩) قارن نصوص الأهرام نص رقم ٢٥٠ •

(20) G. Thausing, **Ethik und Magie** WZKM, 54. Bd, 1957 S. 208

(21) Scharff, **Die Ausbreitung des Osiriskultes,** Bayr. AK. Wiss. Sitz. Ber., 1948, S. 26 ff. Stock, **Das Ostdelta Agyptens in seiner entscheidende Rolle,** Welt des Orients.

(ابن نوت) ، الموت ، الظـلال « لقـــد اتحـد حورس وســت فى الواحد » (٢٢) •

وهــذا لايناقض انضمام ست فيما بعـد الى اسطورة ايزيس وأوزوريس • فليس بالشىء الهام هنـا الحـدث التـاريخى ، ولـكن الازدواجية الأبدية ــ والتى انعكست على الناحية التاريخية ــ هى محل حوارنا •

وعلى ذلك فقـد عرفنـا أن هنـاك مبدأ الهى أعلى ، وهو قدرة وطاقة كل متغيرات الأشكال النابعة منه • وبعيدا عن هـذا النوع من الازدواجيـة للمبدأ الأعلى نعرف تعبيرات أخرى : « انه الاله المتوج فوق كل تنـاقض ، الذى يتحد فيـه كل من حورس وست ، الملك على الأرض صـورة طبق الأصل منه » ، « قف من أجل حورس ، قف ضد ست » (٢٣) • هـذا النوع من الازدواجية يظهر لنـا من خلال أسماء بعض ملوك الأسرة الثانية ففى نهاية تلك الأسرة نجد نتيجة للقلاقل التى حدثت والرجوع لعبـادة ست مرة أخرى فى الصعيد لفترة قصـيرة • قام « خع ــ سخم » بوضع العـلامة المميزة لست فوق واجهة القصر (srh) التى تحوى اسـمه وذلك بـدلا من حورس • ولـكن سرعان

---

(22) Spiegel, **Horus und Seth**, Leipz. Frschg. Heft 9 Gardiner, JEA, 1944, 23 ff.

قارن فى ذلك الأحوال الدينية فى نهاية الأسرة الثانية ابان حكم كل من بر ــ يب ــ سن وخع ــ سخم وخع ــ سخم ــ وى !! انظر فيما بعد •

(٢٣) نصوص الأهرام نص رقم ٤٣٧ قارن أيضا

Sethe, PK. 793a, 971, P. 823

ما أعاد آخر ملوك الأسرة « خع — سخم — وى » [٢٤] • عبادة حورس مرة أخرى ولكنه اضطر أن يضع العلامتين المميزتين لكل من حورس وست مجتمعتين فوق واجهة القصر التى تحوى اسم الملك • وليس ذلك فقط كنوع من المساواة ولكنه الرجوع والاتحاد فى الأصل مرة أخرى • فاسمه المزدوج يشير الى ذلك :

(h — shm . wy Nb. wy — htp — im . f)

= « أشرقت القوتان ، السيدان مسروران فيه » [٢٥] •

وهذا الاتحاد للمبدأ المطلق يظهر بوضوح من خلال أقدم الصور التى عرفناها فى الأسرة الأولى : جناحا السماء مبسوطتان فوق الخليقة كنوع من الحماية •

انهما لا يمثلان شطرى مصر فقط ، بل كل شىء متناقض أيضا ، مثل النور والظلام ، السكون والحركة ، المذكر والمؤنث ، النظام والفوضى ، الروحانية والمادية ، الكينونة والصيرورة • كما ورد فى النص : « اننى آتوم ، الذى كان بمفرده فى المحيط الأزلى (= الغموض والفوضى) ، رع فى اشراقاته (= النور) اذا فتح عينيه يشرق الصباح ، واذا أغمضهما يحل الليل » [٢٦] •

---

(٢٤) البعض يرجح أن « خع — سخم — وى » هو نفسه « خع — سخم » والذى غير من اسمه فقط بعد الرجوع لعبادة كل من حورس وست مجتمعين معا •

(25) Walter Wolf, Das Alts Agypten. S. 32

(٢٦) اناشيد ادفو . « انه الإله الذى يرى ولا يرى » •

ولقد لرتبط العصر العتيق برمز معبود أوخذ فى غرب الدلتا (٢٧) ألا وهو الصقر • وهنا يتحول هذا الرمز ــ الذى تحول بدوره الى الاله الأعلى ــ الى « البعيد » = حورس أما جميع الآلهة الأخرى التى تكونت ونشأت فيه تحمل اسمه ، فهى صور منه ، لذا يظهر لنا هذا التشابه بين بعض الآلهة المحلية ، والكائن الأعلى • فعلى سبيل المثال « مين » و « حورس » ، أو بمعنى آخر التحول الى حورس ، أى الى الأعلى • وهنا يتساوى حورس مع Ntr 3 (٢٨) •

ان الصقر الذي اعتبرناه منذ العصر العتيق الروح الحامية لرئيس القبيلة فى مصر السفلى هو نفسه الذى أصبح فيما بعد الاله الأعلى ، انه البعيد أو الأعلى hrj = حورس = « البعيد » بمعنى الابتعاد عن كل ماهو دنيوى وكل ماهو عدواني (٢٩) •

وكان لارتباط الصقر ارتباطا واضحا بتأسيس الدولة المتحدة وما نتج عنه من ظهور الاله السماوى ، أن بقي هذا التقارب راسخا آلاف السنين • وساهم كركيزة وقاعدة أساسية في التغيرات اللاحقة (٣٠) •

---

(٢٧) ينسب « جاردينر » وسط الدلتا كموطن للصقر

Junker, **Pyramidenzeit**. S. 23 ff.

(٢٨) Junker, **Pyramidenzeit**. S. 21 قارن أيضا بداية المقال •

(٢٩) يمكن هنا مقارنة الصقر كروح حامية فى تمثال الملك خفرع بالمتحف المصرى • فى ذلك قارن مقالا للكاتب بعنوان « تأملات جديدة فى تمثال الملك خفرع بالمتحف المصرى » • ونفس الشيء ينطبق على تمثال رمسيس الثاني ومن ورائه الصقر • وهناك آلهة أخرى تظهر كحاميات مثل القرد = (تحوت) الجالس وراء الكاتب •

(30) J. Spiegel, **Das Werden der Altagyptischen Hochkultur**, S. 94.

فعند ظهور عبــادة الشمس فى هليوبليس استخدم ذلك بحكمة من أجل الوصل بين العبادات ، وذلك بوضع قرص الشمس بين جناحى الصقر وعليه يمكننا تتبع الشمس المجنحة خلال العصور التاريخية المختلفــة • وتجدر الاشارة هنــا الى أن كل هذه التغيرات كان المقصود بهــا فى المرتبــة الأولى الاله السماوى الذى تمثل عيناه قطبى السماء : « عيناك اللتان تعيشان ترسلان اللهب ، عيناك السليمتان تضيئان الظلام • أنفك عش الهواء ، شفتاك بوابتا السماء •• الخ » (٣١) •

والاله العــام يحمل ضمن اسمه الأساسى أسماء أخرى تطورت تطورا طبيعيــا على مر العصــور المختلفـــة (٣٢) • حورس فى عصر الأسرات المبكر يتشابه مع حورس القديم الذى كان يعبد كرمز مقــدس للقبيلة • ففى الحالتين تتفق صفات البعد والاستعلاء والسمو •

ان رع اله الشمس مظهر من مظاهر النور منذ الأسرة الرابعــة والخــامسة ، ثم بعــد ذلك يظهر لنــا آمون أو آمون رع فى الدولة الحديثة والذى تغلب عليه صفة الشىء البعيد الغير مكتشف (٣٣) •

انه دائما نفس الاله الأعلى ، فكل تسمية جديدة توضـــح واجهة أخرى لهذا المبــدأ الأعلى • وبجانب تلك الأسماء والتسميات الســابق ذكرها تأتى بعض الأسماء الأخرى الغير متــداولة كثيرا ولــكنها تظهر

---

(٣١) أناشيد ادفو • Junker a. a. O., S. 17 ff.

(٣٢) تلك الأسماء ليس لها علاقــة بالصــفات السابق ذكرها مثل « الــكبير » ، « الأوحد » ، « الرائع » •

(٣٣) قارن مع سبق ذكره فى أول المقال • آمون = المختفى •

يوضوح عند دراسة عقائد مراكز العبادة الأخرى [٣٤] ومع بداية الأسرة الخامسة أصبحت ديانة الشمس أى ديانة رع هى السائدة بالرغم من معرفتنا بوجود جذور لها منذ فترة طويلة سابقا [٣٥] .

ومع ظهور رع نتعرض لواجهة هامة للاله الأعلى : انه عنصر النور النور الذى ينتقل من المستويات الخلفية — فيكون باهتا — الى المستويات الأمامية فيظهر جليا واضحا فى الأسرة الخامسة ، وهو تعبير فى حد ذاته عن التيارات الروحانية لتلك الفترة ، والتى بدأت بوادرها منذ الأسرة الثالثة .

وجدير بالملاحظة هنا أن رمز أهرامات الأسرة الرابعة والتى وصلت درجة كمالها فى هذه الفترة أعلى مراتبها — لا تعبر عن شىء آخر غير ذلك [٣٦] .

---

(٣٤) انظر آخر المقال .

(٣٥) لدينا الدلائل الكثيرة التى تشير الى وجود الاله رع منذ العصر العتيق . فعلى سبيل المثال وليس الحصر Rc — nbj (= سيدى رع) قارن أيضا من خلال اسم الملك زوسر تعريف « الشمس الذهبية » قارن أيضا لقب كبير كهنة هليوبوليس منذ الأسرة الثالثة :

« الذى يرى الاله العام الكبير » ونصوص الأهرام خير دليل على ذلك مع ظهور معابد الشمس . انظر فى ذلك Ricke, Baukunst,II ومنذ الأسرة الرابعة دأب الملوك على تسمية أنفسهم « ابن الاله رع » ، وأرى شخصيا أن هذا نوع من البعد والاختلاف عن الاله نفسه ، وليس قربا واندماجا معه .

(36) Thausing, **Zum Problem der Pyramiden,** Anz. AK. d. Wissen. 1948.

ان طراز الفن فى الأسرة الرابعة متمثلا فى أهرامات الجيزة ببساطته الهندسية ووضوحه يعبر عن الروحانية وعن العنصر الموجب الخالص الخالق ، أعنى أنه مظهر النورانية فى الديانة • هذا النمط أو الطراز هو الذى اسماه « يونكر » « طراز الجيزة — الدقيق الأملس »، معتمدا فى ذلك على تعبيره عن الناحية الدينية الواضحة • وتلك الفكرة تزداد وضوحا مع ظهور معابد الشمس فى أبو صير • متمثلة فى المسلات رمز النورانية (= صورة الاله رع على الأرض) (٣٧) •

والمسلة فى حد ذاتها شعاع الشمس الذى يستقر ضوءها على قمتها المدببة وهو الطاقة الالهية الخالقة الكامنة فيه •

ومع ظهور عبادة الشمس فى هليوبوليس خلال الأسرة الخامسة (٣٨) — والتى شقت طريقها منذ الأسرة الثالثة — يكون ذلك التيار الروحانى قد انتقل نحو كامل سيادته ، وكما ذكرنا فمعابد الشمس مثلا واضح وشاهد على ذلك (٣٩) •

فمعابد الشمس فى الأسرة الخامسة وما تحمله فى طياتها من دلائل واضحة للاله الأعلى ترتبط ارتباطا وثيقا بمعابد الاله « رع » فى

---

(٣٧) نصوص الأهرام نص رقم ١١٧٨ •

(38) Spiegel, Hdchkultur, S. 360 ff.

(٣٩) هذا لايغير من مفهومنا عن العلاقة بين معابد الشمس والوحدانية وما يذكره يونكر عن وجود صلة بينها وبين الملك الاله • اقرأ فى ذلك
Junker, WZKK (1957)S. 222 ff.

هليوبوليس • وان ذلك يبدو واضحا من خلال قصة الملك خوفو أو الساحر [٤٠] •

فقد ذكر الساحر للملك خوفو أن أسرار معبد الاله تحوتى التى يطلبها لا يمكن احضارها له لأنها محفوظة لدى أحد التوائم الثلاثة الذين مازالوا فى جسد زوجة أحد كهنة الاله رع ، والذين سوف يحكمون بعد ذلك البلاد واحدا تلو الآخر •

وبما أنهم فعلا الملوك الثلاثة الأوائل للأسرة الخامسة فعلى ذلك تتضح العلاقة بين هليوبولیس وظهور معابد الشمس فى الأسرة الخامسة وعبادة الاله « رع » [٤١] •

والذى يهمنا هنا أن الاشارة الآلهية ظهرت أيضا وفى نفس الوقت فى هليوبوليس فتعاليم هليوبوليس تعرف كذلك أن رع (= الوهاج) يمثل جانبا هاما « للأعلى » وهو جانب النور • وفي بادىء الأمر عبد « الأعلى » فى صورة « آتوم » (= الذى لم يحدث بعد) وهى الطاقة والقدرة •

وترتبط بذلك ارتباطا وثيقا المجموعات الالهية المتبثقة من اله واحد : فعلى سبيل المثال هناك ثمانية أشكال تنبثق من « آتوم »

---

(٤٠) راجع فى ذلك بردية « وستكار » •

E. Brunner — Traut, **Altagyptische Marchen.** Duss. — Koln 1963, 11 ff.

S.Schott, **Altagyptische Liebeslieder.** Zurich, 1950, 176 ff.

(41) Walter Wolf, **Das alte Agypten, dtv.** S. 51 f.

أو « آتوم رع » كما سمى فيما بعـــد ، بعد اتحادِ ازدواجية الظـــلام والنور فيه وتلاشيهما كازدواج ٠

انهم ثمان قوى الهية مرتبة حسب صـــلات القرابة والنسب [٤٢]٠ والتكوين الالهى لهـــذا التاسوع مجتمعـــة مع « آتوم — رع » قـــد حدث منذ الأسرة الثالثـــة ، فالمبـــدأ الأعلى يسمى حينئـــذ « رع » ، والذى تشبه ثم اندمج هو الآخر مع حورس وتحول الى الاله العظيم٠

ومشابها لتعاليم ديانة هليوبوليس تظهر لنـــا ديانة منف أيضـــا المنبثقة هى الأخرى من اله واحد متمثلة فى مبدأها الأزلى « بتاح » ، الذى تنبثق منه هو الآخر ثمانية أشكال أخرى ، آخرها النور فى حـــد ذاته : « نفرتم » (= اللوتس) ، « أمام أنف الاله رع » [٤٣] ٠

وكما أثبتنا من قبل أن رمز الاله حورس [٤٤] قد تحول الى الاله العالمى ، ونجد أن ذلك ينطبق أيضـــا على « بتـــاح » = « الأســـاس والأصل — البداية والهـــدف » ، فقد خلق هو أيضا من خلال التكوين الثمانى ، مثل « رع » فى هليوبوليس أو شبسس spss(j) (= الرائع — الراقى) فى هليوبوليس الـــذى يتقمص كـــلا من شخصيتى آون وبتـــاح ٠

وفى غرب الدلتـــا ومنذ قـــديم الأزل كانت هنـــاك مراكز لعبادة

---

(٤٢) G. Thausing, Sein und Werden, S. 92.

(٤٣) قارن Sandman, PTAH S. 11 f.

(٤٤) أنظر نفس المقال ص ٨ ٠

الصقر [٤٥] ، وهى التى كونت ذوعا من الاتحاد مع الاله العالى ، فهنا أيضا نجد تلك التسمية المزدوجة للاله الأعظم : Mhntj — irtj = الاله ذو العينين ، Mhntj — n — jrtj = الالـــه بـــدون العينين (الاله الذى لا توجد لوجهه عينان) [٤٦] .

وكما ذكرنا من قبل يحتوى هـــذا التعبير على نفس الفكرة : الظلام والنور ، السالب والموجب ، السكون والحركة [٤٧] . هذه الثنائية نتضح من خلال تسميات الاله الأعلى فى الدولة الحـــديثة : « آمون — رع » فآمون هو المختفى أى هو الطاقة الـــكامنة ، فى حين أن رع يمثل المجال أو الوسط المرئى . ففى كتـــاب الموتى الجزء ٦٤ يذكر الآتى : « لقـــد ذهبت من لوتوبوليس الى هليوبوليس كى أعرف الفنكس [٤٨] بأشـــياء العالم الآخر » . ومعنى ذلك أنه نزل الى أسفل القـــاع وأحضر ماهو أسفل الى أعلى ، الى النور ، الى الادراك . فى أعماق الظـــلام ينبثق النور ، من Mhntj — n — irtj وهو فقدان الضوء يظهر ال Mhntj — irtj = الاله ذو العينـــان [٤٩] وتجدر الاشارةهنا الى أن Mhntj — irtj وكـــذا Mhntj — n — irtj يتحدان سويا مع آخر نجوم الدب الأكبر ،

---

(٤٥) حورس الذى ينتمى الى لوتوبوليس .

(46) Junker, Der Sehende und blinde Gott.

(47) Sauneron — Yoyotte, **Aeg. Schopfungsmythen,** S. 37 fff. Quellen des Alten Orients.

(٤٨) الفنكس يمثل هنـــا الضوء .

(٤٩) قارن فى ذلك أيضا .

Junker, **Der Sehende und blinde Gptt,** S. 38 f.

بمعنى أن الاله الأعلى يربط ويثبت نفسه أيضا بمجال النجوم الثابتة، تماما مثل اتحاده مع قرص الشمس والذي يتضح فيما بعد من خلال ديانة العمارنة • فالديانة الكونية وديانة الشمس يقفان متقابلين على قطر واحد [٥٠] •

فاذا تأملنا موضوع النور ومفهومه ، أى ديانة هليوبوليس والتعاليم الأخرى المنبثقة منها ، نجد أن ديانة الكواكب والنجوم تعبر عن الظلام ، الليل ، الماضى والشر ، لذا يظهر لنا ذلك فى الاتحاد مع « ست » وهو في جد ذاته مبدأ الشر لذلك يسيد « ليبت » النظام الكونى للدب الأكبر ، مما ينتج عنه اعتبار لتوبوليس القطب المضاد لهليوبوليس •

يستخلص من ذلك تاريخيا أن « جورس » ثم « رع » وبعد ذلك فى الدولة الجديثة « آمون — رع » يمثلون جميعا مظهرا واحدا « للأوحد » الذى أوحى للبشرية من خلالهم •

وهكذا أوضحت الديانات الأساسية واجهة هامة من مظاهر الاله الأعلى ، متمثلة في « منف ، هليوبوليس ، طيبة » • أما مراكز العبادات الأخري بما تحويه من آلهة محلية فقد طورت تطوراتها الموازية للعبادات الأساسية •

---

(٥٠) قارن فى ذلك تحديد الاتجاهات السماوية داخل المقبرة أو المعبد بناء على وضع الكواكب ، معتمداً فى ذلك على إتجاه شروق الشمس .

ويتضح مما سبق أن الثنائيـــة والازدواجية للاله الأعلى تمثل فى حد ذاتها واجهتى المبدأ الأزلى •

ويدخل أيضا فى نطاق تلك المجموعات الالهية المنبثقة من الواحد مانسميه بالثالوث ، فهى فى النهاية قوى الهيـــة متعددة تظهر لنا على هيئة أوجه وصور « الأوحد » •

فالطـــاقة الخالقـــة الثـــالوث تطابق تلك الموجودة بالتثليث داخل التاسوع ، فهو عبارة عن :

١ ــ المبـــدأ الأزلى (آتوم)

٢ ــ الذى نتج عنه (نوت أو تفنوت)

٣ ــ العـــلاقة بين الاثنين (جب أو شو)

أما بالنسبة للثالوث فهو انقسام الأوحد على نفسه مكونا قطبيـــة المتمثلين فى الأم والابن : آمون ــ رع ، موت ، خنسو أو بتـــاح ، سخمت ، نفرتم [٥١] •

نستخلص من ذلك وجود مبدأ أزلى للاله ، وهو « الاله العالمى »• الذى يسمى أحيـــانا Ntr — 3 أو Ntr — wr أنه الطاقة الخالقة لـــكل ماهو متناقض ومتباين ، الطاقة الخالقـــة للثالوث والتثليث ، الطاقة الخالقة لـــكل ماهو متغير ومتنوع (الحياة فى حد ذاتها) للظاهر والباطن •

---

(٥١) قارن كتاب الموتى الجزء السابع عشر : « كنت بمفردى فأصبحت ثلاثا » .

انه الأوحد ، خارج الحركة وخارج السكون وبالرغم من ذلك يتحد معهم • « رع » و « أوزوريس » — الروح والحياة • « رع يستقر فى أوزوريس وأوزوريس فى رع » [٥٢] • انه الاقرار بوجود مبدأين أساسيين يتمثلان فى الأصطلاحين : « الكينونة والصيرورة » أو « الموجب والسالب » أو « المذكر الخالق والمؤنث المستقبل » [٥٣] هذان المبدآن الأساسيان شىء عادى فى المجال الأرضى من خلال حياتنا اليومية • ولكن بالنسبة للمصرى القديم فهو اقرار لمبدأ غير عادى [٥٤] •

فاذا خرج الأوحد من حالة الاستقرار هذه ، فعند ذلك تتحول الكينونة الى الصيرورية ، وهنا تستيقظ الازدواجية الكامنة فيه ، بمعنى انفصال الظاهر والباطن عن بعضهما • « أنا أتوم عندما كنت بمفردى فى الماء الأزلى ، أنا رع عندما ظهر كى يسيطر على ما خلق » [٥٥] •

أما فى النهاية المطلقة فتتلاشى تلك الازدواجية الثنائية : الكينونة والصيرورة ، الماضى والمستقبل ، الفوضى والنظام ، الخير والشر ، الليل والنهار ، الحياة الدنيا والآخرة ، الروح والمادة ، الأب والابن ، الرجل والمرأة •••• الخ •

---

(٥٢) كتاب الموتى الجزء رقم ١٨٢ .

(٥٣) يجدر بنا هنا التأمل فى حياتنا اليومية متمثلة فى اليمين واليسار وما تحويه من انقسام وفى نفس الوقت اتحاد وجودى مصيرى .

(٥٤) فقد ذكر الأستاذ E. Otto (بالنسبة لموضوع الثنائية والازدواج) « انه يعتقد ما أسماه » : « التفكير الخاص للانسان المصرى القديم » .

(٥٥) كتاب الموتى الفصل السابع عشر .

بمعنى آخر تعود تلك الأشكال المنبثقة من مبدأ « الأوحد » الى حالة استقرارها الأولى [٥٦] بعد انفصالها عنه لتندمج معا مرة أخرى — تماما مثل الشكل الهلامى أو الزئبق الذى تنفصل جزيئاته عن بعضها ثم تعود فتندمج مع الأساس مرة أخرى — مكونة ذلك المبدأ أو المعتقد الأعلى ألا وهو Ntr— 3 أو Ntr — Wr « الاله الأكبر » .

---

(٥٦) قارن ماسبق ذكره بالنسبة للتاسوع والثالوث والتثنية .

[illegible]

[illegible]

الثورة الشعبية فى القسطنطينية
سنة ٥٣٢

دكتور رأفت عبد الحميد محمد
استاذ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب — جامعة عين شمس

منذ انتقلت روما من على ضفاف التيبر ، الى شطآن البسفور ، أخذت حادثات التاريخ ، على امتداد ثلاثة قرون من الرابع الى السابع تنبىء بالتحول الى عصر جديد •• من عالم رومانى ، ثقافته اللاتينية ولسانه ، الى عالم روماني اصطبغ بالصبغة اليونانية ، فكرا ولغة • بل أصبح منذ القرن السابع الميلادي وحتى الخامس عشر ، عالما رومانيا بلسان يونانى ! فقد بنيت روما الجديدة •• القسطنطينية •• فى قلب عالم اليونان ، وفيها امتزج وتفاعل تراث اليونان بخياله الواسع ، وميثولوجياه ، بمدارسه الفكرية وفلسفاته ، مع تراث الرومان بسماته العملية ونظمه ، بتشريعاته وقوانينه • هذا وذاك الى جانب العقيدة الجديدة ، المسيحية ، والتى غدت فى أخريات سنى القرن الرابع الميلادي ، على يد الامبراطور ثيودسيوس ، الدين الرسمى للامبراطورية • ومن هذا التفاعل فى بوتقة القسطنطينية ، وجدنا أنفسنا فى القرن السابع ، على أعتاب عصر جديد ، هو ما اصطلح المؤرخون على تسميته بـ « العصر البيزنطى » •

وحرص أباطرة الرومان فى القسطنطينية ، على أن لا تبدو حاضرتهم الجديدة ، أقل بهاء ورونقا ، من روما التيبر ، فالسوق والساحة والحمامات والهيدروم ومجلس السناتو ، تم تشييدها ، وان خلت روما الجديدة من

البانثيون والكابيتول ، فقد تم الاستعاضة عن ذلك بكنائس القديسين والحكمة المقدسة « أيا صوفيا » ، الى الحد الذى غدا بمقدور العابد ، على حد رواية واحد من المعاصرين ، أن يصلى كل يوم جديد ، على مدار السنة ، فى كنيسة غير التى صلى فيها بالأمس • وأزدانت المدينة بالقصور الامبراطورية الفخمة ، وبيوتات كبار النبلاء والمترفين ، حتى بهرت الباب القادمين اليها من وفود الدول الأجنبية ، والقبائل القاطنة على حدودها • واستغلت ادارة الخارجية البيزنطية هذه المظاهر البراقة فى العاصمة ، للتأثير على نفوس أولاء السفراء الساعين الى بلاط القيصر الرومانى ، للبحث عن معاهدة للسلام ، أو هدنة توقف حربا ، أو طمعا فى آقاب التشريف ، أو تطلعا الى الخلع الثمينة والهدايا من الحلى والثياب ، التى تعتبرها أولئك الشعوب المحيطة بالامبراطورية ، خاصة القبائل النازلة عند حدودها الشمالية والغربية ، نوعا من التكريم الرومانى ، يتنافس فيه المتنافسون[1] •

والى جانب هذا الثراء الذى يشع من جنبات الحى الشرقى فى القسطنطينية ، كانت هناك الأحياء الفقيرة والحارات الضيقة ، التى يقيم فيها الأدنياء من سكان العاصمة ، من العبيد وأنصاف الأحرار ، والمتسولين والعمال المؤقتين ، وعمال اليومية وصغار الحرفيين • والى جوار هؤلاء وأولئك كان هناك أبناء الطبقة الوسطى من التجار وأصحاب المهن الحرة ، كالأطباء والمعلمين الخصوصيين الذين يقومون بالتعليم بدافع من أنفسهم ، والموثقين القانونيين ، وأصحاب السفن وأصحاب البيوت التجارية ، والمثقفين[2] •

---

(١) بسط الامبراطور قسطنطين السابع هذه الأمور بصورة واضحة فى كثير من فصول كتابه « عن الادارة الامبراطورية » •• راجع :

De Administrando Imperio, Cap. 43-44, 46, 50-51, 53.

(٢) راجع البحث القيم الذى نشره دكتور وسام عبد العزيز فرج ، تحت عنوان « أضواء على مجتمع القسطنطينية : دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى » ، مجلة كلية الآداب — جامعة المنصورة ، العدد الخامس ، ص ٨٣—٩١ ، ١٠١—١٠٧ •

ويصف بول ويلمان[٣] القسطنطينية فى القرن السادس فى عبارات بليغة بقوله : « ... تزدحم فيها البيوت المتلاصقة التى يسكنها خليط من الأجناس ، يتكلمون لغات مختلفة ، وغرباء يتحدثون بألسنة تختلط فيها اللاتينية باليونانية . أصحاب حوانيت ومتسولون ، عاملون وعاطلون ، أخرار وأرقاء ، شرفاء وأنذال ، مؤمنون وملحدون ، كل يمضى لغرضه عبر الشوارع الواسعة أو الأزقة الضيقة ، منهم من يعمل فى جهد ، ومن يجوب المدينة باحثا عن عمل !! » .

على أن الشىء الذى تجدر ملاحظته ، أن الفصل التعسفى الذى حاول الامبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤—٣٠٥) تأصيله بين الطبقات فى المجتمع الرومانى ، ابان القرن الثالث الميلادى ، وذلك بمنع الانتقال من طبقة اجتماعية الى أخرى تعلوها ، لم يحقق الهدف الذى كان يرتجيه منه واضعه ، فقد كان يسيرا على ابن الفلاح أن يصبح امبراطورا ، كما استطاعت ابنة حارس الدببة أن تقفز الى العرش ، بالزواج من ولى العهد . وكان بمقدور أى شاب ماهر مغامر أن يشق طريقه الى أعلى المناصب ، بل الى العرش الامبراطورى[٤] . بحيث يمكن القول مع الدكتور وسام عبد العزيز[٥] ، ان طبقات مجتمع القسطنطينية لم تكن عبارة عن صناديق اجتماعية منغلقة على أبنائها ، فالصعود الاجتماعى أو الهبوط من والى طبقة أخرى ، كان أمرا واردا ، ذلك أن الطبقات الأفقية لمجتمع القسطنطينية كانت تتسم دائما بالقلق وعدم الاستقرار ، وأحيانا ما كان الهرم الاجتماعى لهذه الطبقات يهتز بشدة ،

---

(٣) بول ويلمان : ثيودورا ، ص ٦ . ويضيف « انها تنبسط كما لو كانت مطوقة بأذرع ثلاث .. البسفور والدردنيل والقرن الذهبى ، تتألق كأنها مرصعة بثروة العالم ، متباهية فى كبرياء ، سفسطائية .. خلابة ، وشعبها فى حركة دائمة .. وقورة محتشمة ، عابثة مستهترة ، رقيقة قاسية ، متحضرة متوحشة ص ٥ .

(٤) هسى ، العالم البيزنطى ، ترجمة رأفت عبد الحميد ، ص ٣١٢ .

(٥) أورد دكتور وسام عبد العزيز ثبتا بأسماء الأباطرة البيزنطيين ، الذين يعودون الى أصول اجتماعية متواضعة أو غامضة . انظر ، مجتمع القسطنطينية ، ص ٧٤—٧٨ .

بسبب اندفاع خط عمودى يخترق الطبقات الاجتماعية الأخرى من القاعدة الى القمة ، أو نتيجة هبوط عمودى عكسى ، مما يعبر عن حالة الاضطراب وعدم الاستقرار فى المدينة ، التى تعكس الاضطراب فى الامبراطورية كلها » • لقد كانت العاصمة تعد مركز الحياة الاجتماعية والسياسية لبيزنطة ، فالذى يمتلك القسطنطينية يسود الامبراطورية[٦] • ذلك أن تلك المدينة الكبيرة ، كانت تعتبر من عدة نواح ، عالما مصغرا للامبراطورية جميعها فى كل شىء ، حتى يمكن القول انها ظلت لقرون عديدة تمثل سيادة الدولة ومكانتها وفخارها ، قوتها العسكرية وسمتها العالمى ، ثراءها وتقواها ، مجدها الأدبى وسمعتها الفنية[٧] •

مدينة على هذا النحو ، تمثل عالم الامبراطورية ، كان لابد أن تزخر بالوافدين اليهـا من كل أقاليم الامبراطورية ، مدنها وقراهـا ، بعضهم للتجارة،وبعض ثان لمسائل قانونية،وثالث للمتعة والسرور،ورابع للمغامرة والبحث عن حظ لم يواته فى بلدته ، وقد عبر عن هذه الحال ، الامبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧ — ٥٦٥) فى واحد من قوانينه بقوله : « خلت الولايات من ساكنيها بينما امتلأت مدينتنا بأضداد الخلائق »[٨] • تغص بهم الشوارع والميادين منذ مطلع الشمس الى ما بعد مغربها • والمواطنون يرفلون فى ثيابهم الحريرية الموشاة بالذهب ، يمتطون صهوات جيادهم المطهمة ، يبدون فى زينتهم كما الأمراء ، ويتحركون فى وسـط التجار القادمين من كل أنحاء العالم ، وصقالبة مغاورن ، وصيادون من الأرمن والاسكندنافيين ، محظوظون ، وجنود فى بزاتهم العسكرية ، وحراس من الورنك Varangian • والخـزر والروس ومرتزقـة من

---

(٦) هسى : العالم المبيزنطى ، ص ٣١٢ •

(7) Diehl, Byzantium, Greatness and Decline, p. 95.

(8) Ius. Nov. LXXX.

اللاتين • ونساء يتبرجن فى أبهى زينة ، ليعطى هذا كله المدينة زخرفها وحياتها[٩] •

وقد ساعد على ذلك ، الموقع الممتاز الذى تقف عليه القسطنطينية ، اذ تمثل حلقة الاتصال الحضارى والتجارى بين آسيا وأوربا • فعلى شطآنها يقع طريق التجارة البحرى الذى يربط البحر الأسود وما وراءه شمالا ، وبحر ايجة فى الجنوب وما يفضى اليه ،حيث البحر المتوسط وسوريا ومصر ، وما خلفهما من تجارة الشرق الأقصى عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى • وتحت أسوارها يمر الطريق البرى الهام الذى يصل بين آسيا الصغرى والصين عبر فارس وأوروبا ، والذى يمثل الشريان التجارى الحيوى للقسطنطينية بصفة خاصة ، اذ هو طريق الحرير القادم من الصين الى العاصمة الامبراطورية •

ومن الطبيعى والحالة هذه ، والعاصمة تموج بهذا الخليط من البشر ، أن يصبح حفظ الأمن وضمان الهدوء فيها ، أمرا ليس باليسير ، خاصة بين جموع سريعة الهياج ، صخابة ، منقسمة على نفسها شيعا وأحزابا ، ما تلبث أن تنقلب ــ على حد قول شارل ديل Ch. Diehl من الافراط فى البهجة والأمل ، الى التخبط والتيه ، ومن اللهو الى الثورة ، ومن الشعور بالعظمة والفخار ، الى حائط اليأس والقنوط[١٠] • ووسط هذه الجمهرة من العاطلين والمتنطعين ، يمسى الولع بكل ما يسبب الاثارة شيئا مرغوبا فيه ، بل وقائما • ويجد المشاءون بالشائعات ، والقيل والقال ،

---

(٩) Diehl. By zantium, p. 109. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الخليط العجيب من بنى البشر ، الذى كانت تزخر به القسطنطينية ، وطبائع هؤلاء الناس وطرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم ، راجع :

Downey, Constantinople in the age of Justinian, pp. 14-44.

وأيضا :

Manojlovic, Le peuple de Constontinople, Cin By zantion, XI, pp. 617-716).

(10) Byzantium, p. 109.

آذانا صاغية لدى جمهور متحفز ! عدة ما كان زعماؤهم يلتقون ابان القرن السادس تحت عقود الرواق الامبراطورى ، وفى محلات بائعى الكتب ، حيث تدور أحاديثهم حول مختلف الموضوعات ، فى الفلسفة والسياسة ، فى الطب والعقيدة ، وبأسلوب الواثق المتعصب ، مما يترك تأثيره البالغ فى نفوس سامعيه من العامة ، الذين يبلغ بهم العجب مبلغه لهذا الذى يسمعون ، وللثقة الزائدة التى يعلن بها هؤلاء المتحدثون أخبارهم ، ويعرضون من خلالها آراءهم[11] .

والقسطنطينية ، شأن روما القديمة ، والمدن الأخرى الكبيرة فى الامبراطورية ، يحرص أهلوها دوما على الاستمتاع بما يجرى فى الهبدروم Hippodrom من سباق العربات والعروض المسرحية وألعاب السيرك وألوان الرقص والغناء ، وينقسم جمهور النظارة بطبيعة الحال على نفسه لتشجيع هذا الفريق أو ذاك من المتسابقين ، بكل الحماسة والهوس المتأصلين فى جماهير هذه المدن ، والذى عهدناه على مر التاريخ البيزنطى ، ليس فى القسطنطينية وحدها ، بل فى مدن أخرى مثل أنطاكية والاسكندرية وسالونيك مثلا[12] . وكان سباق العربات أحب

---

(11) Id.

(١٢)
Cameron, Circus factions, blues and greens at Rome and Byzontium, p. 230

وقد شهدت هذه المدن العديد من حوادث الشغب ، التى عادة ما كانت تبدأ بين أنصار الفرق المتسابقة ، ثم تمتد لتشمل المدينة كلها ، معبرة دائما عن سخط الأهالى هنا أو هناك ، غالبا على السياسة الاقتصادية أو العقيدية التى تتبعها الحكومة البيزنطية ازاءهم . وكان من أشهر ما جرى فى هذا الشأن ، ما شهدته كل من أنطاكية وسالونيك فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٨ــ٣٩٥) . وكان شغب سالونيك بصفة خاصة أخطرها على الاطلاق ، لما تبعه من وقوع المذبحة المروعة التى ذهب ضحيتها على أقل التقديرات عند المعاصرين ، سبعة آلاف شخص . عن هذه الأحداث راجع :

SOZOM. hist. eccl. VII 23-25; THEOD. hist. eccl. V 17, 19.

=

ألوان التسلية الى قلوب جمهور النظارة فى القسطنطينية وغيرها من المدن الكبرى فى الامبراطورية ، وأكثرها متعة له وإثارة ، حتى أنه كان من الأمور الطبيعية التغاضى عن الجوانب اللا أخلاقية فى طبائع المتسابقين ، من أجل الاعجاب بهذا اللاعب أو ذاك ، تشهد على ذلك حادثة سالونيك الشهيرة فى أخريات سنى القرن الرابع الميلادى(١٣) .

ولما كان كل شوط من أشواط السباق الأربعة والعشرين ، يضم أربعة لاعبين ، فقد ميز كل منهم نفسه بلون معين ، تمثلت فى الأبيض والأحمر والأخضر والأزرق ، وبمرور الزمن واشتداد حمى التنافس بين هذه الفرق ، قفز الى الصفوف الأولى فريقا الزرق والخضر ، وذاعت شهرتهما على فريقى البيض والحمر ، ولا يعنى هذا اندثار الفريقين الأخيرين ، أو تبعية أو اندماج الحمر فى الخضر ، والبيض فى الزرق ،

=

وراجع ايضا :

Veyonis, Byzantine circus factions and Islamic futuwa organizations, pp. 49-51.

حيث يعطينا أسماء كثير من المدن التى شهدت مثل هذا الشغب فى القرنين السادس وأوائل السابع ، مثل مدن آسيا الصغرى والقدس وقيسارية فلسطين وأفاميا وأنطاكية والرها وطرسوس وسلوقية . راجع أيضا :

THEOPH. Chron. I, pp. 256-257

(١٣) تعود أحداث سالونيك — كما تصورها المصادر — الى وجود علاقة آثمة بين أحد المتسابقين وواحد من غلمان بوثريك Buthericus الحاكم الجرمانى للمدينة ، والذى أمر بالقبض على اللاعب الداعر ، الا أن الجمهور طالب بالافراج عن لاعبه الأثير ، بغض النظر عن أخلاقياته ، فما رفض بوثريك الاستجابة لمطالبهم ، ذبحوه ! مما دفع الامبراطور ثيودوسيوس الى انزال العقاب الصارم بأهالى المدينة .

راجع تفاصيل هذه الأحداث ، والظروف التى أحاطت بها ، ومغزى موقف الامبراطور منها ، وما ترتب على هذه الحادثة من صراع بين الدولة والكنيسة ، فى كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع ، الفصل السادس .

كما يعتقد بعض المؤرخين[١٤] ، بل ظلت الألوان الأربعة تتنافس فى الهيدروم ، وان كانت الشهرة قد أصبحت من نصيب فريقى الزرق والخضر ومن ثم انقسم الناس فى العاصمة الأمبراطورية ، وكذا المدن الكبرى ، بين هذين الفريقين • وترك التنافس الذي كان قائما بين الزرق والخضر فى المضمار ، بصماته الواضحة على مواقف المشجعين وحماستهم داخل الهيدروم فى المدرجات التى خصصت لأنصار هذا الفريق أو ذاك على جانبى المقصورة الأمبراطورية[١٥] ، بصورة اتسمت بالعصبية الكاملة التى وصلت الى حد الهوس ، وطبعت العلاقات بين هؤلاء وأولئك فى الحياة العامة ، بقدر من العداء ، الذى بلغ فى كثير من الأحيان حد الصراع والاقتتال فى الشوارع ، وهو ما تفيض به صفحات المصادر التاريخية المعاصرة[١٦] • ومن هنا يصبح من الضرورى ، عند الحديث عن وقائع الشغب فى العاصمة أو غيرها من المدن ، التفرقة بين الفرق

---

(١٤) Lindsay, Byzantium into Europe, p. 55 وللوقوف على نشأة هذه الفرق الرياضية ، وانتماءاتها الطبقية ، واهتماماتها السياسية ، ونشاطاتها العسكرية ، واتجاهاتها العقيدية ، وصراعاتها ودورها الهام فى الحياة العامة فى الامبراطورية ، راجع الدراسة الممتازة التى أعدها A. Cameron تحت عنوان :

Circus factions, blues and greens at Rome and Byzantium, Oxford 1976.

(١٥) — لم تكن مقاعد مشجعي الزرق والخضر فى الهيدروم تتسم بالثبات على نحو دائم ، بل كثيرا ما تعرضت للتغيير والتبديل على يد هذا الامبراطور أو ذاك ، تبعا لميله لأحد الفريقين ، من ذلك ما اقدم عليه الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨—٤٥٠) من جعل الخضر يحتلون المقاعد الواقعة عن يسار المقصورة الامبراطورية ، بدلا من الزرق ، تكريما للخضر الذين كان هوى الامبراطور معهم • انظر : Lindsay, Byzantium, p. 118

(١٦) انظر :

IUS. Nov. XVII, 2, 13, 15; XXIV, 1, 3; XXX, 5.

وأيضا : PROCOP. hist. arc. VII

وكذلك : EVAG. hist. eccl. IV, 32.

الرياضية المتسـابقة فى المضـمار ، ومشجعيهم الذين يقفون وراءهم يناصرونهم ويؤازرون[١٧] • ومن ثم فـان الحديث عن حزبى الزرق والخضر ، يعنى بصورة طبيعية أنصار هذا الفريق أو ذاك وزعماءهم •• أنصار الزرق Venetiani وأنصار الخضر Prasiniani •

وقد لعبت المصالح الاقتصادية لهؤلاء الزعمـاء ، والمتعارضة فى كثير من الاحيان ، ان لم يكن كلها ، دورا كبيرا فى التباعد بين الحزبين ، بحيث فرضت على هؤلاء وأولئك انتماءا طبقيا معينا من الناحية الاجتماعية، فالتجار والحرفيون والبحارة وأصحاب الحوانيت الكبيرة ، كانوا يشكلون الزعامة فى حزب الخضر ، بينما كان قادة حزب الزرق هم كبـار ملاك الأراضى من الطبقة النبيلة أصحاب النفوذ والمناصب العليا فى الدولة • ولم يعد من المقبول الآن فى ضوء الدراسات الحديثة ، أن نذهب مـع Monjlovic و Jarry فى تصنيف الحزبين الى فقراء Humiliores وأغنياء Potentiores [١٨] ، ذلك أنه من الممكن أن نجد جماهير العامة فى الحزبين • أما الخلاف فيكمن أصلا فى الزعامتين[١٩] ومحاولة كل منهما أن يحظى بتأييد الحكومة لمصالحه الخاصة ، وبشكل جوهرى فيما يتعلق بمسألة الضرائب •• هل تثقل بها الأراضى •• أم المدن والتجارة ؟!

---

(١٧) راجع : دكتور وسام عبد العزيز : مجتمع القسطنطينية ، ص ١٠٨—١٠٩ وايضا :
Cameron, Demes and factions, pp. 74-91.

Manjlovic, Le peuple de Constantinople, pp. 617-716.

(١٨) راجـــع :
Manjlovic, Le peuple de Constontinople, pp. 617-716.

وايضـــا :

Jarry, Heresies et factions, p. 283.

(١٩) دكتور وسام عبد العزيز : مجتمع القسطنطينية ، ص ١١٤ وأيضا :
Lindsay, Byzantium, p. 55; Cameron, Demes and factions, pp. 74-91.

ومما يلفت النظر أن عددا ليس بالقليل من الخبراء الماليين ، كانوا ينتمون الى المناطق الشرقية ، بحكم تمرسهم فى النواحى التجارية ، وباعتبار التجارة الشرقية بصفة رئيسية ، تمثل عصب الحياة الاقتصادية للامبراطورية البيزنطية • ولما كان زعماء الخضر من كبار التجار الذين ينتشرون فى الأقاليم الشرقية ، فقد وجدوا عونا لهم فى كثير من الأحيان فى الادارة المالية فى العاصمة ، بينما وجد الزرق تأييدا لهم فى النبالة الرومانية المتمثلة فى أعضاء مجلس السناتو[٢٠] •

ولما كانت الامبراطورية قد غرقت حتى آذانها ، خلال القرون من الرابع الى السابع ، فى ذلك « اللابرنت » العقيدى ، على حد تعبير المؤرخ الكنسى سقراط Socrates بسبب الخلاف فى الرأى بين آباء الكنيسة حول طبيعة المسيح ، وامتزاج الفلسفات اليونانية السائدة بالعقيدة المسيحية ، بحيث امتلأت الشوارع والأزقة بالمتحدثين فى غوامض الكلم ، كما يحدثنا اللاهوتى الكبادوكى الشهير ، جريجورى النيساوى Gregorius Nysaeus لا فرق فى ذلك بين الامبراطور ورجل الشارع ، مرورا بالمثقفين والجهاز الادارى والجنود ، والملأ من القوم وعامتهم ، كان طبيعيا اذن — والحالة هذه — أن نضيف الى وميض الجمر بين الرماد ، ضراما يؤجج نيران الخلافات الكامنة • ساعد على ذلك ، السياسة العقيدية التى انتهجتها حكومة القسطنطينية من اعتبار الارثوذكسية

---

(٢٠) كان مارينوس السورى هى المستشار المالى الأول للامبراطور أنسطاسيوس ، كما كان يوحنا الكبادوكى هو وزير مالية جوستنيان ، ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد ، أنه فى عام ٤٩٨ ، أقدم الامبراطور أنسطاسيوس على احراق السجلات الخاصة بالضرائب ، والتى كانت فى معظمها واقعة على رءوس التجار فى المناطق الشرقية • ويعطينا يوشع العمودى Joshua the stylite وصفا رائعا لمظاهر الفرح والسرور التى عمت أهالى مدينة الرها ، نتيجة لهذا الاجراء ، كمثال لما جرى فى كثير من مدن النصف الشرقى من الامبراطورية • أنظر :

IOSH. Chron. p. 22.

وأيضا : MALALAS, Chron. p. 400

الخلقيدونية ، الدين الصحيح ، وما عداها زيغ وهرطقة يجب القضاء عليها • ولما كانت جل ، ان لم يكن كل هذه الآراء المعارضة قادمة من الولايات الشرقية ، فقد أصبحت بالتالى معتقد التجار والحرفيين وأصحاب الحوانيت ، الذين يشكلون فى زعامتهم حزب الخضر •

على أن الأمر الذى تجدر الاشارة اليه ، أن هذا لا يعنى أن تكون الطبقة العليا والنبالة الرومانية فى القسطنطينية ، هى التى تمثل الأرثوذكسية الخلقيدونية ، وأن الطبقتين الوسطى والدنيا وحدهما تؤمنان بالمونوفيزية ، وأن أصحاب هذه العقيدة يمثلون دائما المعارضة الحقيقية للسلطة الامبراطورية • فالقسطنطينية كانت تمتلىء بالعمال والموظفين والتجار والحرفيين ، الذين يعتمدون بصفة أساسية فى مصدر رزقهم على ما يمدون به القصر والكنيسة من منتجات معينة ، ومن ثم لم يكن الخضر فى المدينة — على حد تعبير Lindsay أقل تحمسا للمونوفيزية من الخضر فى أنطاكية مثلا[٢١] • والذين ثاروا فى وجه الامبراطور أنسطاسيوس ، المعروف بميوله المونوفيزية الواضحة ، وتأييده للخضر ، كانوا هم الخضر والزرق معا !! ومع تحيز الامبراطورة ثيودورا ، زوج جوستنيان ، للخضر ، الا أن وقوفها الى جانب الزرق أحيانا كان يبدو واضحا[٢٢] ، هذا اذا أخذنا بحديث المؤرخ بروكوبيوس دون مناقشة •

وفى دراسة رائعة أعدها A. Cameron [٢٣] ، راح يناقش آراء المؤرخين التقليدية القائلة بأن الزرق هم الأرثوذكس وأن الخضر هم المنافزة • ويذكر أن الخلافات العقيدية لم تلعب أى دور فى المنافسة بين الفرق الرياضية المتسابقة فى المضمار ، ويلقى باللوم على هذه الدراسات التى تؤكد بصورة قاطعة ، دون حساب أى عامل آخر ، على التوافق الكامل عند الأباطرة ، بين الميول العقائدية والانتماءات الحزبية

---

(21) Byzantium into Europe, p. 56.
(22) PROCOP. hist. arc. X, 16-18.
(23) Heresies and factions, pp. 92-120.

ويذكر أنه من بين خمسة عشر امبراطورا بين ثيودوسيوس الثانى ، وهرقل Heraclius (٦١٠ — ٦٤١) ، كان هناك أربعة يؤيدون الخضر هم ثيودوسيوس الثانى ، وزينون Zino (٤٧٤ — ٤٩١) وموريس Mauriceus (٥٨٢ — ٦٠٢) وهرقل • وثلاثة يناصرون الزرق ، هم مارقيان Marcianus (٤٥٠ — ٤٥٧) وجوستنيان Iustinianus (٥٢٧ — ٥٦٥) وفوقاس Prasiniani (٦٠٢ — ٦١٠) •

ليس هناك اذن ما يدعو الى الاصرار على التصنيف الطبـــقى أو العقيدى فى تفسير حوادث الشغب التى كانت تجرى فى الهبدروم بين أنصار الزرق Venetiani وأنصار الخضر Prasiniani ما دامت جموع هؤلاء الأنصار كانت توجد على اتساع طبقة العامة ،وأن الخلاف كان واضحا بين زعماء مؤيدى الفريقين • فاذا ما حدث واتحدت جماهير العامة ، كما جرى فى ثورة نيقا Nika عام ٥٣٢ فى القســـطنطينية ، فان هذا يعنى أن الأمر لم يعد بيد زعماء الحزبين ، وأن الثورة لم تعد موجهة فقط ضد الحكومة ، بل ضد الطبقة الحاكمة نفسها[٢٤] ، بل قد يكون ذلك ضد النظام القائم برمته •

والبيزنطى بما اشتهر عنه من ولع بالمناقشات العميقة ، حتى صارت هذه تضرب مثلا لكل جدل عقيم ، وجد متنفسا متسعا له فى الهبدروم ، ليس فقط فى مشاهدة السباق ، المحبب الى قلبه ، أو العروض المسرحية ، أو ألعاب الحواة ، أو ألوان الرقص والغناء — كما أســـلفنا ، بل فى المناقشات التى كانت قد أصبحت شيئا تقليديا فى الهبدروم ، الذى كان فى القسطنطينية لا يقل شأنا عن القصر المقدس أو كنيسة الحكمة المقدسة، أيا صـــوفيا • لقد كان — حســـب تعبير شـــارل ديل — بؤرة الحيـــاة

(٢٤) دكتور وسام عبد العزيز ، مجتمع القسطنطينية ١١٤ـــ١١٥ وأيضا
Lindsay, Byzantium, p. 56; Cameron, Circus factions, p. 278.

البيزنطية[٢٥] ، بعد أن أصبح من الأمور العادية ، منذ زمن أوغسطس Augustus ، بل من الأمور الشائعة أن يقدم الناس الى الامبراطور التماساتهم فى الهبدروم ، وكان على الامبراطور أن يجيب عليهـا . وما دامت المطالب تقدم بصورة عامة على هذا النحو ، أمام جمهـور النظارة الكبير ، فلابد أن تكون مطالب سياسية ، أو تتعلق بالنظام القائم . وهنا .. لا يوجد أدنى شك فى أنه كان على الامبراطور أن يواجه شعبه فى كل المسائل ، كبيرة كانت أم صغيرة[٢٦] .

ولا ريب أن التحول السياسى الكبير الذى شهدته روما ، انتقـالا من الجمهورية الى الامبراطورية ، قد ترك بصماته واضحة فى هـذا المجال ، ذلك أن المناقشات الرائعة التى شهدتها قاعة مجلس السناتو ، خاصة خلال النصف الثانى من القرن الثانى ، وعلى امتداد القرن الأول قبل الميلاد ، راحت تنحسر تدريجيا بمقتضى السلطات التى خلعها السناتو على أوكتافيانوس Octavianus ، باعتباره منقذ الجمهورية الرومانية من أعدائها . ولـما لم يكن خلفاء أوكتافيانوس أوغسطس بأقل منه حرصا على التمسك بهذه السلطات ، فقد تولى السناتو الى الظل ، وأمسى على حد قول مؤرخ القرن السادس ، بروكوبيوس ، مجرد « صورة معلقة على جدران الزمن !! »[٢٧] . وانتقلت اختصاصاته ، رغم أنف أعضائه ، وخاصة اختيار الامبراطور ، الى أيدى الجيش الذى أصبح يمثل مركز

---

(٢٥) Byzantium, Greatness and Decline, p. 108.

ويقول فازيلييف نقلا عن « أوسـبنسكى » كان المضـمار هو المكان الوحيد للتعبير الحر عن الرأى العام ، الذى كان يفرض نفسه أحيانا على الحكومة » . انظر :

Vasiliev, history of the Byzantine Empire, I, p. 155.

(26) Cameron, Circus factions, p. 162.

(27) PROCOP. hist. arc. XIV, 10.

القوة الرئيسية فى الامبراطورية[٢٨] • وتجلى ذلك بصورة واضحة خلال أزمة القرن الثالث الميلادى ، التى امتدت ما بين عامى ٢٣٥—٢٨٤ للميلاد[٢٩] ، حيث فقد السناتو أهميته تماما ، ولم يعد له أى دور فى الحياة السياسية فى الامبراطورية[٣٠] ، وظل هذا حاله حتى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، عندما حاول أن يصحو من سباته الطويل ، ليشارك بقدر معين فيما يجرى على خشبة المسرح السياسى الرومانى فى القسطنطينية •

ومن هنا وجد أهالى القسطنطينية فى الهبدروم ، بفرقه الرياضية ، متنفسا طبيعيا يمارسون من خلاله مناقشاتهم ، ويعبرون عن آرائهم فى السياسة والاقتصاد ، أو بمعنى أكثر دقة ، الضرائب والعقيدة • خاصة عندما راح دور الجيش فى اختيار الأباطرة يتقلص هو الآخر تدريجيا ، بتأثير النظام السياسى الذى وضعه الامبراطور قسطنطين فى ثلاثينيات

---

(٢٨) كان هذا واضحا منذ عام ٦٩ للميلاد ، وهى السنة الشهيرة للاباطرة الأربعة ، التى أعقبت وفاة الامبراطور نيرون Nero (٥٤—٦٨) ، وهى التى علمت الجيش أنه من الممكن أن يوجد الامبراطور فى أى مكان خارج روما • وان كان العسكريون لحسن حظ الامبراطورية ، لم يستغلوا هذه الفرصة لمدة مائة عام تالية • حتى اذا كان عهد سبتميوس سفروس Septimius Severus نصح ابنه عندما حضرته الوفاة .. قائلا : « أجزل العطاء للجند ولا تلق بالا للآخرين » • راجع :

Jones, Constantine and the Canversion of Europe, P. 2.

(٢٩) للمزيد من التفاصيل عن أحداث هذه الفترة ، راجع للباحث : الدولة والكنيسة .. الجزء الثانى ، الفصل الأول •

(٣٠) راجع الفصل الممتاز الذى كتبه المؤرخ جونز A. H. M. Jones عن السناتو فى القسطنطينية وذلك فى كتابه :

Later Roman Empire, II, pp. 523-562.

القرن الرابع الميلادى[٣١] .

ولا شك أن الممارسة العملية التى باشرها الرومان ، سواء فى روما القديمة ، أو سميتها الجديدة ، فى الهبدروم ، ابتداء بعصر أوغسطس ، ومرورا بالأباطرة جابوس Gaius ونيرون Neron وكومودوس Commodus وغيرهم ، وصولا الى انسطاسيوس Anastasius فى أوائل القرن السادس الميلادى ، والتى تمثلت معظمها فى الاحتجاج الصارخ فى المضمار ، على التعسف فى تقدير الضرائب وجبايتها ، والمناداة بضرورة اتباع سياسة معتدلة بين الأحزاب السياسية ، حتى وصل الأمر الى المطالبة بخلع الامبراطور نفسه ، كما جرى لأنسطاسيوس وجوستنيان . كل هذا يعد دليلاً على الأهمية البالغة التى كان يدركها الناس والأباطرة لما يجرى فى الهبدروم[٣٢] .

فى ضوء هذه الأمور يمكن أن ندرك ما جرى فى عام ٥٣٢ على عصر الامبراطور جوستنيان . لكن مجريات الأحداث ووقائعها التى امتدت

---

(٣١) يذكر المؤرخ نورمان بينز N. Baynes ان اختيار الامبراطور كان يمر بأربعة أدوار ، الأول حين ينادى السناتو الرومانى أو الجيش بوضع المرشح فى وضع « دستورى » يجعله فى مكان الامبراطور المنتظر ، والثانى ، موافقة الطرف الآخر وهو المرشح ، على ذلك الترشيح ، والثالث . . التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الرومانى «فى الهبدروم» بحياة الامبراطور . أما الرابع فهو تتويجه على يد بطريرك القسطنطينية ، باعتباره ممثلا للناخبين لا الكنيسة . وقد جرى التقليد بذلك وان لم يكن أساسيا الالتزام بهذه الأدوار . راجع بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ، ص ٨٠ . وكان ليو الأول هو أول امبراطور يجرى تتويجه عام ٤٥٧ على يد بطريرك العاصمة .

(٣٢) يتضح هذا المعنى تماما فى عبارات المؤرخ اليهودى يوسفوس ، التى يصف بها الأحداث التى وقعت فى يناير عام ٤١ للميلاد ، قبل مقتل الامبراطور جايوس بأسابيع قليلة . ويبين لنا من تاريخها المبكر ، مدى الدور الذى لعبه الهيدروم بصورة مطردة فى الحاة السياسية فى الامبراطورية . راجع :

Cameron, Circus factions, pp. 162-163.

ثمانية أيام (١١ــ١٨ يناير) وما صحبها ، وما لحق بها ، يجعلنا نرى فيها شيئا يختلف عما شهدته القسطنطينية من قبل ومن بعد •

ففي يوم الأحد •• الحادى عشر من يناير ، جرى السباق فى الهبدروم ، كما جرى التقليد بذلك ، حتى اذا كانت الاستراحة التى أعقبت الشوط الثانى والعشرين ، واقترب السباق من نهايته ، ولم يبق منه الا شوطان ، ارتفع صوت من بين مقاعد الخضر يلتمس من الامبراطور، الذى كان يتخذ مجلسه فى المقصورة Kathisma ، رفع الظلم الذى أوقعه بهم واحد من رجاله يدعى كالوبوديوس Calopodius وأنكر المتحدث باسم الامبراطور ذلك ، بل أنكر أن يكون هناك أحد فى حاشية الامبراطور يحمل هذا الاسم ! واتهم الخضر بأنهم لم يأتوا الى الهبدروم لمشاهدة السباق ، بل للتطاول على سلطان الحكومة • وناداهم بأنهم يهــود •• سامريون •• مانويون ، ليزداد بذلك غضب الخضر ويزداد صياحهم ، فى أغرب حوار جرى بين حاكم ورعيته ، سجله لنا بقلمه المؤرخ ثيوفانس[٣٣] Theophanes كاملا •• نقف منه على مدى ما يكنه الخضر للسلطة الحاكمة من كراهية ، وذلك نتيجة لاتخاذها جانب الزرق ، حتى « أعتبر هؤلاء أنفسهم ــ بتعبير بروكوبيوس ــ فوق القانون ، واكتسبوا وضعا خاصا فوق الجموع بانتسابهم الى العــرش » • ويضيف ومؤرخنــا بروكوبيوس فى عبارات قاطعة : « ان تأييد جوستنيان لحزب الــزرق جعل الدولة الرومانية تجثو على ركبتيها لتخر راكعة كما لو كان قد هزها زلزال ، أو اجتاحها طوفان ! كما لو كانت كل مدينة من مدائنها قد سقطت فى يد العدو • لقد انقلب كل أمر الى فوضى ، ولم يعد شىء على حاله ! لقد ديست القوانين ، ولم يعد للنظام أى وجود »[٣٤] •

وقد بلغ الحنق بالخضر فى الهبدروم مبلغه ، عندما وقف زعيمهم

---

(33) THEOPH. chron. I, pp. 278-282.

(34) PROCOP. hist. arc. VII.

يصيح قبالة المقصورة الامبراطورية ، : « ألا ليت ساباتيوس Sabbatius لم يولد أبدا»[٣٥] Utinam Sabbatius nusquam fuisset natus

والعبارة على هذا النحو موجهة الى الامبراطور مباشرة ، ذلك أن ساباتيوس هذا هو والد جوستنيان !! والابن •• هو بطرس ساباتيوس ، فلما قدم خاله جوستين Justinus الى العاصمة ، وترقى فى سلك المناصب حتى أصبح لدى الامبراطور أنسطاسيوس ، مكين أمين ، استدعى اليه ابن أخته بطرس هذا ، وخلع عليه لقبه الذى عرف به فى التاريخ •• جوستنيان ، نسبة الى الخال • وكانت هذه العبارة لطمة وجهت الى الامبراطور مباشرة ، اذ يتمنى أصحابها من خلالها ، لو لم يأت جوستنيان الى الحياة على الاطلاق !!

واستمر الحوار عنيفا بين المتحدث باسم الامبراطور ، وزعيم الخضر ، ليفصح عن مدى المعاناة والضجر الذى يستشعره الخضر من سياسة الحكومة تجاههم ، وتجاهلهم لمطالبهم ، ووقوفها بصورة سافرة الى جانب أعدائهم الزرق • وقد اتضح خلال الحوار ، عندما شارك زعماء الزرق فيه ، مؤيدين المتحدث باسم الامبراطور ، منادين على خصومهم بألقاب تحمل طابع الامتهان والسخرية ، تصمهم بأنهم : « لصوص •• خونة •• يهود •• أعداء الله »[٣٦] •

لم يجد الخضر بدا وقد أحيط بهم ، الا أن يصيح زعيمهم ، ميمما وجهه شطر المقصورة الامبراطورية ، سوف نصمت أيها الامبراطور ، مادمت تريد ذلك ، لكنه صمت الكارهين لا المقتنعين ، اننا نفضل أن نكون يهودا ، على أن نكون من الزرق !! واأسفاه على عدالة أمست ميتة ، يوارى جسدها التراب » !! ثم ولى الهبدروم دبره وغادره ، وتبعه على الفور جموع الخضر ، وكان هذا التصرف فى حد ذاته ، صفة قوية وجهت للامبراطور ، حيث تقضى التقاليد بألا يغادر أحد المضمار قبل انصراف الامبراطور ، معلنا نهاية السباق فى هذا اليوم •

---

(35) THEOPH. Chron. I, p. 281.
(36) Ibid, p. 282.

تملك الغضب على جوستنيان كل سبيل ، ازاء هـذه الاهانة التى لحقت به ، وانعكس هذا فى الاجراءات الصارمة التى أقدم عليها والى المدينة يودايمون Eudaemon ، حيث ألقى القبض على سبعة من مثيرى الشغب ، وتم على الفور ودون ابطاء ، قطع رءوس أربعة منهم ، وقضى على الثلاثة الآخرين بالاعدام شنقا ، واقتيدوا الى ساحة الاعدام، وعلقوا على المشانق •• لكن يبدو أن الحبال كانت قد بليت ، فسقط اثنان منهم على الأرض أحياء ، وفشلت محاولة أخرى لتنفيذ حكم الاعدام من جديد • وكان هذا يعنى حسب التقاليد ، أن يحظى الرجلان بالعفو • ولم تفلح محاولات الوالى لاعادة تجربة الشنق من جديد ، ازاء الهياج العام من جانب الجموع التى اكتظت بها الساحة ، وازاء تدخل رهبان دير القديس كونون Conon الذين اقتحموا المكان واصطحبوا الرجلين الى كنيسة سان لورنس St. Laurentius ، فلم يسع الوالى الا أن يأمر جنوده بحصار الكنيسة(٣٧) •

ويعتقد كثير من الباحثين الذين تصدوا لمعالجة هذه الأحداث ، أن الصدفة وحدها لعبت دورا كبيرا فى أن يكون أحد الرجلين اللذين نجيا من الاعدام ، منتميا الى حزب الزرق والآخر الى حزب الخضر ، وأن والى المدينة الصارم يودايمون ، قد ألقى القبض على هؤلاء السبعة اعتباطا ، دون النظر الى هوياتهم ! وأن « الصدفة » هـذه هى التى قربت بين الفريقين ، فأشعلا تلك الثورة المدمرة فى القسطنطينية ، أو بتعبير أدق « البدايات الأولى لثورة عارمة • غير أننا لا يمكننا أن نقبل هكذا دور « الصدفة » وحدها ، وترتب عليها أحداثا جساما كتلك التى شهدتها المدينة ما بين الحادى عشر والثامن عشر من يناير عـام ٥٣٢ ، وكادت تؤدى بالنظام الحاكم كله •

فالمؤرخ القيسارى بروكوبيوس ، الذى ذكر لنا فى « تاريخـه السرى » أن الامبراطور جوستنيان ، قد أخذ جانب الزرق ، وترك لهم

---

(37) MALALAS. Chron. pp. 473-474.

الحبل على الغارب ، فعاثوا فى الامبراطورية فسادا[٣٨] « كما لو كان قد هزها الزلزال ، أو اجتاحها الطوفان » ، هو نفسه الذى يذكر ، وفى الموضع نفسه ، أن أنصار الزرق قد ميزوا أنفسهم بسحنه وأردية معينة بحيث أصبحوا يشبهون الى حد كبير ، قبائل الهون Hunni الاسيوية، التى اكتسحت الامبراطورية فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين[٣٩] . ومن ثم فلا مجال هنا « للصدفة » فى القبض على رجل من الزرق ، الى جانب من تم القبض عليهم من الخضر . وبروكوبيوس نفسه أيضـــا ، هو الذى نعرف من حديثه ، أن جوستنيان وزوجه ثيودورا ، قد اتبعـــا سياسة وسطا بين الحزبين[٤٠] ، ذلك أن الامبراطور اذا كان قد اعتمـــد فى بداية عهده على مناصرة الزرق ، ليضمن تأييدهم،فان سياسته قد سادت من بعد ، كما تدلنا الأحداث ، على اقرار التوازن بين الزرق والخضر ، امتدادا للسياسة التى اتبعهـــا من قبل خاله جوســـتين[٤١] . كما أن التشريعات التى أصدرها الامبراطور خلال السنوات الخمس الأولى من عهده ، تعطينا فكرة واضحة عن السياسة التى سوف يتبعها جوستنيان ، فى ادارة شئون الامبراطورية ، والتى تهدف فى جوهرها ، الى فرض قبضته القوية على الدوله . ولذا .. فان ما فعله يودايمون لم يكن وليد « الصدفة » ، بل كان تنفيذا لرغبات الامبراطور ، وتمشيا مع السياسة العامة التى وضعها جوستنيان ، والا فبم نفسر انزال العقاب الصـــارم بالفريقين معا ؟! ورفض الامبراطور ملتمس الزرق والخضر بالافراج عن الرجلين والعفو عنهما ؟! وقبل هذا وذاك .. كيف يمكن تفسير اتحاد الحزبين معا فى اليوم التالى مباشرة لهذه الواقعة ، واستمرار الوفاق

---

(٣٨) لقى كاللينيكوس Callinicus حاكم كيليكيا حتفه ، لاقدامه على اعدام اثنين من القتلة ومثيرى الشغب فى اقليمه ، ينتميان الى حزب الزرق . انظـــر :

PROCOP. hist. arc. XVII; EVAG. hist. eccl. IV 32.

(39) PROCOP hist arc. VII 8-14.

(40) Ibid. X, 16-18.

(41) THEOPH. Chron. pp. 256-257.

بينهما حتى اليوم الأخير للثورة ؟! الى الحد الذى دفع المؤرخ بيورى[٤٢] Bury ، الى القول باحتمال وجود تنسيق مسبق بين زعماء الفريقين •

انقضى يوم الاثنين ، الثانى عشر من يناير ، فى هدوء مشوب بالقلق كذلك الذى يسبق العاصفة ، ثم أعلن عن استئناف السباق فى اليوم التالى ، فى محاولة من جانب الامبراطور ، لتهدئة الأمور ، وحتى تبدو وقائع اليوم الأول ، الأحد ، أمرا عاديا ، كثيرا ما يحدث ، واتخذت الحكومة ، ممثلة من والى المدينة يودايمون ، الاجراءات الكفيلة بالتصدى لمثل هذا الشغب • ولم يكن الامبراطور يدرى أن الأمور سوف تسير على هذا النحو فالجنود يحاصرون كنيسة القديس لورانس ، وأنصار الفريقين فى المضمار يلحون على الامبراطور فى مقصورته ، أن يأمر باخلاء سبيل الرجلين ، وجوستنيان يصم أذنيه عن هذه الصيحات •• ويتساءل « باكر » Baker وفى تساؤله جانب كبير من الصحة •• هل كان من السهل على الامبراطور أن يفعل شيئا فى أمر رجلين نظر القضاء فى حالهما ؟ وهو يعلم أن استجابته لمطالب المجموع تعد اعتداء على العدالة وتدخلا فيها لغير سبب مقبول[٤٣] • ولم يكن جوستنيان راغبا فى ذلك ، بل هىء له أن الأمر قد أصبح بيديه ، بعد القبض على رءوس الفتنة ، وأنه بهذا الاجراء يؤدب الحزبين معا •

ومع اقتراب أشواط السباق من نهايتها ، صمت الناس عن توجيه أى شكايات للامبراطور بشأن الرجلين ، بعد أن يئسوا من رحمته ، ولم يعد يسمع الهتاف التقليدى بحياة الامبراطور ، بل ارتفع صوت الجموع يهتف بحياة « الزرق والخضر والرحماء »[٤٤] ، ليعلن بذلك عن مولد الاتحاد بين الحزبين Prasinovenetai وانفجار الثورة الشعبية فى

(42) Later Roman Empire, II, p. 40.

(43) Baker, Justinian, p. 84.

(44) MALALAS, Chron. p. 474.

القسطنطينية ، حيث اندفع أنصار الفريقين الى المقر الرسمى لوالى المدينة ، وطالبوا من جديد باطلاق سراح الرجلين ، فلما لم يجدوا سميعا لهم ولا مجيبا ، هاجموا المبنى وأخلوا سبيل من به من المسجونين ، وأشعلوا فيه النيران ليلقى الموظفون بداخله مصرعهم ، ولتمتد النيران الى المبانى الحكومية المجاورة[٤٥] ، ولتلتهم فى طريق سعيرها ، المدخل الرئيسى للقصر الامبراطورى ، وحماما تزيوكسيبوس Zeuxippus ومبنى مجلس السناتو وكنيسة أيا صوفيا[٤٦] . واتفق الثائرون على اتخاذ كلمة Nika « النصر » شعارا لهم ، يتعارفن به فيما بينهم[٤٧] .

ومن الطريف أن الامبراطور أمر باستئناف السباق فى اليوم التالى ، الاربعاء الرابع عشر من يناير ! ، كأن شيئا لم يكن ، رغم أنه لم يكن بغافل عن خطورة الموقف فى العاصمة ، التى أكلت النيران أهم وأفخم مبانيها . ولعل جوستنيان كان يريد أن يظل حتى آخر لحظة متمالكا لنفسه ، باديا أمام الجميع وكأن الأمور مازالت ملك يمينه . وكان من الممكن أن ينجح جوستنيان فى تأكيد تصوره هذا ، لو أن مجريات الأحداث جاءت كما اعتادتها القسطنطينية من قبل مرارا ، وما شهدته من بعد على امتداد تاريخها . لكن الأمور أفلتت الآن من أيدى زعماء الحزبين الزرق والخضر ، ولم تعد الأحداث مجرد شغب فى المضمار تعداه الى الشوارع . بل أصبحت تمثل ثورة حقيقية ، تمثلت فى مطالب الثائرين الذين تقدموا للامبراطور يطلبون اليه عزل والى المدينة يواديمون ، والنائب الامبراطور والمستشار المالى يوحنا الكبادوكى ، والمحامى والفقيه تريبونيان .

وقد يكون من المنطقى مع الأحداث ، المطالبة بعزل يوديمون الوالى الصارم ، باعتباره السبب الرئيسى فى اثارة هياج الزرق وانضمامهم الى

---

(45) PROCOP. bel. Pers. XXIV.

(46) Id.
وايضا : ZONAO. epit. XIV, 6.

(47) Id.

أعدائهم الخضر ، وجريا على سياسة الزرق فى التخلص ممن يقفون حجر عثرة فى سبيل اطلاق أيديهم فى العبث بالأمن العام ، كما جرى مع كاالينيكوس Callinicus حاكم كيليكيا(٤٨) . أما أن يضاف اليه يوحنا الكبادوكى وتربونيان ، فهذا هو الذى يضع أمام الأذهان علامة استفهام كبيرة ، سوف نعود الى بحثها ، بعد أن نعيش مع الثورة وقائعها .

تيقن لدى جوستنيان خطورة الموقف الآن تماما ، وتردى الأحوال فى العاصمة ، وعجز جهازه الادارى عن مواجهة هذه الاضطرابات التى راحت تزدد تفاقما ، وأمل فى أن تجد استجابته لمطالب الثائرين ، منفذا للخروج من هذه الأزمة ، ولو الى حين ، خاصة بعد أن جاءته التقارير التى كان حريصا على الاطلاع عليها بنفسه ، تفيد بأن المعتدلين الذين أبدوا تحفظهم ازاء هذه الأحداث حتى الآن ، قد أظهروا عداءهم علانية تجاه الحكومة ، بينما آثر آخرون ممن كان يؤمل وقوفهم الى جانبه ، الهروب بأنفسهم عبر البسفور الى الشاطىء الآسيوى المقابل ، ووجهت الدعوة من جانب زعماء العامة لعقد اجتماع فى ساحة قسطنطين ، أيدهم فى تلك الدعوة عدد من الشخصيات البارزة من النبلاء ورجال السناتو ، حيث جرت مناقشة وتقييم للموقف ، وتمت الموافقة فى هذا الاجتماع على خلع الطاعة للحكومة ، بل تطور الأمر الى الاقتراح بعزل جوستنيان واعلان بروبوس Probus أحد أبناء أخى أنسطاسيوس ، امبراطورا(٤٩) وقد وضع هذا الاقتراح على الفور موضع التنفيذ ، فاتجهت الجموع الى دار بروبوس لرفعه مكانا عليا ، غير ان الرجل آثر السلامة ، وفضل المهرب على المنصب فجزاه العامة على ذلك بأن قدموا داره للنيران قربانا !

لم يتردد جوستنيان لحظة فى الاقدام على عزل الرجال الثلاثة ، كى يهدىء من ثائرة الثائرين ، غير أن ذلك كله لم يجد نفعا ، ورغم أنه

---

(٤٨) راجع حاشية رقم ٣٨ .

(49) CHRON. PASCH. an. 532.

عين البطريق غوقاس Phocas نائبا امبراطوريا بدلا من يوحنـــا الكبادوكى ، وباسيليدس Basilides فى منصب الكويستور ، ورغم أن الرجلين مشهود لهما بالكفاءة والاقتدار والنزاهة ، الا أن هذا التعيين لم يغن — حسب تعبير بروكوبيوس — عن الامبراطور شيئا[٥٠] ، اذ يبدو أن الامبراطور لم يفطن الى محاولة الثائرن اعلان بروبوس امبراطورا ، وأن التنازلات التى قدمها ، لابد أن تأتى بمزيد من التنازلات . لكن الذى لا شك فيه أن التحدى أصبح سافرا بين الحكومة والثائرين ، وراحت تتكشف رويدا رويدا نيات زعماء النائرين الآن ، والذين لم يعودوا هم زعماء حزبى الزرق والخضر ، بل غدوا من « الشخصات البارزة من النبلاء ورجال السناتو » ، وآمن جوستنيان مؤخرا أن سبل الاسلام لم تعد تفلح مـع أناس يطلبونه شخصيا ، ووضع الرجل — كما يقول باكر[٥١] مشروعاته وطموحه فى كفة ، والثائرين فى كفة أخرى .. وراح يتساءل ان كانت هذه الآمال تستحق أن يحارب من أجلها ؟ هل تستحق أن يدافع عنهـا بالعنف والدماء ؟ هل كانت أهدافه خيرة الى الحد الذى يمكن أن يسحق فى سبيلها العديد من الرجال ؟

مما لا ريب فيه أن جوستنيان كان يعتقد اعتقادا جازما فى خيرية مشروعاته الطموحة ، لصالح دولته ، لذا صمم على اخماد الثورة بالقوة ، فأصدر أوامره الى قائده بليزاريوس Blisarius بالقضـــاء على الثائرين وأشرك معه أيضا القائد موندوس Mundus بقوات من القوط والهيرولين ، وشهدت العاصمة خلال الأيام الثلاثة التالية ، الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر من يناير ، حربا أهلية طاحنة ، بين قـــوات بازاريوس وموندوس من ناحية ، والثائرين من ناحية أخرى ، وازدادت الحرائق فى المدينة ، فأتت على كنيسة القديسة ايرين ومستشفى سامبسون ، وفشـــلت المحاولات التى بذلها رجال الأكليروس للحيلولة

(50) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV.

(51) Baker, Justinian, p. 49.

دون اتســـاع نطاق هذه الحرب . وأيقن بليزاريوس أنه لن يســـتطيع الوصول الى نتيجة حاسمة فى هذا الصراع ، بعد أن أدرك أنه لا يحارب أنصـــار الزرق والخضر فقط ، بل قوى عديدة مسلحة لم يكن يتوقع مواجهتها . ومن ثم آثر الانسحاب من شوارع القسطنطينية ، والعودة ثانية للاحتمـاء بالقصر الامبراطورى ، فأمســت المدينة فى قبضـــة الثائرين[٥٢] .

وأمام هذه الفوضى ، راح جوستنيان يراجع حساباته من جديد وخاصة بعد أن خذله الحرس الامبراطورى Excubitors وآثر أن يظل على الحياد[٥٣] ، وانتابت الامبراطور حالة من الشك فيمن حوله ، وقر لديه أن هناك مؤامرة تحاك خيوطها على نطاق واسع من جانب قـــوى متعددة تضمر له السوء[٥٤] ، ولمـــا كان القصر الامبراطورى يحوى ضمن من لجأوا اليه هروبا من الفوضى ، عددا ليس بالقليل من أعضاء مجلس السناتو ، بالاضافة الى هيباتيوس Hypatius وبومبى Pompeius ولدى أخ الامبراطر الأسبق أنسطاسيوس ، فقد خشى جوستنيان أن يكون هناك اتفاق سرى بين هؤلاء جميعا ، وزعماء الثائرين فى العاصمة ، ولم لا ، وقد أقدم الثائرون منـــذ ثلاثة أيام فقط على محاولة اعـــلان بروبوس امبراطورا بديلا ؟ ! ولذا فانه فى مساء يوم السبت ، السابع عشر من يناير ، استدعى اليه الأميرين ورجال السناتو المحتمين به ، وطلب اليهم مغادرة القصر الامبراطورى على وجه السرعة[٥٥] . وذهبت سدى توسلات هباتيوس وبومبى بالابقاء عليهما الى جوار الامبراطور ، حتى

---

(52) PROCOP. bel. Pers. I; XXIV; MALALAS, Chron. p. 475.

وأيضـــا :

ZONAR. epit. XIV, 6; CHRON. PASCH. an. 532.

(53) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 45.

(54) MARC. COMES, an. 532.

(55) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 19.

لاينتهز الثائرون هذه الفرصة ، وأوضحا للامبراطور خشيتهما من أن يكرههما العامة على اعتلاء أحدهما العرش ، لكن هذه التوسلات ما زادت الامبراطور الا شكوكا وايمانا بأنهما ضالعين فيما يجرى خارج القصر ، ومن ثم أصر على موقفه ، فامتثل الرجلان لأوامر الامبراطور(٥٦) •

بهذه الخطوة ألقى الامبراطور جوستنيان فى أيدى أعدائه ، بورقة رابحة ، كان من الممكن أن تحقق لهم كسبا عظيما ، لو سارت الأمور كما خططوا لها ، فقد حدث ما تنبأ به الأميران • أما ما كان من أمر جوستنيان ، فقد ظهر فى الهبدروم مع مطلع صبيحة يوم الأحد الثامن عشر من يناير، ليقدم للثائرين آخر محاولة فى جعبته لاسترضائهم ، فأعلن مسئوليته الكاملة عن كل ماحدث ، وأن عليه وحده تقع هـــذه الفوضى التى حلت بالعاصمة ، نتيجة لعدم استجابته فى البداية بالعفو عن الرجلين اللذين نجيا من المشنقة ، ثم أذاع فى الحضور أنه قد قرر عفوا عاما يشـــمل جميع من شاركوا فى هذه الاضطرابات(٥٧) •

ويبدو أن جوستنيان كان يضع نصب عينيه ، ما حدث قبـــل ذلك فى نفس المكان ، بسنوات قليلة ، بين الامبراطور أنسطاسيوس وشعبه ، عندما وقف هذا الأخير فى المقصورة ، وخلع عباءته الأرجوانية ، بعد أن ثار الناس ضد سياسته الاقتصادية ، وأعلن فى حركة مسرحية أنه على استعداد للتنحى عن العرش اذا ما طلب اليه الجموع ذلك ، فما كان من هؤلاء الجموع الا أن هتفوا بحياة أنسطاسيوس(٥٨) غير أن ما حدث فى عام ٥١١ ضد أنسطاسيوس ، كان يختلف جذريا — كما سنرى — عما يجرى سنة ٥٣٢ زمن جوستنيان • ومن ثم لم يهتف الناس فى الهبدروم بحياة جوستنيان كما فعلوا مع سلفه الأسبق ، بل راحوا يقذفونه بالحجارة ويسبونه بأقذع الألفاظ « كذاب •• خائن •• حمار »!! فلم يجد أمامه الا أن ينسحب عائدا الى قصره !(٥٩) •

---

(56) Ibid. 20-21.
(57) CHRON. PASCH. an. 532.
(58) MALALAS, Chron. p. 408.
(59) CHRON. PASCH. au. 532.

وفى الوقت نفسه ، تناقل الثائرون خبر طرد هيباتيوس وبومبى من القصر الامبراطورى ، وعقد زعماء الثائرين من السناتو اجتماعا قرروا فيه مهاجمة الامبراطور فى قصره ، ولم يقيموا وزنا لنصائح أحد أقطابهم، أوريجن Origenes الذى دعاهم الى التريث فى الأمر ، وأن المسألة تحتاج الى شىء من التعقل والحكمة،وفى الوقت نفسه الصبر،حتى يسقط القصر الامبراطورى ى أيديهم طواعية ودون عناء ، لأنه « اذا ما واجهنا العدو بصورة سارة ، أصبحت قضيتنا مغلقة ، متأرجحة ، وسوف نكون بذلك قد أقدمنا على مخاطرة غير محسوبة ، سوف يتقرر بمقتضاها كل شىء فى وقت قصير ، وعلينا عندئذ أن نخر راكعين أمام آلهة الحظ ، أو أن نلقى عليها اللوم ،فالأمور التى يصدر بشأنها قرارات سريعة غير مدروسة ، يكون مالها — كما هى القاعدة — الخضوع لضربات الحظ !»(٦٠) لكن أحدا من أعضاء السناتو المتحمسين للحصول على نتيجة سريعة لعملهم طوال هذه الأيام الماضية ، لم يضع لمشورة أوريجن • ويبدو أن أعضاء السناتو الذين أخرجوا من القصر الامبراطورى فى الليلة السابقة ، قد نقلوا الى زملائهم الحالة المتردية التى وصلت اليها الأمور داخل جدران القصر ، وحالة الهلع التى انتابت الجميع وعلى رأسهم الامبراطور ، خاصة بعد فشل بليزاريوس فى اخماد الثورة ، ورفض الحرس الامبراطورى المشاركة فى هذا الأمر •

وعلى الفور اتجه الزحوف وزعماؤهم الى دار هيباتيوس ، واقتادوه الى ساحة قسطنطين ، ومنها الى الهيدروم ، حيث نادوا به امبراطورا ، وأجلسوه فى المقصورة • وعبرت زوجه عن هذه اللحظة برؤية قاتمة عبوس ، ترجمتها فى كلمات نافذة قائلة : « انهم يسوقونه الى الموت لا الى العرش !! » وذهبت صرخاتها بالابقاء عليه فى داره بعيدا عن هذه الأحداث •• عبثا(٦١) •

---

(٦٠) راجع نص خطاب أوريجن فى
PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 26-30.
وأيضا : Ibid. 22-24

(61) ZONAR. epit. XIV, 6

لم يكن هيباتيوس من ذلك النوع من الرجال ، الذى يمكن أن يغدو بطلا ، أو أن يركب هذه الموجة العالية • ومهما يكن شـــعور من بداخل القصر ، فان هيباتيوس كان يسيطر عليه دائما شعور الاخفاق واليأس • لقد كان من أولئك النوع من الرجال الذين يعتقدون أن فرصتهم الوحيدة فى النجاح ،تتلخص فى عدم الافصاح عن موقفه ، حتى ولو كان النصر فى جانبه(٦٢) • لقد عاش منذ وفاة عمه أنسطاسوس ، فى كنف جوستين وجوستنيان ، راضيا قانعا بما قسمت له به عجلة المسرح السياسى فى العاصمة ، وظل حتى اللحظة الأخيرة محتميا بالامبراطور داخل قصره ولم يخرج منه الا مطرودا عندما توجس جوستنيان فى نفسه منه خيفة • ولذا كان أول ما أقدم عليه هيباتيوس وهو يحتل المقصورة الامبراطورية، أن كتب رسالة الى جوستنيان ، يوضح له فيها موقفه ، وطلب اليه سرعة مهاجمة الهبدروم ، ليأخذ الثائرين على غرة ، وهم فى نشوة النصـــر بتتويج الامبراطور الجديد(٦٣) •

غير أن هذه الرسالة لم يقدر لها أن تصل الى جوستنيان أبدا ، ذلك أن افرايم Ephraim أحد المقربين الى هيباتيوس ، والذى حمل الرسالة ليسلمها الى جوستنيان ، التقى فى طريقه عبر الدهليز الذى يصل بين القصر الامبراطورى والمقصورة ، بتوماس Thomas الطبيب الخاص بجوستنيان ، فأخبره هذا أن الامبراطور وحاشيته قد أطلقوا سيقانهم للريح مولين الأدبار(٦٤) ، فعاد افرايم مسرعا الى سيده يحمل اليه هذه الأنباء ، التى لابد سوف تثلج صدره وتعطيه الآمان ، باعتباره قد غدا امبراطورا حقا • ولم يكلف افرايم نفسه عناء التيقن من صحة هـــذا الخبـــر •

ويبدو أن توماس ، قد حضر الجانب الأول من الاجتمـــاع الذى دعا اليه جوستنيان لبحث الأمر ، بعد الاهانة التى لحقت به فى الهبدروم

(62) Baker, Justinian, p. 24.
(63) CHRON. PASCH. an. 532.

صبيحة هذا اليوم ، وبعد ما صك مسامعه من تتويج هيباتيوس امبراطورا ، وقد أيد الحاضرون جميعا وفى مقدمتهم يوحنا الكبادوكى ، فكرة الهروب الى الشاطىء الاسيوى للبسفور ، ليكونوا فى مأمن من الهجوم المتوقع على القصر ، ولم يبد العسكريون وعلى رأسهم بليزاريوس اعتراضا على هذا الرأى ، بعد أن ثبت فشل المواجهة العسكرية ، ولأن المشكلة الرئيسية كانت تتلخص فى عدم وجود قوات كافية للتصدى للثوار ، حيث أن الجيش كان يرابط على الجبهة الفارسية • ولا شك أن توماس قد انسحب من الاجتماع عند هذا الحد ، ونقل الى افرايم هذه الصورة ، قبل أن تخف ثيودورا الى مكان المجلس ، لتدلى برأيها ، ولتقلب هذه الفكرة رأسا على عقب •

تفرست ثيودورا وجوه الحاضرين ، وقد تلبدت سماء الأمل بغيوم القنوط ، وراحت بكل الحزم تقول : « فى مثل هذه الأزمة والتى نواجهها •• ليس لدينا الوقت لمناقشة ما اذا كان مكان المرأة الالتزام بالقاعدة القديمة التى تقضى بالصمت اذا ما تحدث الرجال •• أم لا •• وهل من الواجب أن تظل مطاطئة الرأس ، خانعة خجول فى حضور السادة •• أم لا ؟! علينا اذن أن نعمل بسرعة • وانى لأرى أن هذا الوقت بالذات ليس مناسبا للفرار ، حتى لو كان فى ذلك الأمان كه •• فليس هناك شىء مضمون • وكلنا يعلم أن كل مولود ، لابد له من يوم يودع فيه دنياه ، لكن ليس من اللائق على من غدا امبراطورا ، أن يمسى هاربا • اننى لن أتخلى أبدا عن هذه العباءه الأرجوانية ، ولن أعيش ذلك اليوم الذى يخاطبنى فيه من يلقنى بغير لقب الامبراطورة •• والآن •• أى مليكى •• اذا شئت أن تنجو بنفسك ، فليس ذلك صعبا ، ولا شىء يمنعك • فالمال وفير ، والبحر طيع وسيع ، والسفين على الشطآن كثير • أما أنا •• فانى أوثر أن أستمسك بالقول القديم : الأرجوان خير الأكفان »(٦٥) •

---

(64) Id.

(65) POOCOP. bel. Pers., I, XXIV, 32-37.

كان لهذه الكلمات فعل السحر فى نفوس الحاضرين جميعا وفى مقدمتهم جوستنيان ، الذى كان قد أسند ظهره بعد تجربة الصباح فى الهبدروم الى جدار اليأس ، واستدعى اليه بمشورة زوجـه ، الخصى نارسس Narses ودفع اليه مبلغا من المال ، وأسر اليه آمرا أن يقصد زعماء الزرق، مذكرا اياهم بما كان من موقف جوستنيان معهم منذ بداية عهده ، وأن يقدم اليهم هذه الأموال « رشوة » دليلاً على حسن نيـات الامبراطور تجاههم ، لقاء التخلى عن مناصرة الخضر ، وفض هـــذا التحالف • ولقيت هذه المناورة استجابة من الزرق ، الذين انسحبوا من الهبدروم تاركين الخضر يواجهون المصير المحتوم وحدهم(٦٦) •

وصدرت الأوامر الى كل من بليزاريوس وموندوس ، بمهاجمـة الثائرين فى الهبدروم ، وسط نشوتهم بفرحة الانتصار ، باعلان هيباتيوس امبراطورا ، وقد حاول بليزاريوس الوصول مباشرة الى المقصــورة الامبراطورية للقبض على هيباتيس ، فيوقع الذعر فى نفوس الثائرين ، غير أن محاولته باءت بالفشل ، ازاء موقف الحرس الامبراطورى المكلف بحراسة بوابات الدهليز الموصل بين القصل والمقصورة ، الذى رفض أن يسمح لبليزاريوس بالمرور(٦٧) • ومن ثم اضطر القائد أن يخرج من القصر بقواته لمهاجمة الهبدروم من الخارج • وقد نجحت قــوات بليزاريوس وموندوس من القوط والهيروليين فى اقتحام الهبدروم ، بحيث أحيـط بالثائرين فى داخله ، وجرت مذبحة مروعة ، أفاض المعاصرون فى وصف أحداثها ، وذهب ضحيتها على أقل التقديرات ، ثلاثون ألف رجل(٦٨) • وتم

---

(66) MALALAS. Chron. p. 476.

(67) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 44-45.

(٦٨) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 54 وقد اختلفت تقديرات المؤرخين حول أعداد القتلى الذين راحوا ضحية هذه المذبحة ، فيقدرهم زكريا المتلينى بثمانين الف رجل ، وهو عدد مبالغ فيه جدا ، بينما زوناراس يراهم فيتحفظ فى القول عندما يذكر أنهم « تقريبا » خمسة وثلاثين ألفـا • ومن ثم اعتمدنا على رأى بروكوبيوس ، أقربهم جميعا للاحداث ، وسكرتير بليزاريوس القائد الذى نجح فى سحق الثورة • راجع KACH. Chron. IX, 14 وأيضا :
ZONAR. epit. XIV, 6; MALALAS, Chron. p. 477; IOAN. LYD. de magist. III 26.

القاء القبض على كل من هيباتيوس وبومبى ، حيث سيقا الى الامبراطور فى اليوم التالى لهذا اليوم الحزين • ويبدو أن الامبراطور ، كما يظهر من حديث زكريا المتلينى ، كان يميل الى العفو عن الأخوين ، بعد أن تفهم حقيقة موقفهما[٦٩] ، خاصة وأن بومبى لم يشارك فى هذه الأحداث على الاطلاق ، ولم يكن له أى دور فيها ، بينما راح هيباتيوس يوضح لجوستنيان أن ارادته قد سلبت تماما ، أمام هياج الجموع الصاخبة التى رفعته الى العرش دون رغبة منه ، وأنه جىء به الى الهبدروم قسرا ، ودلل على ذلك بأمر الرسالة التى بعث بها اليه وهو فى المقصورة الامبراطورية[٧٠] ، وهى التى لم تصل الامبراطور كما علمنا • غير أن ثيودورا التى احتلت الآن مكانة مرموقة بعد وقفتها الشهيرة وكلماتها النافذة ، وبعد أن اتضح للجميع قوة عزيمتها وسداد الرأى لديها ، أقنعت زوجها بأن من الحكمة الخلاص من الرجلين ، حتى لا يكونا دافعا لفتنة جديدة قد تظل برأسها • ومن ثم اقتيد الرجلان الى شاطىء البسفور حيث احتزت رأساهما وألقى بجثتيهما فى البحر[٧١] •

أما ما كان من أمر أعضاء مجلس السناتو الذين شاركوا فى هذه الثورة ، فقد ألقى القبض على ثمانية عشر عضوا منهم ، وصودرت ممتلكاتهم ، وان كانت هذه المصادرة لم تستمر طويلا ، بل تم اعلان العفو عنهم فيما بعد ، وأعيدت اليهم الممتلكات التى تمت مصادرتها[٧٢] بعد أن قلمت أظافرهم ولم يعد يخشى بأسهم •

هكذا قضى على أخطر ثورة شهدتها القسطنطينية طوال تاريخها ، بجرأة ثيودورا ، على حد تعبير بيورى[٧٣] Bury وولاء بليزاريوس

(69) KACH. Chron. IX, 14.
(70) PROCOP. bel. Pres. XXIV, 55-56.
(71) PROCOP. bel. Pres. XXIV, 57 ZACH, Chron. IX, 14.
(72) CHRON. PASCH. an. 532.
وأيضا : POOCOP. bel. Pers. I, XXIV, 27.
(73) Bury, Later Roman Empire, II, p. 48.

وشجاعته ، ومكن جوستنيان لنفسه فى الأرض ، ليحكم بعد ذلك حكما مطلقا طيلة ثلاثة وثلاثين عاما آتية ، أقدم فيها على تنفيذ مشروعاته وآماله العريضة ، دون أن يلقى من بعد معارضة • على أن هذه الثورة تمثل نقطة تحول بارزة فى مختلف نواحى الحياة فى الامبراطورية البيزنطيـــة ، ولنحاول الآن بهدوء ، بعد أن عايشنا حوادث العنف وتطوراتها ، أن نحلل وقائعها ، لندلل على صدق ما تذهب اليه ، من اعتبارها حجر الزاوية فى تثبيت دعائم نظام سياسى بعينه فى الامبراطورية ، وما ترتب على ذلك من تغيرات واسعة شملت جوانب الحياة العامة •

فعندما وضع بروكوبيوس كتابه الأول « عن الحرب الفارســية » De Bello Persico وصف هذه الثورة بأنها « عصيان مسلح وغير متوقع بين العامة فى القسطنطينية ، وان كانت قد أثبتت أنها فى غاية الخطورة ، كما أنها انتهت بأضرار بالغة للعامة والسناتو »[٧٤] ، وان كان يعزوا بداياتها الأولى التى وقعت فى الهبدروم ، الى « الروح المريضة » لدى أنصار فريقى الزرق والخضر[٧٥] • فلما دون بعد ذلك « مذكرات لم تنشر » أو ما اصـــطلح على تســــــميته بـــ (بالتـــــاريخ السرى) Historia Arcana ألقى بتبعة الأحداث كلها فوق رأس الامبراطور جوستنيان ، فكتب يقول : « عندما يكون الناس على ثقة بالمستقبل ، فانهم يصبحون على استعداد لتحمل آلام الحاضر ، أما اذا ما وقعوا تحت طائلة العسف والجور على يد رجال الحــكومة ، فانهم يصبحون أكثـــر احساسا بالكرب والضيق مما يعانون ، ويسقطون فريسة اليأس القاتل الذى ينبىء أنه لا أمل مطلقا فى العدالة • ولقد خدع جوستنيان رعاياه وضللهم ، ليس فقط برفضه الدائم مساعدة ضحايا هذه الأخطاء ، بل لأنه كان على استعداد تام كى يضع نفسه حاميا لهذا الفريق أو ذاك من أنصاره ، ولأنه أنفق أموالا طائلة على هؤلاء المتهورين الطائشـــين

---

(74) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 1.

(75) Ibid., 6.

واحتفظ بعدد من هؤلاء بطانة له وحاشية ، ورفع بعضهم الى أعلى المناصب »[٧٦] .

وبروكوبيوس يشير من طرف خفى ، الى ما أفصح عنه صراحة فى نفس الموضع من كتابه الأخير ، من تأييد جوستنيان لحزب الزرق ، و« عربدة » هؤلاء فى القسطنطينية والأقاليم الشرقية من الامبراطورية ، استنادا الى تأييد الامبراطور لهم ، حتى « خرت الدولة على ركبتيها جاثية » بسوء فعالهم . ومع صدق ما يذهب اليه بروكوبيوس الى حد كبير، فلا ننسى أن الرجل كان قيساريا ، وأن هواه لابد أن يكون مع الاقاليم الشرقية ، التى أمست تحت سيادة جوستنيان ، تأتى فى المرتبة الثانية بعد ولايات الغرب الرومانى ، التى جعل الامبراطور من استردادها مبلغ همه ، على عكس ما كان قد غدا عليه النصف الشرقى للأمبراطورية منذ عهد دقلديانوس فى أخريات القرن الثالث الميلادى وأوائل الرابع[٧٧] .

ويشير بروكوبيوس أيضا ، وان كان بوضوح كامل الى من رفعهم جوستنيان الى « أعلى المناصب » ، قاصدا بذلك يوحنا الكبادوكى ، النائب الامبراطورى والمستشار المالى لجوستنيان ، اذ يعتبره بروكوبيوس

(76) PROCOP. hist. arc. VII.

(٧٧) كانت هذه الصورة واضحة جدا فى أذهان كتاب القرن الرابع ، أعنى احتلال النصف الشرقى المرتبة الأولى ، فعندما وضع دقلديانوس نظام الحكومة الرباعية Tetrachia ليكون بديلا عن الفوضى السياسية والعسكرية التى أهلكت الامبراطورية ، فيما عرف بأزمة القرن الثالث ، احتفظ لنفسه بالمكانة الأولى باعتباره أوغسطس الشرق والامبراطور الأول ، ويأتى فى المرتبة الثانية أوغسطس الغرب ، ويحتل المرتبة الثالثة قيصر الشرق ، بينما المرتبة الرابعة من نصيب قيصر الغرب ، ولعل أروع وأصدق تعبير عن فهم المعاصرين وادراكهم لهذه الحال ، ما كتبه البلاغى الافريقى الشهير لاكتانتيوس ، يصف به الأوضاع ، عندما قبل قسطنطين التخلى عن منصب أوغسطس الغرب الذى رفعه الجنود اليه بعد موت أبيه ، قبل منصب قيصر الغرب ، بناء على أوامر جالبريوس أوغسطس الشرق ، قال لاكتانتيوس : « لقد هبط قسطنطين بذلك من الدرجة الثانية الى الدرجة الرابعة » . انظر : LACT. mort. pers. 25 وللوقوف على تفاصيل هذه الأحداث ، راجع للباحث ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الثانى .

آفة زمانه وكارثة عصره ، « بعيدا كل البعد عن الثقافة ، لم يفقه شيئا مطلقا مما تعلمه فى مراحل تعليمه الأولى ، لكنه على الرغم من ذلك أصبح الرجل الذى نعرفه • لقد كان عظيم الاقتدار فى أن يقـــرر ما يريد وأن يجد المخرج والحل لكل صعب • اســـتخدم مهاراته لتحقيـــق كل أغراضه •• لم يكن يقيم اعتبارا لله ، ولا لأى انسان مهما كانت منزلته ، بل كثيرا ما كان على استعداد أن يحطم العديد من الرجال من أجل كسب يحققه ، ومن ثم فانه خلال فترة وجيزة جدا ، تمكن من أن يجمع حصيلة ضخمة من الأموال • لقد كان خراب كل المدن محور اهتمامه »[٧٨] •

ويتفق المؤرخون جميعا فى خلع مثل هـــذه الصفات على يوحنـــا الكبادوكى ، فهذا يوحنا الليدى Ioannes Lydus يذكر أنه استطاع أن يكسب جانب الامبراطور عندما وضع أمامه عددا من المشروعات ، تهدف كلها الى زيادة حصيلة الضرائب ، بحيث تتناسب مع الانفـــاق الضخم[٧٩] • أما زكريا المتلينى فيصفه فى عبارات تكاد تتفق تمـــاما مع ما يورده بروكوبيوس ويوحنا الليدى ، ويقول : « انه درج على تلفيق الاتهامات الى الناس باستخدام أساليب الخداع والمكر والدهاء ، فى القسطنطينية وغيرها من المدن ، وجمع أموالا ضخمة للخزانة الامبراطورية من كل الطبقات دون تمييز ، علية القوم والحرفيين على الســـــواء • لقد كان مسموع الكلمة فى القصر ، مخيفا لأى انسان ، ولم لا وقد كان من أشـــد المقربين والثقاة الى الامبراطور »[٨٠] • ويعبر أحـــد المؤرخين

---

(٧٨) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 12-13 ويضيف : « لقد اندفع بكل قوة فى حياة دنسة دنيئة لوغد مخمور ، فعلى امتداد كل يوم حتى موعد الغذاء ، تصبح مهمته سلب أموال وثروات الرعية ، بينما يشغل بقية يومه فى الشراب والدعارة • ولم يكن قادرا بالمرة على كبح جماح نفسه ، فهو يأكل حتى يتقيأ ، وهو على استعداد دائما لسلب الأموال ، وأكثر استعدادا للحصول عليها واتفاقها » !

Ibid. 14-15.

(79) IOAN. LYD. de magist. III 27-58.

(80) ZACH. Chron. Ix, 14.

الحديثين[81] عن شخصية يوحنا الكبادوكى ، بعبارة بليغة يوجز فيها كل ما قاله السابقون ، بقوله : « لقد كان همه أن يملأ بالأموال حفرة لا قاع لها !! » .

ومما لا ريب فيه أن هذه الاتهامات الموجهة الى النائب الامبراطورى، وباعتباره « أشد المقربين والثقاة الى الامبراطور » ، تنسحب تلقائيا على شخص جوستنيان هو الآخر ، الذى كان حسب تعبير بروكوبيوس « ينتهز أية فرصة ليغتصب ما بيد رعاياه من الأموال ، بل كان على استعداد لأن يبيع القانون لقاء مبلغ من الذهب ! »[82] . على حين يصفه افاجريوس Evagrius بأنه كان فى حبه للمال نهما لا يشبع ، يشتهى كل ما تملكه رعيته الى الحد الذى باعهم فيه جملة واحدة لموظفيه وجباة الضرائب فى دولته[83] .

والحقيقة أن جوستنيان وجد فى يوحنا الكبادوكى ضالته التى ينشدها ، فالامبراطور يضع نصب عينيه تحقيق عدد من المشروعات الضخمة ، أتى فى مقدمتها استرداد ولايات الغرب الامبراطورى التى ضاعت من جراء الغزو الجرمانى ، وأمست ممالك جرمانية . وكان جوستنيان امبراطورا رومانى القلب والقالب ، يؤمن ايمانا كاملا بالامبراطورية الرومانية الواحدة ، العالمية ، ويوقن تماما أن روما البسفور لا تغنى مطلقا عن روما التيبر ، وأفصح عن ذلك فى تشريعاته عندما راح يبدى حسرته الشديدة على تقلص مساحة الامبراطورية ، نتيجة السياسة الضعيفة التى انتهجها الأباطرة الأسلاف[84] . وأعلن صراحة عن عزمه على استعادة ولايات الغرب الرومانى الضائعة ، بقوله : « لدينا

(81) Baker, Justinian, p. 79.

(82) PROCOP. hist. arc. XIV.

(83) EVAG. hist. eccl. IV, 30.

(84) IUS. Nov. XXV, 2; Nov. XXX, 71.

كبير أمل فى الله بأن يأذن لنا فى استرداد الأراضى الامبراطورية الرومانية القديمة ، التى من جراء التراخى ضاعت »[٨٥] •

بناء على هذا الفكر لدى جوستنيان ، عرض على مستشاريه الماليين والعسكريين ، فى أخريات عام ٥٣١ مشروع القيام بحملة عسكرية الى ولاية أفريقيا التى يحتلها الوندال • ورغم أن هذه الفكرة لقيت المعارضة الكاملة من جانب هؤلاء المستشارين ، تأسيسا على الفشل الذى أصاب الحملة التى قادها باسيليسكوس Basiliscus على عهد الامبراطور ليو الأول ضد الوندال عام ٤٦٨ • الا أن جوستنيان أعرض عن آراء من جمعهم ليشاورهم فى الأمر ، وصمم على انفاذ هذه الحملة ، خاصة وأنه كان قد ضمن اقرار السلام ولو بهدنة مؤقتة عقدها مع الفرس ، تعهد بمقتضاها أن يدفع مبلغا ضخما من الذهب ، لشراء سكوت فارس[٨٦] • وازاء هذه الجزية التى تقررت لفارس ، والأموال المطلوب توفيرها للاعداد للحملة الافريقية ، كان على يوحنا الكبادوكى أن يوفر للامبراطور كل ما يطلبه ، ولم يدخر الرجل فى ذلك وسعا ، ولم يستثن من ذلك — كما يقول زكريا المتلينى — كبار الملاك أو صغار الحرفيين •

وليس أصدق فى التعبير عن شدة حاجة الامبراطور الى الأموال بصورة عامة ، من التشريعات التى أصدرها جوستنيان نفسه ، متعلقة بالضرائب • فها هو يوجه تعليماته الى حكام الولايات : « فلتكن جباية الضرائب هى شغلكم الشاغل قبل أى عمل آخر » ، ثم يتوجه بحديثه الى رعيته : « ألا فلتعلموا أن مشروعاتنا الضخمة وآمالنا العراض ، لن يتم انجازها دون الأموال ، ألا فلتدفعوا الضرائب اذن دون ابطاء »[٨٧] • وتضمن القسم الذى كان يؤديه حاكم الاقليم النص على بذل كل الجهد لجباية الضرائب : « ••• وأقسم أن أبذل قصارى جهدى فى متابعة تحصيل الضرائب ، وأن أطالب المتراخين فى السداد بكل شدة ، وأن أكون

---

(85) IUS. Nov. XXX, 11.
(86) PROCOP. bel. Pers. I, XXII.
(87) IUS. Nov. VII, 8, 10; Nov. XVIII, 1; Nov. XXX,2.

معهم ضارما ، وأن لا أتردد فى استخدام القسوة اذا ما تطلب الأمر »[88] بل ان جوستنيان ذهب أبعد من ذلك عندما حذر المولين من تقـــديم شكاياتهم ضد حكام الولايات ، اذا ما اتبع هؤلاء معهم وسائل العنف عند تحصيل الضرائب[89] وهددهم بأشد أنواع العقاب ، اذا ما انتهزوا المهلة المحددة له لرحيله عن الاقليم لايقاع الأذى به[90] • وراح يلقى باللائمة على الأباطرة الأسلاف الذين تهاونوا فى حقوق الخزانة الامبراطورية ، حتى انخفض دخل الدولة من الضرائب حسب تقديره الى الثلث وربما الربع[91] •

وكان طبيعيا أن يقدم جوستنيان فى سبيل زيادة دخل الخزانة ، على فرض ضرائب جديدة ، منها على سبيل المثال تلك التى فرضت على أصحاب الحوانيت فى القسطنطينية ، والتى قدرت بحوالى خمسين فى المائة من صافى الأرباح السنوية لهذه الحوانيت ، وذلك فى مقابل اطلاق يد التجار فى عدم الالتزام بالتسعيرة الجبرية ، مما أدى الى ارتفـــاع الأسعار الى ثلاثة أمثال السعر العادى • وأوقع الأضرار بالكثيرين ، وأطلق يد موظفى الحكومة للعبث كيف شاءوا بهذه الحـــوانيت لتقدير قيمـــة « النصف » كيف شاءوا[92] • كما ابتدعت الادارة المالية تحت رشد يوحنا الكبادوكى ، ضريبة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، حملت تسمية غريبة ، اذ عرفت بضريبة « الهواء » أو « السماء » Aerikon من المحتمل أنها فرضت على الأبنية المرتفعة فى المدن الكبرى • وقد حققت هـــذه الضريبة المبتدعة ، دخلا كبيرا للخزانة بلغ ثلاثة آلاف رطل من الذهب

---

(88) IUS. Nov. VIII, 3.

(89) IUS. Nov. VII, 10, Nov. XXVIII, 5.

(90) IUS. Nov. VIII, 10.

(91) IUS. Nov. VII praef.

(92) POOCOP. hist. arc. XX.

سنويا[٩٣] • ولم ينج أصحاب السفن التجارية أيضا من مثل هذه الأمور التى تدخل ضمن دائرة الابتزاز ، اذ كان عليهم دفع رسوم مالية كبيرة عند ارتحال سفنهم عن ميناء العاصـــمة ، أكرههم عليها موظفــو الادارة المالية ابتغاء وجه الأمبراطور[٩٤] ، بحيث أصبح شعار العاملين فى الادارة الحكومية ، أو بتعبير بروكوبيوس نفسه ، أصبح طموحهم الوحيد ، أن يقنعوا الامبراطور بجــدية ولائهم له ، عن طريق المزيد من الأمــوال والمزيد »[٩٥] •

وفى مقابل الجدية التى بلغت حد التعسف فى تقـــدير الضرائب وطرق جبايتها ، لم يتردد جوستنيان فى اتباع سياسة تقشفية ، لتوفير بعض الأموال التى تنفق فى وجوه عدها الامبراطور اسرافا واهـــدارا للاموال العامة • من ذلك اقدامه على الغاء المنحة التى كانت تعطى الجنود مرة كل خمس سنوات ، على عهود من سبقه من الأباطرة ، ومقـــدارها خمسة صوليدى لكل جندى[٩٦] ، كما أنه أبطل المكافأة التى كانت تصرف للعـــاملين فى الدولة عند نهاية الخـــدمة[٩٧] • وأوقف صرف الاعانات والمعاشات التى كانت تعطى فيما سبق لاطباء ومعلمى أبناء النبلاء[٩٨] ،

---

(٩٣) Ibid. XXI ويبدو أن هذه الضريبة قد ظهرت بعد ذلك فى عهود تالية متأخرة ، زمن ليو السادس الحكيم (٨٨٦ــ٩١٢) والكسيوس كومننوس (١٠٨١ــ١١١٨) • وقد دارت حولها مناقشات عديدة • راجع :

Bury, Later Roman Empire, II p. 350, N. 4

(94) PROCOP. hist. arc. XXIV, XXV.

(95) Ibid. XXV.

(٩٦) Ibid. XXIV ويتشكك جونز فى أقوال بروكوبيوس فى هذا الصدد ، ويذكر انه لم يكن من السهل أن يمر هذا الاجراء دون معارضة شديدة من جانب الجنود • انظر :

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 284-285.

(97) PROCOP. hist. arc. XXIV.

(98) Ibid. XXVI.

وحون جزءا مما كان يحصل عليه المحامون ليصب فى الخزانة الامبراطورية ، وذلك بالسماح للمتقاضين برفع دعاواهم أمام المحاكم مباشرة دون اللجوء الى المحامين[٩٩] • ومع التحفظ والحذر الشديدين ، اللذين لابد أن يضعهما الباحث فى اعتباره عند قراءة « التاريخ السرى » لبروكوبيوس[١٠٠] ، الا أنه بالمقارنة مع تشريعات جوستنيان نفسه ، وما يذكره المؤرخون الآخرون أمثال يوحنا الليدى وافاجريوس وزكريا المتلينى ويوشع العمودى ، وفى ضوء المشرعات العمرانية والتشريعية والحربية ، التى نفذها جوستنيان على امتداد عهده الطويل البالغ ثمانية وثلاثين عاما ، لا نملك الا القول ان الامبراطور ووزيره الأثير يوحنا الكبادوكى ، قد سخرا كل طاقات الادارة المالية وجهدها ، كى تمتلىء الخزانة بالأموال بأى وجه من الوجوه ، وكيفما كان الأسلوب •

ولعل هذا هو الذى يفسر نزوح أعداد هائلة من أهالى الأقاليم الشرقية الى العاصمة ، بحثا عن المؤن ، حيث كانت حصة القمح المجانية لا تزال توزع فى القسطنطينية ، وحيث حياة الترف والبهجة والهبدروم ، وللبحث عن عمل ومصدر رزق أوسع أو حظ أوفر • وهكذا وفد على المدينة فلاحون وزوجاتهم ، وقساوسة ورهبان وراهبات ، وتجار ومحامون بلا عمل ، ومعظمهم متظلمون جاءوا يضعن شكاياتهم عند أقدام العرش[١٠١] ، خاصة بعد أن أصبحت هذه الأقاليم تئن تحت وطأة الضرائب الباهظة ، وضغط الحرب الفارسية التى كانت قائمة على قدم وساق طوال سبع سنوات (٥٢٤ ــ ٥٣١) ، أى قبل أن يعتلى جوستنيان

---

(99) Ibid. XXV.

(١٠٠) يستخدم بروكوبيوس تعبيرا واحدا هو « ابتزاز الرعية » على امتداد صفحات كتاب « التاريخ السرى » ، يصف به جهد جوستنيان ويوحنا الكبادوكى للحصول على الأموال ، للانفاق على هذه المشروعات الكثيرة التى كان يطمح الى تحقيقها جوستنيان • ويعطينا يوحنا الليدى تفصيلا دقيقا للضرائب الباهظة التى فرضت على الأهالى دون تمييز ، والتى بلغت فى جملتها قرابة العشرين ضريبة • راجع :

IOAN. LYD. de magist. III 69-70.

(101) Ibid. 66.

العرش[١٠٢] ، وان كانت الهدنة قد حلت مؤخرا ، وقد أصبح نزوح هـذه الجموع الى العاصمة يشكل خطرا بالغا على احتياطات الأمن والتموين فى القسطنطينية ، ولم تخف تشريعات جوستنيان هذه الحقيقة ، عندما راح الامبراطور يشكو فى أحداها — كما أسلفنا — من خلو الولايات من ساكنيها ، « بينما امتلأت مدينتنا بأضداد الخلائق »[١٠٣] .

ولا شك أن الناس راحوا يتحسرون على الأيام الخـوالى ، التى عاشوها زمن الامبراطور الأسبق أنسطاسيوس ، حيث ألغى عددا من الضرائب كان الهدف منها تخفيف الأعباء الاقتصادية الثقيلة على الأهالى، وعوض النقص الذى أصاب الخزانة من جراء ذلك ، بدخل الضـيـاع الامبراطورية التى يبدو أنها زادت آنذاك الى حد كبير ، بالاضافة الى مصادرة ممتلكات الامبراطور السابق زينون وجماعته من الأيزوريين ، والغاء الاعانة التى كانت مخصصة لهؤلاء الأخيرين[١٠٤] . يضاف الى ذلك اشرافه الكامل على اخضاع المواد الغذائية للتسعيرة الجبرية المخفضة التى تحددها الدولة ، حتى يحول دون جشع كبار التجار[١٠٥] .

وقد تمكن أنسطاسيوس ، بما عرف عنه من حرص شديد بلغ حد التقتير ، من معالجة الأزمة الاقتصادية التى نتجت عن التكاليف الباهظة التى تطلبتها الحملة الفاشلة على أفريقيا عام ٤٦٨ بقيادة باسيليسكوس ، وما تبع ذلك من فوضى داخلية بسبب الصراع عى العرش ، وما أحدثه الأيزوريون من اضطرابات فى العاصمة وخارجها ، وقد ترك أنسطاسيوس

---

(102) IUS. Nov. XVII, 2, 3; XXIV, 1, 3, 13, 15; XXX, 5; XXVII, XXXIII; XXXIV.

(103) IUS. Nov. XXV, 3; XXX, 9; LXXX.

وراجع أيضا : KACH. Chron. IX, 14.

(104) MALALAS, Chron. p. 398.

وأيضا : EVAG. hist. eccl. III, 42.

وراجع كذلك : Bury, Later Roman Empire, I, p. 442.

(105) Stein, Bas-Empire, II pp. 200-201.

خزانة عامرة بالأموال[١٠٦] • ورغم الأموال الطائلة التى جمعها جوستنيان خلال فترة حكم خاله جوستين عبر تسع سنوات ، والتى فاقت حسب رواية بروكوبيوس ما ادخره أنسطاسيوس على عهده البالغ سبعة وعشرين عاما ، الا أنه يبدو أن الحرب الفارسية والجزية المالية الضخمة التى قبل جوستنيان أن يدفعها للفرس ، وما أنفق على المشروعات المعمارية، واللجان الفقهية التى وكل اليها اعداد مجموعة قوانين جوستنيان الشهيرة ، كل هذا قد استنفذ هذه الأموال الطائلة[١٠٧] •

من هنا كان السخط عاما على جميع الطبقات بلا استثناء ، عندما اندلعت الثورة فى القسطنطينية ، بسبب هذه السياسة المالية التى اتبعها النائب الامبراطور والمستشار المالى وباركها جوستنيان • ومن هنا نستطيع أيضا أن نتفهم حقيقة الدوافع التى حدت بالثائرين الى المطالبة بعزل يوحنا الكبادوكى من منصبه ، ليس فقط من جانب الفقراء الذين اعتصرتهم اجراءات يوحنا ، بل أيضا كبار الملاك الذين كانوا قد كونوا لأنفسهم قوات خاصة يقفون بها فى وجه السلطة الحكومية[١٠٨] •

ولم يكن هذا السخط ناجما فقط عن السياسة الضرائبية التى فرضها جوستنيان على شعبه ، من أجل تحقيق آماله ، بل ان سياسته العقيدية أيضا والتى كانت تسير فى ركاب الجيش ، كانت هى الأخرى عاملا هاما من العوامل التى ساهمت بدور ليس باليسير فى استفحال أمر الثورة الشعبية التى شهدتها القسطنطينية عام ٥٣٢ على النحو الذى رأينا • فبغض النظر عن المراسيم التى أصدرها جوستنيان ضد السامريين والمانويين والوثنيين واليهود ومختلف الطوائف الأخرى ، الذين « لا يستحقون الا كل الازدراء لأنهم لا يدينون بمذهب الدولة » ، أى

(106) IOAN. LYD. de magist. III 51.
وايضا : PROCOP. hist. arc. XIX.
(107) Id.
وراجع ايضا : Hodgkin, Italy and her Invaders, III, p. 553.

(108) Baker, Justinian, p. 88.

الأرثوذكسية الخلقيدونية[١٠٩] التى حاول جاهدا أن يجعل لهـا مكان الصدارة فى الامبراطورية[١١٠] ، الا أنه حاول فى عام ٥٢٩ ، استرضاء أهالى الولايات الشرقية الذين يدينون بالطبيعة الواحدة ، وذلك عن طريق اجراء حوار بينهم وبين الخلقيدونيين ، كما سمح باعادة الرهبان المنفيين من المونوفيزيتيين[١١١] • ولا شك أن الحرب الفارسية الدائرة هى التى دفعته الى مثل هذه السياسة لضمان هدوء المناطق الشرقية ، الا أن الحوار الذى دار بين أصحاب الطبيعة الواحدة وأصحاب الطبيعتين ، لم يسفر عن شىء حاسم ، بل لم يتعرض الامبراطور لشىء مطلقا فى البيان الختامى لهذه المحاورات ، عن نطاق الخلاف الجوهرى بين المنافزة والخلقيدونيين ، أعنى مسألة الطبيعة والطبيعتين[١١٢] •

الا أن هذا لم يكن يعنى للمنافزة سوى المزيد من سياسة التجاهل ثم العداء ، خاصة وأنهم قد عاشوا فتـرة آمنة على عهـدى زينـون وأنسطاسيوس ، وأن جوستنيان أبدى منذ فترة تواجده الى جـوار خاله جوستين ، وخلال السنوات الأولى من عهده هو ، انحيازا صريحا الى جانب الأرثوذكسية الحكومية ، الخلقيـدونية ولكم كان يدور بخلـد جوستنيان أن يصبح سيد الكنيسة المطلق ، انطلاقا من الفكر السيـاسى الرومانى القائم على عدم السماح بوجود كيان مستقل أو دولة داخـل الدولة • ومن ثم حـرص على الاسـتحواز على الادارة الداخليـة للكنيسة[١١٣] • بل أقدم على اتخاذ خطوة لها خطورتها البالغة عندما أصدر قانونا نص على أن لقوانين المجامع المسكونية الأربعة الأولى ، نيقيـة

---

(109) CODEX Ius. Lib. I, Tit. V 11; Nov. VIII, 4; Nov. XLV.

(110) THEOPH. Chron. p. 276.
وأيضـا : MALALAS, Chron. p. 449.

(111) ZACH Chron. IX, 15.

(112) Jones, Later Roman Empire, I, pp. 285-287.
وأيضـا : Ure, Justinian and his Age, p. 112.

(113) IUS. Nov. VI prael., 1, 5; 42; CXXIII, 1.

والقسطنطينية وافسوس وخلقيدونية ، قوة القوانين الامبراطورية[١١٤] • وكان هذا يعنى وضع الكنيسة تحت السيادة المدنية للامبراطور مباشرة ، باعتباره نائب المسيح على الأرض • وقد أفصح عن ذلك عندما اعتبر أن السلطتين ، الامبراطورية Imperium والكهنوتية Sacerdotium منبثقتان من مصد واحد ، وتمثل ذلك فى ديباجة احدى تشريعاته حيث قال: « ان أعظم الهبات التى من الله بها من عل على بنى البشر ، بحب الانسانية Philanthropia هى الكنيسة والامبراطورية ، الأولى ترعى ما يختص بالله ، والأخرى تعمل الفكر فيما يتعلق بحياة بنى الانسان »[١١٥] • وبناء على هذا المعتقد ، كان يؤمن تماما أن من حقه اقرار عقيدة بعينها لرعاياه ، اذ الناس عنده على دين ملوكهم[١١٦] •

ولما كان جوستنيان امبراطورا رومانى القلب والقالب ، يؤمن بعظمة الرومان وخلود روما ، فقد اعتبر الكرسى الرسولى فى روما رأس الكراسى الأسقفية الكبرى فى الامبراطورية دون منازع Caput omnium Sanctarum ecclesiarum ووضع كرسى القسطنطينية فى المرتبة الثانية بعد روما[١١٧] • ولا شك أن هذا كان يعنى احترام منصب الأسقف الرومانى ومخاطبته اياه فى رسائله بـ « البابا » و« الأب الرسولى »[١١٨] • ولما كان وقوف بابا روما الى جوار الامبراطور أثناء حروبه الاستردادية فى افريقيا وايطاليا ، أمرا لامندوحه عنه لنجاح هذا المشروع ، أضحى طبيعيا أن يكون ذلك على حساب أصحاب الطبيعة الواحدة فى الأقاليم الشرقية والقسطنطينية ، الذن ازداد سخطهم بصورة

---

(114) IUS. Nov. CXXXI, 1.

(115) IUS. Nov. VI praeb.

(116) Vasiliev, history of the Byzantine Empire I, p. 148.

(117) IUS. Nov. CXXXI.

(١١٨) لم يمنع هذا جوستنيان من الوقوف موقفا متشددا من بابا روما فيجيليوس Vigilius عندما شعر أن الأسقف الرومانى يحاوج الخروج على رأى الامبراطور فى المسألة العقيدية • راجع تفاصيل ذلك فى :
Jones, Later Roman Empire, I, pp. 296-298.

واضحة ، وكان هذا عاملا هاما أيضا من العوامل التى لعبت دورها الفعال فى ثورة « نيقا » عام ٥٣٢ •

ولأن الخضر ، الذين يلقون التأييد من جانب أنصارهم فى الأقاليم الشرقية ، هم الذين أطلقوا الشرارة الأولى لثورة القسطنطينية ، عندما أعلنوا سخطهم وتبرمهم أمام الامبراطور فى يوم الأحد ، الحادى عشر من يناير ، فى الهبدروم ، فقد اتخذ بعض المؤرخين من ذلك ذريعة لاعتبار هذه الثورة ثورة مونوفيزيقية بكل المعايير ، وفى مقدمة هؤلاء يأتى المؤرخ « باكر » Baker الذى يقول ان الثورة قامت بتحريض من المنافزة ، ويذكر أن جوستنيان كان يرى أن حزب الخضر كله من أصحاب الطبيعة الواحدة ، الذين يشكلون عدوا رسميا لسياسة الوحدة العقيدية فى الامبراطورية ، وأنهم أنصار الامبراطور الأسبق أنسطاسيوس • ثم يكتب بعد القضاء عليها : « الآن تم سحق الثورة التى عرفت مؤخرا باسم « فتنة النصر » ، ثورة الخضر والزرق ، وان كان من المفضل تسميتها ثورة المونوفيزيتيين »(١١٩) •

ومع عدم اغفال مظاهر السخط الدينى على السياسة العقيدية التى اتبعها جوستنيان ، الا أن ذلك لا يعنى التركيز على جانب واحد فقط ، ووصف هذه الثورة بأنها ثورة « دينية مذهبية » ان صح هذا التعبير ، خاصة وأن فرقا عديدة أخرى غير المونوفيزيتيين ، مثل المانويين والاريوسيين والسامريين وطوائف يهودية ومسيحية أخرى ، قد أضيرت بصورة واضحة من جراء التشريعات التى أصدرها ضدهم جوستنيان ، والتى تمتد من التضييق عليهم فى ممارسة طقوسهم ، الى الطرد من الوظائف العامة ، الى المصادرة والتدخل فى حق الوصية ، الى الاعدام ، نقول •• ان وصفها على هذا النحو يعد نوعا من المبالغة واغفالا لحقائق هامة أخرى كان لها دورها الكبير فى ثورة القسطنطينية •

---

(119) Baker, Justinian, pp. 82, 88, 98.

بل ان معاناة الوثنيين كانت أشد وأنكى ، فقد استخدم جوستنيان ، برواية المعاصرين ، أسلوبا عنيفا ضد الشخصيات الكبرى من الوثنيين الذين يشغلون عددا من المناصب الهامة فى الدولة، فأقصاهم عن وظائفهم، وصادر ممتلكاتهم ، وقاد بعضهم الى القتل (١٢٠) • على أن الصفعة القوية التى وجهت اليهم ، خاصة مثقفيهم وذوى الفكر فيهم ، هو القرار الذى أصدره فى عام ٥٢٩ باغلاق جامعة أثينا ، وحرم على الأساتذة الوثنيين الاشتغال بالتدريس (١٢١) ، ولم يجد هؤلاء أمامهم من سبيل سوى الهروب الى فارس ، والاحتماء بكسراها الذى رحب بهم • ومع أن هذا القرار قد جاء تمشيا مع السياسة العامة التى يتبعها جوستنيان ، لاقرار السيادة الأرثوذكسية الحكومية الخلقيدونية ، الا أنه يمكن القول انه قد اتخذ لصالح جامعة القسطنطينية ، التى كان قد صدر قرار انشائها فى عام ٤٢٥ على عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثانى •

ومع مرور قرن على انشاء جامعة القسطنطينية ، الا أن الشهرة الفكرية ظلت لجامعة أثيناء الوثنية ، وظل كثير حتى من آباء اللاهوت المسيحى فى الامبراطورية ، يتلقون تعليمهم فى أثينا • ومن ثم أيقن جوستنيان أن جامعة القسطنطينية «الوليدة» لن يكتب لها النجاح والذيوع مادامت جامعة أثينا قائمة ، فقضى بذلك على قلعة من أهم قلاع الفكر الفلسفى فى الامبراطورية ، مما ترك آثاره وبصماته الواضحة على منطقة جنوب شرقى أوروبا ، متواكبا مع ما سبق من الغزو الجرمانى وهطول غزوات جديدة صقلبية وتركية على منطقة اللبقان • فاذا أضفنا الى هذا أن جامعة القسطنطينية بمقتضى القرار الصادر من ثيودوسيوس الثانى بانشائها ، كانت تابعة تبعية مباشرة للسلطة الامبراطورية ، وأن جامعة أثينا كانت بعيدة عن مثل هذه السيادة ، أدركنا المخاوف الحقيقية التى كان جوستنيان يضعها فى حساباته ، باعتباره حاكما مطلق السلطان •

---

(120) PROCOP. hist. arc. XI.

وايضـــا : MALALAS, Chron. p. 449.

(121) MALALAS, Chron. p. 448.

ومن ثم أضاف جوستنين بقراره هذا الى قائمة خصومه ، خصوما آخرين من رجال الفكر وخاصة المثقفين •

هذه الناحية ، أعنى فكرة السيادة المطلقة ، نلمسها فى اختيار جوستنيان لمعاونيه ، فقد كان حريصا على اختيار عناصر تعود الى أصول غير معروفة ، ودون النظر الى طبقاتها الاجتماعية[١٢٢] حتى يضمن ولاءهم الكامل وعدم معارضتهم له الرأى ، من ذلك مثلا اقدامه على عزل ديموسثنيز Demosthenes النائب الامبراطورى العجوز ، والذى كان فيما يبدو زعيما لجماعة المحافظين من رجال السناتو ، والذين ساهموا بدور ملموس فى اختيار جوستنيان للعرش ، وعين بدلا منه يوحنا الكبادوكى[١٢٣] • وقد جلبت عليه هذه السياسة غضب كثير من العناصر النبيلة خاصة الطبقة السناتورية ، التى رأت فيه خصما عنيدا وتهديدا خطيرا لمصالحها ، بعد أن تأكد لديها بصورة لا تقبل المناقشة عزم جوستنيان على تحطيمها تماما ، وهى التى كانت قد نفضت عن نفسها منذ ثلاثة أرباع القرن تقريبا ، غبار القرون الطويلة التى أريد لها خلالها أن تظل بعيدة عن المسرح السياسى فى الامبراطورية •

ولم يكن من السهل أن يلتقى أبدا فكر جوستنيان عن السلطة المطلقة المستمدة من الله ، وتطلعات « الشيوخ » للقيام بدور فعال فى الحياة السياسية • وكان يبدو واضحا منذ النصف الثانى من القرن الخامس ، أن الأباطرة — فى مواجهة ازدياد النفوذ الجرمانى فى بلاط العاصمة ، رأوا تشجيع النبالة الرومانية لتكوين جبهة مناوئة لهذه العناصر الجرمانية ، بل ان هذه الناحية تعود الى الى أوائل ذلك القرن ، على عهد الامبراطور أركاديوس Arcadius (٣٩٥—٤٠٨) عندما تزعم أحد الشيوخ ويدعى أوريليان Aurelianus زعامة هذه الجبهة فى مواجهة القائد الجرمانى جايناس Gainas فى العاصمة • وظل هذا المد يعلو

---

(122) Holmes, Justinian and Theodora, II, p. 442.

(123) PROCOP. hist. arc. XI.

بشكل ملحوظ حتى ظهر بدور عملى فى الأحداث التى أعقبت وفاة الامبراطور ليو الأول عام ٤٧٤ ، وترك سميه وحفيده لابنته ، طفلا صغيرا يتولى الوصاية عليه أبوه الأيزورى زينون ، غير أنه لم يلبث أن مات بعد شهور قليلة ، لينتقل العرش الى أبيه ، الذى تعرض فى أول عهده للطرد من العاصمة ، الا أن السناتو نجح بالفعل فى اعادة العرش اليه ثانية ، بعد اغتصاب باسيليسكوس لهذا العرش فترة امتدت عشرين شهرا .

لكن السناتو وجد فى زينون وجماعته من الأيزوريين ، خطرا لا يقل عن الجرمان من قبل ، ولذا سعى جهده للتخلص من هذا النفوذ الأيزورى، ونجح فى النهاية فى تفويت الفرصة على لونجينوس Longinus شقيق زينون فى الاستيلاء على السلطة ، وتم اختيار مرشح آخر هو أنسطاسيوس امبراطورا .

على أن السناتو واتته الفرصة الذهبية بعد موت أنسطاسيوس ، دون أن يعقب ولدا ، ومع أنه كان له أبناء أخ ثلاثة ، بروبوس وبومبى وهيباتيوس ، الا أن النية بيتت على تجاهلهم من جانب الجيش والسناتو على السواء . وأقدم أمانتيوس Amantius كبير الأمناء فى البلاط ، على دفع مبلغ كبير من المال الى جوستين Iustinus الذى كان رئيسا للديادبة Excubitors احدى فرق الحرس الامبراطورى ، ليقدمه رشوة للجنود لاختيار شخص مغمور للعرش يدعى ثيوكريتوس Theocritus . وفى صبيحة التاسع من يوليو عام ٥١٨ ، شهد الهبدروم. كما يجرى دائما فى مثل هذه الظروف ـ تجمعا ضخما لأهالى القسطنطينية ، الذين راحوا يخلعون على السناتو آيات التبجيل والاحترام ، ويهتفون مطالبين مجلس الشيوخ باختيار الامبراطور الجديد ، وشهدت أروقة القصر وقاعاته اجتماعات عاجلة ، شارك فيها كبار الموظفين وأعضاء السناتو والبطريرك ، وانتهت الآراء الى ضرورة انتهاز هذه الفرصة حتى لا يسبقهم الجيش والغوغاء الى اختيار مرشح للعرش، هذا فى الوقت الذى لعبت فيه النقود التى فى حوزة جوستين دورها

لصالحه ، وليس من أجل ثيوكريتوس • وهكذا أقدم السناتو على اعلان جوستين امبراطورا ، وقدموه للجموع فى الهبدروم ، حيث هتفوا بحياته، وتم تتويجه على يد بطريرك القسطنطينية(١٢٤) •

وقد أقر جوستين بدور السناتو فى وثيقة رسمية بعد أيام قلبلة من اعتلائه العرش ، وهى الرسالة التى بعث بها الى البابا فى روما ، وجاء فيها : « بنعمة الثالوث الأقدس ، واختيار كبار رجال قصرنا المقدس، ومجلس السناتو ، ثم مباركة الجيش وتأييده ، توليت قياد الامبراطورية(١٢٥) • وهىء للشيوخ على هذا النحو ، أنهم فى طريقهم الى أن يعود بهم الزمن ثانية الى القرنين الأخيرين من العصر الجمهورى الرومانى ، ووصلوا حبالهم بجوستنيان ابن أخت جوستين وولى عهده حتى يجعلوا منه مستقبلا رجلهم • وأفاد هذا من تطلعاتهم ، فأوحى اليهم أن يطلبوا الى الامبراطور ، أن يشرك معه ابن أخته ، بصورة رسمية ، فى ادارة شئون الدولة • غير أن جوستين رفض هذه المحاولة ، وحذرهم من تسليم مقاليد الأمور فى الدولة الى شباب غرير(١٢٦) • لكن السناتو جدد المحاولة ثانية حتى تمكن عام ٥٢٥ من اقناع جوستين بمنح ابن أخته لقب القيصر • ولم يمض على ذلك عامان حتى جرت مراسم تتويج جوستنيان امبراطورا شريكا وخاله على فراش الموت ، وشهد ذلك أعضاء مجلس الشيوخ وكبار الموظفين وقادة الحرس الامبراطورى(١٢٧) • وهكذا أصبح لدى السناتو كبير أمل فى أن يشارك عمليا فى صنع السياسة الامبراطورية ، بعد هذه الممارسة التى تصورها واقعا حقيقيا ، لاختيار

---

(١٢٤) راجع تفاصيل هذه الأحداث فى :
MALALAS, Chron. pp. 410-411

وايضا : Bury, Later Roman Empire, II, pp. 16-18.

وكذلك : Jones, Later Roman Empire, I, pp. 266-276.

(125) Bury, op. cit., p. 18.

(126) ZONAR. epit. XIV, 5.

(127) EVAG. hist. eccl. IV, 9.

أربعة أباطرة على التوالى[128] ، واعتقدوا أن اختيار شاب يافع في الاربعينيات من عمره ، كان الامبراطور العجوز جوستين قد حذرهم من مثله آنفا ، سوف يجعله أداة طيعة فى أيديهم ، وأن الامبراطور الجديد لن يعدو أن يكون رجلهم .

غير أن السناتو أصيب بخيبة أمل بالغة بعد سنوات قلائل من اعلان جوستنيان امبراطورا ، وتبين لهم أن « رجلهم » هذا ليس الا امبراطورا رومانيا حريصا على تراث الأسلاف فيما يتعلق بالسلطة الامبراطورية ، يعد نفسه خليفة القياصرة الرومان[129] ، رفع شعارا لا مواربة فيه ، مؤداه .. دولة واحدة وقانون واحد وكنيسة واحدة ، وهو السيد الأعلى فى هذه الدولة . وقد تضمنت تشريعاته ومراسيمه ، عزفا متواصلا على هذه النغمة التى لابد أن يعيها الجميع . وحمل جوستنيان كل الألقاب التى حملها من قبل الامبراطوران أوغسطس وتراجان ، وزاد عليها ، مثل « الامبراطور . القيصر . قاهر الألمان والقوط والفرنجة والجرمان والوندال والأفريقيين . التقى . المبتهج . الشهير . المنتصر . المظفر . الأوغسطس على الدوام »[130] .

وجاء فى ديباجة الأمر الصادر الى الفقيه تريبونيان ، بشأن القيام بجمع الفتاوى وأحكام المحاكم وآراء الفقهاء والمشرعين ، وغربلتها ، وتقديمها بصورة ينتفع بها ، فيما عرف باسم الدايجستا Digesta جاء فى هذه الديباجة عن سلطة الامبراطور : « اننا نحكم امبراطوريتنا بتفويض من الله ، وهو فى عليائه قد تفضل بها علينا ، وبكل قلوبنا نرفع الى السماء أكف الضراعة ، سائلين عون الاله في أن يبارك خطونا ، فى اعادة بناء دولتنا . ان ثقتنا من ثم لا نضعها فى جيشنا ، القادة والجنود،

---

(١٢٨) نعنى بذلك الأباطرة : زينون وانسطاسيوس وجرستين وجوستنيان .

(129) Diehl, By Z antium, p. 30.

(130) Id.

ولا فى مقدرتنا ، بل نضعها كاملة فى السماء ، فى الثالوث المقدس وحده »[131] .

ولم يمل الامبراطور جوستنيان من ترديد هذا المفهوم وتأكيده فى كل مناسبة تعن له ، وحملت تشريعاته صورة واضحة عن فكره حول سلطة الامبراطور ، « ان الله قد أناب السلطة الامبراطورية لرعاية شئون العالم » ، « ان الله هو الذى وضع على رأسنا التاج ، وهو الذى خلع علينا العباءة الأرجوانية ، وهو الذى فضلنا على كثير من السابقين»[132] . بل ان الفنان البيزنطى قد استوحى هذه الصورة عندما أبدع الفسيفساء الشهيرة التى تزدان بها كنيسة سان فيتال St. Vitale فى رافنا Ravenna بايطاليا ، والتى تصور جوستنيان وقد علته هالة ، مشيرا بذلك الى الملك الكاهن على رتبة « ملكى صادق » Melchisedech[133] .

وكان جوستنيان يدرك جيدا ما يصبو اليه السناتو ، ولم يكن هو بالتالى — فى ضوء هذه الأفكار — يريد مجلسا للسناتو على هذا النحو من التأثير فى الأحداث ، بل يريد « سناتو » يعبر عنه بروكوبيوس أصدق تعبير ، ليس فقط كما يريد الامبراطور ، بل ما أراد له فعلا بعد ثورة عام ٥٣٢ ، مجرد « صورة معلقة على جدران الزمن ، مجردا من كل سلطان ، لا يملك اصدار قرار أو يمتلك أية بادرة طيبة ، يجتمع فقط من أجل استكمال الشكل العام ، لا يسمح لأى من أعضائه أن ينبس ببنت شفة .. يصدق فى النهاية على كل ما يراه الامبراطور »[134] .

من هنا كان لابد أن يقع الصدام بين فكرين يقفان على طرفى نقيض ، ومن هنا أيضا نستطيع أن نفسر أحداث الثورة ، وأن نرتب أدوارها ، فالمطالبة بالعفو عن الرجلين اللذين نجيا من الاعدام ، ثم بعزل

---

(131) IUS. Digesta, I, praef.
(132) IUS. Nov. VI, praef.; Nov. XXX, 11.
(١٣٣) هسى : العالم البيزنطى ، ص ٢٣٩ .
(134) PROCOP. hist. arc. XIV, 10.

والى المدينة بودايمون ، كان يتفق وطبيعة سير الأحداث ، من القبض على الرجلين اللذين ينميان الى حزبى الزرق والخضر ، ورفض الامبراطور اجابة الحزبين الى ملتمسهم باطلاق سراح الرجلين ، أما اشراك يوحنا الكبادوكى وتريبونيان الفقيه والمحامى الذائع الصيت ، فلم يكن يعنى ، بتعبير زكريا المتلينى — الا اشتراك عناصر أخرى فى الأحداث وتسيرها لدفتها[١٣٥] • وقد علمنا من قبل الدور الذى اضطلع به يوحنا الكبادوكى فى السياسة المالية واظطرائيبية ، التى أثارت سخط جميع الطبقات وفى مقدمتها كبار ملاك الأراضى ، وهم يشكلون فى معظمهم الطبقة السناتورية النبيلة • أما تريبونيان فقد كان دور رجال السناتو فى المطالبة باقصائه عن منصب الكويستور ، واضحا ، فهو الذى أحاط السلطة الامبراطورية المطلقة التى أرادها جوستنيان بسياج قانونى ، ووضع لها الضمانات الكافية التى تجعل من الامبراطور السيد المطلق، البانتوقراطور Pantocrator ، حتى جرى على ألسنة الجميع آنذاك ، ان كل ما يشاء الامبراطور ، له قوة القانون[١٣٦]

Quod principi placuit, legis habet Vigorem

وقد عد تريبونيان مسئولا مسئولية كاملة عن كل ما يتصل بالناحية التشريعية ، أو بتعبير آخر ، عن تقنين السلطة الامبراطورية المطلقة[١٣٧] •

على هذا النحو يمكننا القول ، ان الأمور خلال اليومين الأولين للثورة ، ١١ و١٣ يناير ، كانت بيد زعماء حزبى الزرق والخضر ، وكانت مطالبهم تنحصر فقط فى التماس العفو عن الرجلين الناجيين من المشنقة، وان كان يعنيهم ما حدث من بعد من المطالبة بعزل يودايمون والى المدينة •

---

(135) ZACH. Chron. IX, 14.

(136) Kolbert, The Digest of Roman law, p. 17.

(١٣٧) لم يسلم تريبونيان من قلم بروكوبيوس اللاذع ، حيث وصفه بالجشع والنهم الشديد لجمع الأموال ، شأنه فى ذلك شأن يوحنا الكبادوكى ، حتى انه كان على استعداد لتغيير القوانين وتبديلها وبيعها لمن يشاء . ولكن بروكوبيوس لم يستطع انكار ثقافة تريبونيان العريضة « التى لا يدانيه فيها أحد من معاصريه » ، حسب تعبيره . انظر :

PROCOP. bel. pers. I, XXIV, 16.

ولم يخرج ما حدث خلال هذين اليومين فى الهبدروم ، عن غيره مما كان حدث من الاضطرابات تشهدها العاصمة من قبل ومن بعد • حتى اذا كان اليوم الثالث للثورة ، الأربعاء ١٤ يناير ، وطالب الثائرون بعزل يودايمون ويوحنا الكبادوكى وتريبونيان ، أمسى واضحا أن القيادة أفلتت من يـد زعماء الحزبين ، انتقلت الى « أفراد معينين » بقول زكريا المتلينى ، كما أسلفنا • ولم يكن هؤلاء « الأفراد المعنيون » سـوى رجال السناتو ، الذين أفصحوا عن نياتهم الحقيقية وكشفوا عن وجوههم ، منتهـزين فرصة هذه الاضطرابات ، ليضربوا ضربتهم والحديدة محماة • وتمثـل ذلك على الفور فى تحريض الجموع الذين امتلأت بهم العاصمة ، على الذهاب مباشرة الى دار « بروبوس » ابن أخ أنسطاسيوس ، للمناداة به امبراطورا ، وكان هذا فى اليوم الثالث للثورة ، أو بتعبير أدق ، فى اليوم الأول للثورة الحقيقية ، بعد أن أصبح واضحا أن الهدف ليس فقط عزل الوزراء الثلاثة ، بل اختيار امبراطور جديد • ومن ثم يمكن أن يعزى الى رجال السناتو ، كما قول بيورى Bury فشل سياسة الترضية التى اتبعها جوستنيان ، عندما رضخ لمطالب الثائرين وعزل وزرائه الثلاثة ، ولم يحل دون تحقيق رغبة السناتو ، سوى رفض « بروبوس » ووجود الأخوين « بومبى » و« هيباتيوس » داخل القصر الامبراطورى • فاذا ما أمرهم جوستنيان بمغادرة القصر ، حتى اهتبلوا الفرصة ، وأكرهوا هيباتيوس على ما أخفقوا فيه مع بروبوس •

بل لقد ذهبت بهم الحماسة مبلغها ، عندما عقدوا اجتماعهم الخطير الذى حدثنا عنه باستفاضة بروكوبيوس ، وقرروا قيادة هجوم الثائرين على القصر الامبراطورى ، بعد أن نقل اليهم من كانوا بداخله ، حالة التردى والضعف الذى كان عليه القصر • ولم يصغ هؤلاء المتحمسون لصوت العقل والتروى الذى خاطبهم به أحد زعمائهم ، أوريجن ، بترك الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى ، حتى يسقط العنصر بمن فيه دون عناء ، « اننا اذا ما عالجنا هذه الحالة بترو ، أصبحنا قادرين على أن نأخذ جوستنيان فى قصره ، لكنه لا شك سوف يكون أكثر وأسرع شكرا

لو سمح له بالفرار !! ذلك أن السلطة التى يتم تجاهلها تفقد سلطانها ، وينحسر يوما بعد يوم عنفوانها »[139] • لكن المؤتمرين ضربوا عرض الحائط بحديث أوريجن ، واعتقدوا — كما يقول بوكوبيوس بالحرف الواحد — : « ان هذه هى الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافهم[140] • ولعل القرار الذى اتخذه جوستنيان بعد القضاء على الثورة ، بالقبض على ثمانية عشر عضوا من أعضاء مجلس السناتو ، ومصادرة ممتلكاتهم ، ليعد دليلا عمليا على السياسة التى أعلن الامبراطور ، بهذا التصرف ، عن اتباعها فى المستقبل ازاء أعضاء مجس الشيوخ •

ولم يكن تأثير الحرس الامبراطورى ، القوة الضاربة فى الجيش ، فى أحداث هذه الثورة ، يقل شيئا عن تأثير السناتو ، ان لم يكن يفوقه !! على الرغم من أن دور كل منهما كان يختلف اختلافا جذريا عن الآخر ، وان بدا متمما له لابتغائهما شيئا واحدا فى النهاية • فبينما كان موقف السناتو ايجابيا تماما ، كان دور الحرس الامبراطورى يمثل السلبية بعينها ، لكنها السلبية المدمرة ، حتى اننا لا نستبعد حدوث تنسيق بين كل من الطرفين ، دليلنا على ذلك تطور الأحداث خلال أيام الثورة ، وما كتبه مؤرخ معاصر قريب من الأحداث ، كان يرويها من داخل القصر الامبراطورى ، هو بروكوبيوس ، رغم أنه لم يقف عند بعض التفصيلات•

فقد كان الحرس الامبراطورى يتولى تأمين الاتصال بين القصر والمقصورة الامبراطورية بالهبدروم ، عبر الدهليز الموصل بينهما ، فلما تقرر مهاجمة الثائرين فى المضمار ، بعد الخطاب الذى ألقنه ثيودورا خلال اجتماع « اليأس » الذى عقد بالقصر ، صبيحة الأحد الثامن عشر من يناير ، كان على « موندوس » أن يفاجىء الهبدروم من أحد بواباته الخارجية ، بينما يقوم « بليزاريوس » بالوصول مباشرة من داخل القصر الى المقصورة ، وتوجه ضربة مؤثرة للثائرين ، وذلك بمباغتتهم على

(139) PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 29.
(140) Ibid. 31.

هذا النحو ، والقبض على هيباتيوس ، لحرمانهم من ثمرة انتصــارهم • ولا شك أن هذه الخطة كانت كفيلة بتحقيق نجاح يكاد يكون مؤكدا ، بدلا من المغامرة غير المضمونة التى قام بها بليزاريوس مؤخرا ، بمهاجمـــة الهبدروم من خارج القصر ، كما فعل موندوس • لكن قوات الحـــرس الامبراطورى تصدت لبليزاريوس وقواته ، ورفضت السماح لهم بالمروق الى المقصورة مباشرة •

ولم يكن هذا الموقف جديدا على هذه « القوات النظامية » ، فخلال حرب الأيام الثلاثة (١٥ــ١٧ يناير) التى دارت فى شوارع العاصمة ، بين بليزاريوس والثائرين ، لم يبد الجنود أى استعداد للمشاركة فى هذه الحرب الى جانب الامبراطور ، مما أدى الى فشل بليزاريوس بقواته القليلة المكونة من القوط ، والتى كان قد عاد بها مؤخرا من الجبهـــة الفارسية ، فى حسم هذه المعركة لصالح الامبراطور • ولعل هذا هـــو الذى دفع جوستنيان الى الاقدام فى مساء السابع عشر من يناير ، على طرد كل من بومبى وهيباتيوس من القصر ، كما طرد أيضا رجال السناتو القابعين بداخله ، ولا ريب أن الشكوك قد ساورته فى احتمال أن تكون هناك مؤامرة ، قد تم تدبيرها بين كل من رجال السناتو داخل القصر وقوات الحرس الامبراطورى ، لاعلان أى من الأخوين امبراطورا بعد القبض على جوستنيان أو اغتياله ، بعد أن انتهت الحرب الأهلية دون أى نتيجة حاسمة فى جانب الحكومة • ويقول بروكوبيوس بالحرف الواحد : « لقد كان الجنود جميعهم ، حتى أولئك الذين فى بلاط الامبراطور ، غير راغبين فى مساعدته ، أو اتخاذ أى اجراء فعلى من أجل مقاومة الثورة ، بل كانوا ينتظرون ما تسفر عنه الأحداث فى المستقبل !! »[١٤١] •

وقد يؤكد هذه الناحية ، ما كان معروفا من أن الفرقة القديمة فى الحرس الامبراطورى ، الـــ Scholae كانت على صلة وثيقة بالسناتو ، بينما الفرقة الأخرى ، الـــ Excubitors كانت تميل بين الحين والآخر

(141) PROCOP. bel. Pers. 1, XXIV, 39.

الى جانب الخضر ، وبولائها للامبراطورين ليو الأول وزينون ، اللذين كانا لهما الفضل فى تقويتها وتدعيمها(١٤٢) ، وأن هذه الفرقة الأخيرة التى كان جوستين يتــولى قيادتها قبل اعتـــلائه العرش ، قد حنقـــت على الامبراطورين جوستين وجوستنيان ، ميلهما الى الزرق • ومن ثم ليس من الصعب تفسير الموقف الذى اتخذه الحرس الامبراطورى •

على أن الدافع الحقيقى الذى حدا بالحرس الامبراطورى الى اتخاذ هذا السبيل ، كان أبعد من ذلك بكثير • فالآمال التى كانت تداعب خيال السناتو ، بعصر يعود له فيه عرشه القديم فى ظل النظام الجمهــورى الرومانى ، كانت هى الأخرى تتراقص أمام عينى الحرس الامبراطورى • فقد أدرك هو الآخر أن جوستنيان يرسى قواعد ثابتة لنظام حكم مستقر ، نصبح كلمة الامبراطور فيه هى العليا • وراح يترحم على أيام خلت كان للجيش فيها القول الفصل فى اختيار الجالس على عرش الامبراطورية ، واذا كانت المسائل تقاس بالمصالح الخاصة ، فان عصر الجيش الزاهر ، بمقاييسه طبعا ، فى ممارسة لعبة السياسة ، واجادة فنونها ، وان جرى على حساب النظام العسكرى ، كان هو الفترة الممتدة الى نصف قرن ، بين عامى ٢٣٥ — ٢٨٤ ، وهى التى اصطلح المؤرخون على تسميتها بأزمة القرن الثالث • فقد قام الجيش خلالها باختيار ستة وعشرين امبراطورا ، وقام أيضا بانهاء حياة خمسة وعشرين منهم قتلاً !! واضعا أمام ناظرية عبارة سبتميوس سفروس لولده ، « أجزل العطاء للجند ولا تلق بالا للاخرين » • بل ان غالة وحدها شهدت بين سنتى ٢٥٧ — ٢٧٣ خمسة أباطرة ! وحتى عندما حاول دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤—٣٠٥) اعادة الهيبة الى المنصب الامبراطورى ، وايجاد نظـــام بديل عن هـــذه الفوضى ، فى اطار اصلاحاته السياسية ، وأقدم على اتخاذ النظام الرباعى لادارة الامبراطورية ، لم يلبث هذا النظام أن لقى حتفه بعد اعتـــزال دقلديانوس عام ٣٠٥ بسنه واحدة ، وعادت الفوضى من جديد لتشـــهد

---

(142) Lindsay, Byzantium, p. 55.

الامبراطورية على عرشها فى عام ٣٠٨ ستة أباطرة ! وكان لابد أن ينهار النظام الرباعى ، لأنه اعتمد أساسا على شخص واضعه ، ولم يرتكز على قاعدة سياسية معينة • وعادت الحرب الأهلية من جديد ، تشغل قاعدة الفيالق الرومانية طوال ثمانية عشر عاما (٣٠٦—٣٢٣) حتى انتهى الأمر بانفراد قسطنطين بالسلطة [١٤٣] •

وحتى قسطنطين نفسه،كان اختياره للعرش عام٣٠٦ على « يد الفيلق الرومانى فى بريطانيا » فى السنة التى أعلن فيها الحرس الامبراطورى اختيار ماكسنتيوس امبراطورا فى روما • غير أن قسطنطين بذكائه السياسى نجح فيما فشل فيه أسلافه ، من اقرار نظام ثابت لاعتلاء العرش الرومانى ، وهو ما كانت تفتقر اليه الامبراطورية منذ سنى عمرها الأولى، أى منذ جرد السناتو عمدا من ممارسة اختصاصاته فى هذا السبيل ، وانتقل الأمر الى الجيش ، وأمست الحال الى فوضى • وعلى الرغم من أن الامبراطورية كانت تحكم منذ عصر أوغسطس أوكتافيانوس حكما استبداديا ، الامبراطور فيه صاحب السلطة المطلقة ، حتى وان كان هذا الاستبداد مقننا زمن أوغسطس بمقتضى السلطات الاستثنائية التى خلعها عليه مجلس الشيوخ ، الا أن أحدا من الأباطرة لم يكن قادرا على المجاهرة بالتخلى عن التقاليد الجمهورية القديمة ، حتى وان استطاع بعضهم ذلك ، لكنه لم يكن القاعدة ، أعنى بذلك مبدأ وراثة العرش • ومع أنه كان مرفوضا باعتباره خروجا على التقاليد الجمهورية الرومانية ، الا أننا نجده قائما مثلا فى أسرة سفروس وأسرة الأنطونيين • وان لم يمثل ذلك قاعدة معترفا بها ، حتى أن دقلديانوس نفسه ، عندما أقدم على اقرار النظام الرباعى ، ابتعد عن مسألة الوراثة تماما [١٤٤] •

---

(١٤٣) للمزيد من التفاصيل عن أحداث هذه الفترة ، ودور الجيش فيها ، راجع كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الأول •

(١٤٤) فى اطار هذا النظام كان دقلديانوس يعتبر الامبراطور أو السيد الأول ، وقد اختار عام ٢٨٦ ماكسيميانوس زميلا له فى النصف الغربى ، وحمل كل منهما لقب أوغسطس • وفى عام ٢٩٣ اكتمل هيكل الحكومة الرباعية ، =

لذا أقدم قسطنطين وقد تمثل له كل هذا ، على اقرار مبدأ وراثة العرش الرومانى ، طريقا لاختيار الامبراطور الجديد ، وسبيلا لايجاد الاستقرار السياسى فى الامبراطورية ، وان ظل مبدأ اختيار الامبراطور قائما من الناحة النظرية تقليدا رومانيا • ومن ثم فانه عمد قبل وفاته الى اعلان أبنائه الثلاثة قياصرة ، وقسم فيما بينهم ادارة الحكم فى الامبراطورية ، وتدعم هذا أيضا باتباع الامبراطور ثيودوسيوس الأول له (٣٣٨—٣٩٥) ، عندما عهد الى ولديه أركاديوس Arcadius وهونوريوس Honorius بادارة شئون الحكم فى الامبراطورية من بعده •

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أضفى قسطنطين على منصب الامبراطور نوعا من القداسة ، اذ لم يعد مقبولا فى ظل تحول الامبراطورية الى المسيحية ، أن يظل الامبراطور مؤلها ، ولا أن يحمل لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus ومن ثم فليحل « الأسقف الأعلى » محل الأخير[١٤٥] ومع أن هذا اللقب — أعنى « الأسقف الأعلى » ليس موجودا من الناحية الرسمية ، الا أن الامبراطور راح يمارس سلطات كل هذا اللقب فوق أساقفة الكنيسة ، التى غدت فى بيزنطة دائرة من دوائر الحكومة ، وغدا قسطنطين بقلم يوساب القيسارى ، مؤرخ الكنيسة ومداح الامبراطور ، الحوارى الثالث عشر للمسيح ، بعد

عندما عين دقلديانوس مساعدين ، أحدهما فى الشرق هو جاليريوس ، وثانيهما فى الغرب هو قسطنطيوس وخلع على كل منهما لقب قيصر ، فلما كان عام ٣٠٥ وأعلن دقلديانوس وزميله اعتزالهما ، وارتقى القيصران الى مرتبة الأوغسطسية ، تم اختيار قيصرين جديدين هما ماكسيمين دايا فى النصف الشرقى ، وسفروس فى النصف الغربى • وغض الطرف تماما عن ماكسنتيوس ابن ماكسيميانوس وقسطنطين بن قسطنطيوس ، اللذين نادت بهما الجنود بعد ذلك امبراطورين ، راجع للباحث الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الثانى •

(١٤٥) من المعروف أن لقب الكاهن الأعظم ظل الأباطرة يحملونه رغم تحولهم الى المسيحية صراحة ابتداء بأبناء قسطنطين ، الى أن تخلى عنه الامبراطور جراتيان Gratianus فى سبعينيات القرن الرابع •

أن خلع هو على نفسه صفة « مبعوث العناية الالهيـــة »[١٤٦] ، ولقيت النظرية اليوســـابية ، التى بشرت بامبراطورية مسيحية ، نجـــاحا زمن قسطنطين ، ورواجا على عهد خلفائه ، بحيث أضحت « القيصرية البابوية » Caesropapism عنوانا على السلطة الامبراطورية فى بيزنطة ، وليمسى الامبراطور بكل المعايير « نائب المسيح » على الأرض ، وهى القاعدة التى حاول جوستنيان ارساءها بكل قواه ، وراح يركز عليها دائما فى معظم تشريعاته التى صاغها له الفقيه ورجل القانون الشـــــهير تريبونيان •

كان هذا كله ماثلا فى ذهن الحرس الامبراطورى ، كما كان ماثلا فى ذهنه أيضـــا أن الامبراطورية قد شهدت بمقتضى نظام قســـطنطين السياسى وحتى الآن أسرتين فقـــط ، هما أسرة قســــطنطين وأسرة ثيودوسيوس ، وأنها منذ وفاة ثيودوسيوس الثانى عام ٤٥٠ وحتى سنة ٥١٨ ، أى قرابة ثلاثة أرباع قرن الا قليلا ، وهى تحكم بأفراد لا ينتمون الى أسرات بعينها ، وليس لهم أصول اجتماعية مرموقة ، ولم يكون أحدهم أسرة تتوارث العرش[١٤٧] • ولم يغب عن ذهن العسكريين أنهم ساهموا بدور ما فى صنع هذه الأحداث خلال هذه الثمانى والستين سنة ، وأملوا أن يعود اليهم دورهم القديم قبل أن يضع قسطنطين قاعدة وراثة العرش الامبراطورى ، وقبل أن يقدم جوستنيان على أن يمكن لهذا النظـــام فى الأرض بشكل قانونى • لهذا كان طبيعيا أن يقف الجنود هذا الموقف المتسم بالسلبية الكاملة ازاء ما يجرى لامبراطورهم « انتظارا لما تســـفر عنه الأحداث فى المستقبل » ، حسب تعبير بروكوبيوس ، لأنهم بتعبيره أيضا

---

(١٤٦) يمكن أن نطالع رسائل قسطنطين الى الأساقفة ، ورسالته الى ملك فارس ، وهى مبسوطة كلها فى كتاب « حياة قسطنطين Vita Constantini » الذى وضعه يوساب فى مدح الامبراطور ، ورفع فيـــه قسطنطين الى عليين • وقد بسطت هذه الآراء تفصيلا فى الأجزاء الثلاثة ، الثانى والثالث والرابع ، التى صدرت من كتابنا : الدولة والكنيسة •

(١٤٧) هؤلاء الأباطرة على التوالى هم : مارقيان ، ليو الأول ، زينون ، باسيليسكوس ، ثم زينون مرة أخرى ، فأنسطاسيوس ، ثم جوستين •

« كانوا قد عزموا على عدم الانحياز لأى من الطرفين ، حتى يتبين بصورة واضحة رجحان كفة أى منهما » [١٤٨] •

ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا فى خضم هذا العـرض للدوافع والظروف التى قادت الى ثورة القسطنطينية هذه ، العامل الشـخصى أحيانا ضمن هذه الدوافع • فالسناتو لم ينس مطلقا أن جوستنيان وهو بعد وليا للعهد ، راود خاه جوستين عن القانون الذى يحرم زواج لاعبات المسرح من أعضاء مجس الشيوخ ، وما زال يراوده حتى ألغاه ، ليتسنى له الاقتران بأشهر لاعبـة للمسرح فى بيزنطة ، ثيـودورا • ولم يلق جوستنيان بالا لكل ما قيل عن امرأة لاكت الألسن سيرتها حتى اضطرتها الى هجران دنيا العاصمة ، الى الشرق ثم الى ليبيا ، ثم لتعـود الى القسطنطينية ، تعكف على مغزلها ، وصمم على أن يجعل من ثيودورا امبراطورة متوجة ، ليس فقط امبراطورة شريكة ، بل امبراطورة فعلية تجلس على عرش العالم الرومانى • هـكذا ارتقت ثيودورا ، الممثـلة المتوجة ، بتعبير شارل ديل ، من كواليس المسرح الى عرش القياصرة [١٤٩] • وكان على جميع الطبقات وفى مقدمتهم رجال السناتو ، بل والاكليروس ، أن يحنوا هاماتهم أمام هذه « الممثلة المتوجة » • أما الجموع التى كانت تلتهب بالتصفيق أكفها لرقصات مبتذلة خليعة كانت ثيودورا تؤديها من قبل على المسرح ، كان عليها الآن أن تهتف باسمها بكل الولاء والتبجيل ، وتمد أيديها ترجو عفوتها ورعايتها ، أليست مقدسـة !! بل كان على رجـال الاكليروس أن يخروا أمامها ركعا ، ويدعونها « السيدة •• صـاحبة العصمة •• صاحبة الجلالة » • وليس هناك كاهن مسيحى واحد ــ كما يقول Hodgkin ــ أبدى احتجاجه على هذا التملق المخزى ! [١٥٠] •

ولعل ما أقدم عليه رهبان دير كونون من استخلاص الرجلين من يد الجلاد ، بعد نجاتهما من عملية الشنق ، وحمايتهم لهما فى كنيسة سان

(148) PROCOP. bel. Pers. I. XXIV, 45.
(149) Diehl, Theodora, Empress of Byzantium, p. 1.
(150) Hodgkin, Italy and her Invaders, III, p. 545.

لورانس ، ورفض تسليمها لجنود والى المدينة يودايمون ، الذين فرضوا حصارهم على الكنيسة ، لعل هذا التصرف يعد تعبيرا عن حالة الامتعاض من جانب الرهبان ، خاصة اذا علمنا أن الامبراطور جوستنيان كان قد تدخل بصورة سافرة فى تنظيم حركة الرهبنة ، ونشاطات الأديرة ، وطرق انشائها وتنظيمها ، وأصدر فى ذلك عددا من التشريعات المتعلقة بصميم الحركة الديرانية • وعلى الرغم من أن هدف جوستنيان كان انتشال الأديرة من الفساد الذى تردت فيه ، الا أن ذلك لم يشفع له عند الرهبان الذين عدوا قراراته تدخلا سافرا فى شئونهم[١٥١] •

ولم يكن نساء الطبقة الراقية فى العاصمة ، أقل حقدا من أزواجهن وحسدا ، على السيدة الأولى فى الامبراطورية ، التى ارتفعت من أزقة القسطنطينية ، والتى لم تكن سوى ابنة حارس الدببة فى الهبدروم ، الى عرش القياصرة • وكان عليهم الآن أن ينحنين أمامها فى حفلات الاستقبال الرسمية • لذا لا نعجب اذا رأينا المؤرخين المعاصرين حدثوننا عن اشتراك بعض نسوة هذه الطبقة الراقية فى الثورة ، خاصة ابان الأيام الثلاثة للحرب الأهلية[١٥٢] •

هكذا تجمعت كل هذه العوامل الاقتصادية والعقيدية والسياسية لدى السناتو والجيش ، وكذا الشخصية ، لتصنع ثورة القسطنطينية عام ٥٣٢ • لم تكن مجرد مؤامرة دبرها الاخوة الثلاثة أبناء أخ أنسطاسيوس ، بروبوس وبومبى وهيباتيوس ، وقدموا الرشوة للثائرين ، كما يصورها المؤرخ المعاصر القومس ماركللينوس[١٥٣] Marcellinus Comes والذى كان ينتمى بولائه للقصر ، متعاطفا مع النظام القائم ، ولم تكن فقط

---

(151) IUS. Nov. CXXXIII.

(152) ZONAR. epit. XIV, 6; PROCOP. bel. Pers. I, XXIV, 6.

(١٥٣) أعد بيورى دراسة قيمة تحت عنوان The Nika Riot لم يناقش فيها الثورة وملابساتها ودوافعها ، لكنه اهتم بمقارنة كتابات المؤرخين المعاصرين عنها ، ومدى التشابه والاختلاف بين كل منهم • راجع هذا المقال القيم فى (JHS. 17, 1897, pp. 92-119)

مجرد احتجاج على جشع وسوء ادارة يوحنا الكبادوكى المالية ، كما يجمع بروكوبيوس ويوحنا الليدى وزكريا المتلينى ، على النحو الذى أوضحنا من قبل • ولم تكن « ثورة مونوفيزيتية » فحسب كما صورها « باكر » BaKer [١٥٤] ، ولم يكن هدفها الوحيد فقط هو جوستنيان أو تغيير الأسرة الحاكمة كما يذهب بيورى [١٥٥] لأن الاطاحة بجوستنيان جاءت نتيجة طبيعية لفشله فى علاج الأمور ، وليس سببا فى قيام الثـــورة نفســـها [١٥٦] •

وليس أصدق فى وصف هذه الثورة مما لخصه المؤرخ المعاصر يوحنا الليدى بقوله : « لقد نظمت هذه الثورة بيد كل العناصر الســـــاخطة التى كانت تموج بها العاصمة » [١٥٧] ، كبار الملاك والفلاحون ، كبـــار التجار والحرفيون ، المثقفون والمحامون ، اليهود والوثنين ، المانويون والســـامريون ، المونوفيزيتيون والاريوسيون ، الســـناتو والحـــرس الامبراطورى ، والنساء • ومن هنا جاءت تســـميتى لها منذ البـــداية بـــ « الثورة الشعبية » • ولم أعن بها ما قد يتبادر الى الذهن للوهلة الأولى ، عامة الشعب وجموع رجل الشارع ، بل قصدت عمدا جميع فئات الشعب التى احتوتها القسطنطينة ، على النحو الذى شكا منه جوستنيان فى احدى تشريعاته •

لم تكن الثورة تستهدف الجالس على العرش ، بل كانت تستهدف العرش نفسه ، لم تكن تبغى الاطاحة بحكومة جوستنيان ، بل كانت تود القضاء على نظام الحكم نفسه ، ذلك النظام الذى وضعه قسطنطين فى ثلاثينيات القرن الرابع ، ويمكن له الآن فى الأرض ، بقوة القانون وسلطان القداسة ، « نيابة عن المسيح » ، جوستنيان ، دون اعتبار للســــناتو والجيش ، ألم يعلن ذلك صراحة فى قوانينه ، بأنه يستمد سلطانه من الله

(154) Baker, Justinian, p. 87.
(155) Bury, Later Roman Empire, II, p. 42.
(156) Cameron, Circus Factions, p. 280.
(157) IOAN. LYD. de magist. III, 72.

وحده ، ولس من السناتو أو الجيش ؟ لقد كانت الامبراطورية تمر بفترة انتقال وتحول من عصر روماني الى عصر بيزنطى ، على امتداد القرون من الرابع الى السابع ، تختلط الأفكار وتموج الآراء وتتصارع النظم ، بين تراث يونانى رومانى قديم ، ومبادىء عقيدة مسيحية ، وفلسفات يونانية سائدة ، ونظام سياسى فى محك التجربة • ولم يكن من السهل على كبار الملاك أن يتنازلوا عن سلطانهم الذى حققوه خلال فترات القرن الثالث والرابع ، عندما أصبحت الملكيات الكبيرة عصب النظام الاقتصادى الرومانى • ولم يكن من اليسير على الجيش أن يتخلى طواعية عن ادعاء بحق مارس به لعبة السياسة زمنا ليس قصيرا • ولم كن مقبولا لدى السناتو أن يرى عرش سلطانه يهتز والى الأبد ، ليصبح مجرد صورة معلقة على جدران الزمن ، دون أن يصارع من أجل البقاء •

لقد كانت الثورة بكل عناصرها الساخطة التى شاركت فيها ، تعبيرا عن الصراع الذي يعتمل بين هذه التيارات جميعها ، فى مرحلة التحول من العصر الرومانى الى العصر البيزنطى ، بكل مفاهيمه ونظمه السياسية والاقتصادة والعسكرية والعقيدية والثقافية ، ومحاولة أخيرة لم تشهدها الامبراطورة من بعد على امتداد تاريخها ، لأن كل ما حدث من تمرد ضد السلطة الامبراطورية من بعد ، على امتداد تاريخ الابراطورية ، كان موجها ضد الجالس على العرش فقط ، ولكن فى ظل النظام القائم •• ولم يكن هدفه الاطاحة بالنظام كله ، كما كان الطابع المميز والفريد للثورة الشعبية فى القسطنطينية عام ٥٣٢ •

المصادر والمراجع

أولا — المصــادر

— CSHB : Corpus Scriptorum Historaiae ByZantinae.

— CHRONICON PASCHALE, in CSHB, 2 vols. ed. L. Dindorf, Bonn 1832.

— CONSTANTINUS PORPHYROGENITUS : De A dministrando Imperio, trans. by R. J. H. Jenkins, Budapest 1949.

— EVAGRIUS, Historia Ecclesiastica. London 1854.

— IOANNES LYDUS, De Magistratibus, in CSHB. ed. I. Bekkeri, Bonn 1837.

— IOSHUA THE STYLITE, Chronicle, trans. by w. wright, Cambridge 1882.

— IUSTINIANUS,

— Codex Iustinianus, traduction, Tome Premier, Paris 1806.

— Digesta, trans. by C. H. Monro, 2 vols. Cambridge, 1904-1909.

— Novellae, traduction, 2 tom. Paris 1811-1812.

— LACTANTIUS, De mortibus Persecutorum, in Ante Nicene Fathers, ed. A. Roberts and J. Donoldson, Michigan, S. D.

— MALALAS, Chronographia, in CSHB. ed. L. Dindorf, Bonn 1831.

— MARCELLINUS Comes, Chronicon, in P. L. vol. LI, ed. Migne, Paris 1846.

— PROCOPIUS, Historia arcana, trans. by G. A. Williamson, London 1966.
De Bello Persico, trans. by H. B. Dewing, in 2 vols. London 1914.

— SOZoMENOS, Historia Ecclesiastica, in Nicene Fathers, vol. II, ed. philip Schaff and H. wace, Michigan 1891.

— THEIDORETUS, Historia Ecclesiastica, in Nicene Fathers, vol. III, ed. Philip Schaff and H. wace, Michigan 1891.

— THEOPHANES, Chronographia, in CSHB, 2 vols. ed. I. elassen, Bonn 1839.

— ZACHARIAH of MITYLENE, The Chronicle, trans. by F. J. Hamilton and E. W. Brooks, London 1899.

— ZONARAS, Epitomae Historiarum, in CSHB. 3 vols. ed. M. Pinder and TH. Buttner- wobst. Bonn 1897.

ثانيا – المراجع

— Baker. (G. P.), Justinian, London 1932.

— Bury (J. B.), History of the Later Roman Empire, 2 vols. London 19931.

The Nika Riot, in JUS, XVII, 1897.

— Cameron (A.), Circus Factions; blues and greens at Rome and Byzantium, Oxford 1976.

— Demes and Factions, in Byzantinische Zeitschrift, 1974.

— Heresies and Factions, in Byzantion, XLIV, 1974.

— Diehl (Ch.), Byzantium : Greatness and Decline, trans. from the French by Noami walford, New Brunswick 1957.

— Theodora, Empress of Byzantium, New York 1972.

— Downey (G.), Constantinople in the Age of Justinian, Oklahoma 1960.

— Hodgkin (TH.), Italy and her Invaders, vol. III, Oxford 1896.

— Holmes (W. G.), The Age of Justinian and Theodora, 2 vols. London 1912.

— Jarry (J.), Hérésies et Factions dans L'Empire Byzantin, du IV, au VII, Siecle, Le Caire 1968.

— Jones (A. H. M.), Constantine and the Conversion of Europe, London 1948.

— The Later Roman Empire, 3 vols, Oxford 1964.

— Kolbert (C. F.), The Digest of Roman Law, Penguin Book, 1979.

— Lindsay (J.), Byzantium into Europe, London 1952.

— Manojlovic (G.), Le Peuple de Constantinople, in Byzantion XI, 1936.

— Stein (E.), Histoire du Bas-Empire, Tome 2, Paris 1950.

— Ure (P. N.), Justinian and his age, Pengui Book 1951.

— Vasiliev (A.A.), A history of the Byzanine Empire, 2 vols, Madison and Milwauke 1964.

— Vryonis., Byzantine Circus factions and Islamic Futwa organizations, in Byzantinische Zeitschrift, LVIII, 1965.

— بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، القاهرة ١٩٥٧ .

— رأفت عبد الحميد (دكتور) : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى : قسطنطين ، القاهرة ١٩٨٢ — الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث : أثناسيوس ، القاهرة ١٩٨٣ — الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع : ثيودوسيوس وأمبروز ، القاهرة ١٩٨٤ .

— هسى (ج. م) : العالم البيزنطى ، ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد ، القاهرة ١٩٨٤ .

— وسام عبد العزيز (دكتور) : أضواء على مجتمع القسطنطينية ، دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، مجلة كلية الآداب — جامعة المنصورة — العدد الخامس .

— ويلمان (بول) : ثيودورا ، جزءان ، ترجمة ونشر دار الروائع ، بيروت ١٩٦٥ .

الاتباع والسادة
دراسة فى ظاهرة التبعية الشخصية
فى العصر البيزنطى الأوسط

دكتور/ وسام عبد العزيز فرج
كلية الآداب ــ جامعة المنصورة

كانت الامبراطورية البيزنطية دولة مركزية متعددة الموارد من دول العصور الوسطى • وكانت السلطة وأمور الحكم تتركز فى شخص الامبراطور الذى كانت سلطاته مطلقة من الناحية النظرية والعملية على حد السواء[1] • وكان يعاون الامبراطور ويعمل فى خدمته جهاز ادارى متكامل على رأسه عدد من كبار الموظفين الذين شغلوا المناصب وحملوا الألقاب المميزة ، ويليهم فى التسلسل الوظيفى موظفو الادارات المختلفة فى ترتيب دقيق • وكان لكل منصب صلاحيات محددة كما كان لكل موظف لقب يحدد مكانته بدقة فى مراسم القصر الرسمية • لقد تميزت الامبراطورية بهذا الجهاز البيروقراطى ، وبفضله كانت الادارة البيزنطية متفوقة على ادارات الكيانات السياسة الأخرى فى أوربا العصور الوسطى • ورغم التغير المستمر لشخص الامبراطور تميزت الادارة الامبراطورية بالثبات والاستقرار والاستمرار ، فهرم المناصب والألقاب استمر طوال تاريخها وان دخلت عليه بعض لاضافات والتعديلات كما استمرت المراسم الرسمية للاداء الحكومى • وبفضل هذا الجهاز البيروقراطى الادارى نجحت الامبراطورية فى تجنب الوقوع فى الفوضى فى كثير من الأحيان[2] •

---

(1) Jones, LRE, I, 321; Mango, Byzantium, 32.

(٢) قارن : Bréhier, Institutions, 168.

لقد حاول أباطرة بيزنطة مرارا العمل على نقل التاج لخلفائهم وتأمين التعاقب على العرش من بعــدهم وذلك بتعين الواحــد منهم امبراطورا مشاركا له خلال حياته ، ورغم ذلك لم تنجح أية أسرة حاكمة فى الاحتفاظ بالعرش الامبراطورى لفترة طويلة • فمعظم الأسر حكمت لفترات معينة من الزمن وشهدت نهايتها على يد شخص دخيل من خارجها نجح فى اعتلاء العرش الامبراطورى وبدأ تأسيس أسرة جديدة • وربما لا يجوز أن نطلق على هؤلاء الدخلاء مغتصبين للتاج لسببين : الأول أن الامبراطورية البيزنطيةكامتداد للامبراطورية الرومانيةلم تكن ، من الناحية الدستورية ، امبراطورية وراثية بل انتخابية ، وسعود لحدث عن هذه النقطة بعد ذلك • والسبب الثانى أن الســلطة الامبراطورية فى الدولة الرومانية وصل اليها أولا جوليوس قيصر Julius Caesar ثم اكتافيانوس أغسطس Octavianus Augustus بعد صراع وتنافس مع آخرين وفى النهاية فاز بها الشخص الأكثر كفاءة والأوفر حظا[٣] • ومنذ القرن الثالث الميلادى أصبح فى امكان أى طامع فى التاج الامبراطورى الفوز به طالما كان قادرا على ترجمة طموحه الى حقيقة واقعة مهما كان أصله أو بيئته الأولى • فالنجاح يكسب الثورة الشرعية[٤] • وعلى هذا فان نجاح رجل قدير من بيئة فقيرة فى الفوز بالتاج واعتلاء العرش الامبراطورى لايعتبر فقط ظاهرة مألوفة فى التاريخ البيزنطى ، بل انه أيضا حدثا لا يتعارض مع التقاليد السائدة فى الامبراطورية[٥] • فالمجتمع البيزنطى كان مجتمعا مفتوحا يسمح للفرد الذى يملك المواهب بالارتقاء الاجتماعى حتى القمة مهما كان أصله أو بيئته الأولى •

ان استعراض الظروف التى أدت بالبعض الى الارتقاء الاجتماعى واعتلاء العرش الامبراطورى فى العصر البيزنطى الأوسط تقودنا الى

---

(3) Toynbee, Constantine, 12-13.

(٤) اذا فشلت ثورة الطامع فى العرش فانه ينال عقوبة الموت ، أما اذا نجح فان انتصاره دليل على أن الرب قد تخلى عن الامبراطور المخلوع ، انظر : Ensslin, Government, 6.

(5) Toynbee, Constantine, 13.

ظاهرة التبعية الشخصية أو جماعات الاتباع والسادة فى المجتمع البيزنطى •

ولتوضيح ذلك يجب أن نبدأ بمثال تاريخى ونتناوله بالتفصيل ، ولهذا سنبدأ بالظروف التى أدت الى اعتلاء باسيل المقدونى (٨٦٧ — ٨٨٦) العرش الامبراطورى •

كان الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ — ٨٦٧ م) آخر ممثلى الأسرة العمورية التى أسسها الامبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩) • وكان ميخائيل الثانى وابنه ثيوفيل Theophilus (٨٢٩ — ٨٤٢) من أنصار تحريم وتحطيم الصور والايقونات • وبعد وفاة ثيوفيل قامت أرملته تيودورا Theodora — والدة الامبراطور ميخائيل الثالث — بمخالفة سياسة زوجها الراحل وقررت تغير الأوضاع والعودة الى تقليد عبادة الصور والايقونات سنة ٨٤٣م[٦] •

وتولت ثيودورا مع عدد من كبار موظفى الحكومة البيزنطية وعلى رأسهم ثيوكتيستوس Theoctistus[٧] ، ادارة الامبراطورية فى شكل مجلس وصاية على ابنها الصغير ميخائيل الثالث الذى كان فى الثالثة من

---

(٦) عن الخطوات التى اتخذتها ثيودورا للعودة الى عبادة الصور والايقونات فى مارس سنة ٨٤٣ ، انظر :

Theoph. Cont., 148-160.

وانظر أيضا :

Dvornik, Iconoclasm, 72-74; Mango, Liquidation, 133; Ostrogorsky, State, 194-195; Jenkins, Imperial Centuries, 154.

(٧) كان ثيوكتيستوس Theoctistus يشغل منصب السكرتير الامبراطورى وحامل محبرة الامبراطور ثيوفيل • وفى أواخر عهد ثيوفيل أصبح يشغل أيضا منصب اللفثيت Logothetes Tou Dromou جانب منصبه الأول • ويعتبر منصب اللفثيت من أرفع المناصب فى القصر الامبراطورى ويتولى صاحبه مسئولية توجيه السياسة الامبراطورية والشئون العامة كما يلعب الدور الرئيسى عند استقبال السفراء الأجانب ، للمزيد عن هذا المنصب انظر :

Bury, Admin. System, 91-93.

عمره • واحتاج الأمر الى انقلاب داخل القصر لانهاء هذه الوصاية سنة ٨٥٦ • وكان عمر ميخائيل الثالث فى ذلك الوقت سبعة عشر عاما ، وكانت علاقته بأمه ثيودورا قد ساءت بسبب القيود التى فرضتها على حريتها وحياته الشخصية(٨) •

ولا شك أن نجاح هذا الانقلاب يرجع الى براعة وطموح برداس Bardas شقيق الامبراطورة الأم وخال ميخائيل الثالث ، أكثر مما يرجع الى جهود ميخائيل الشخصية • وعلى الفور حل برداس محل ثيوكتيستوس Theoctistus فى ادارة الحكومة البيزنطية لصالح ميخائيل الثالث الذى أعطاه سلطات واسعة ثم أذعم عليه بلقب قيصر(٩) • ويلاحظ أن ميخائيل الثالث لم يكن ميالا للعمل الروتينى الخاص بادارة الامبراطورية ، ولهذا كرس معظم وقته للصيد وركوب الخيل وحياة اللهو والمجون • وهكذا تولى برداس ادارة الحكومة البيزنطية لمدة عقد كامل امتد من سنة ٨٥٦ وحتى سنة ٨٦٥ ، وكانت هذه السنوات العشر واحدة من ألمع الفترات فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية(١٠) • ولكن فى ٢١ من ابريل سنة ٨٦٥ ، تخلص الامبراطور ميخائيل الثالث من برداس الذى أصبح عبئا ثقيلا عليه ، وذلك بقتله على يد رجل جديد هو باسيل المقدونى• وفى ٢٦ من مايو سنة ٨٦٦ م قام الامبراطور ميخائيل الثالث بالانعام

---

(٨) فمثلا فى سنة ٨٥٥ ، حين كان ميخائيل الثالث فى الخامسة عشرة وحين علمت والدته الامبراطورة بهذا الأمر قامت بقطع العلاقة بينهما لأنها رأت أن هذه الفتاة الى أصل ، وفرضت على ابنها الزواج من فتاة أخرى تدعى ليدوكيا ديكابوليتا Eudocia Decapolita • ولقد أثار هذا العمل حنق ميخائيل فأخذ يتطلع للتخلص من وصاية أمه ، انظر : من عمره ، ارتبط بعلاقة مع فتاة تدعى ايدوكيا انجرينا Eudocia Ingerina

Georg. Mon. Cont., 816.

وانظر أيضا :

Jenkins, Imperial Centuries, 159-160.

(99) Ostrogorsky, State, 198.

(10) Jenkins, Imperial Centuries, 160.

على باسل المقدونى بمنصب الامبراطور المشـــارك[11] • وفى ٢٣ من سبتمبر سنة ٨٦٧ قام باسيل المقدونى بقتل ميخائيل الثالث ولى نعمته ، وأصبح باسيل (٨٦٧ — ٨٨٦) امبراطورا منفردا وقام بتأسيس أسرة

---

(١١) بالنسبة لمقتل القيصر برداس Bardas اختلفت المصادر فى رواية دور باسيل المقدونى • فقد حرض الامبراطور قسطنطين الســـابع فى مؤلفه عن سيرة جده ، على تبرئة باسيل من جريمة قتل القيصر • كذلك كان حال المؤرخ المجهول الذى كتب الفصول الأربعة الأولى من كتاب صلة ثيوفانس بناء على أوامر قسطنطين الســابع • وطبقاً لهاتين الروايتين فان جريمة قتـــل القيصر برداس كانت من تدبير الامبراطور ميخائيل الثالث وبالاشتراك مـــع زوج ابنة القيصر ، وقام اتباع الامبراطور ميخائيل بتنفيذها ، انظر :

Vita Basilii Imperatoris, 235-238; Theoph. Cont., 204-206.

وبالطبع تخالف هذه هذه الرواية الحقيقة التى ذكرها الماجستير سيميون Sumeon Magister ونقلها عنه مؤرخون آخرون بعد ذلك • وتتلخص الحقيقة التى كرها سيميون فى أن باسيل المقدونى هو الذ خطط ونفذ قتـــل القيصر برداس بالاتفاق مع الامبراطور ميخائيل الثالث ، انظر :

Georg. Mon. Cont., 831; Les Grammaticus, 245.

وجدير بالذكر أن جزءا من النص اليونانى الخاص بحولية الماجســـتير سيميون والذى يغطى الفترة من سنة ٨١٣ وحتى سنة ٩٤٨ قد اقتبسه حرفيا كل من :

Leo Grammaticus, 207-331; Georg. Mon. Cont., 761-924.

بالنسبة لقيام الامبراطور ميخائيل الثالث بالانعام على باسيل بمنصب الامبراطور المشارك ، انظر :

Vita Basilii Imperatoris, 240.

وانظر أيضا :

Jenkins, Imperial Centuries, 166; Ostrogorsky, State, 206.

جديدة عرفت باسم الاسرة المقدونية[١٢] .

ان أغلب المؤرخين الذين وصفوا هذه الأحداث ينتمون للقـــــرن

---

(١٢) بالنسبة لجريمة قتل الامبراطور ميخائيل الثالث ، حرص قسطنطين السابع أيضا على تبرئة جده باسيل منها ، لذا نسب قتل ميخائيل الى الحرس الامبراطورى فى القصر بناء على أوامر صدرت لهم من كبار موظفى الحكومة والأعضاء البارزين فى مجلس السناتو ، انظر :

Vita Basilii Imperatoris, 254.

أما المؤرخ المجهول صاحب الفصول الأربعة الأولى من صلة ثيوفانس فقد ذكر رواية مشابهة تخدم نفس الغرض الا وهو تبرئة باسيل المقدونى من دم ميخائيل الثالث . فقد ذكر هذا المؤرخ المجهود ان ميخائيل الثالث حاول فى البداية اغتيال باسيل أثناء رحلة صيد مشتركة ولكنه فشل . وشاع هذا الخبر بين الناس ، وأدى قلق الكثيرين على حياة باسيل المقدونى ولهذا قام الحرس الامبراطورى بقتل ميخائيل بناء على رغبة السناتو أو بايعاز من اتباع باسيل ولكن دون علمه ، انظر :

Theoph. Cont., 210.

أما المؤرخ الثالث الذى حاول طمس الحقيقة أيضا فوهو جنســـــيوس Genesius الذى كلفه قسطنطين السابع أيضا بمهمة كتابة تاريخ لعصر جده باسيل وتبرئته من جريمة ميخائيل الثالث . ولقد روى جنسيوس رواية يغلب عليها السذاجة مؤداها أن العلاقات بين ميخائيل وباسيل ساءت بسبب وشاية من حولهما . وذكر أن ميخائيل حاول قتل باسيل أثناء رحلة صـــيد ولكنه فشل ، وحين حث بعض الاتباع باسيل على قتل الامبراطور رفـــض باسيل اقتراف مثل هذه الجريمة . ولهذا قام اتباع باسيل — دون علمـــه المسبق — بقتل الامبراطور لانقاذ باسيل من احتمال وقوعه ضحية لتدبير جديد من جانب ميخائيل الثالث يقضى عليه وعلى اتباعه ، انظر :

Genesius, 113.

أما الحقيقة فهى تلك التى ذكرها أيضا الماجستير سيمون ، وهى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن باسيل المقدونى هو الذى خطط وشارك فى تنفيذ جريمة اغتيال الامبراطور ميخائيل الثالث فى غرفة نومه وهو ثمل ، انظر :

Georg. Mon. Cont. 836-837;

Leo Grammaticus, 250-252;

Pseudo - Symeon, 684 - 685;

Konaras, III, 417.

العاشر الميلادى[١٣] • ويلاحظ أن وصفهم للأحداث افتقر فى بعض الأحيان الى الصدق لاختلاط هذا الوصف بالدعاية للاسرة المقدونية • لقد حرص هؤلاء المؤرخين على صبغ تاريخ الأسرة العمورية بلون قاتم[١٤] • وربما كان هذا مفهوما بالنسبة للامبراطورين الأولين من أباطرة هذه الاسرة ، فقد ادانتهما المصادر لسياستهما اللايقونية • أما الامبراطور ميخائيل الثالث ، الذى عادت باسمه عبادة الصور والايقونات فى مارس سنة ٨٤٣ ، فكان لابد من الحط من شأنه لتبرير الجحود الكبير ونكران الجميل الخاص بقاتله باسيل الأول مؤسس الاسرة المقدونية[١٥] • وكان الوجه الآخر لهذه الدعاية للاسرة المقدونية هو طلاء مسار حياة باسيل المقدونى بلون زاه تميز بالخصائص الاسطورية حتى اختلط الخيال بالحقيقة وأصبح من الصعب الفصل بينهما[١٦] • ويجب ألا ننسى أن الاسطورة لا تترعرع والخيال لا يكتمل الا فى اطار الفكر الاجتماعى السائد • فهو اطار صادق ومعاصر لاعتقاد الناس ، وتحرص الأساطير عادة على الاستفادة منه لتجعل من نفسها حقائق تاريخية •

---

(١٣) من هؤلاء المؤرخين انظر :

Ostrogorsky, State, 187-192; Jenkins, Scriptores Post Theophanem, 11-30.

(14) Jenkins, Scriptores Post Thesphanem, 18 and 22-23; Constantine, 542—583.

(15) Toynbee, Constantine, 5, 299—300, and 344;
Jenkins, Michael III, 71;
Moravcsik, Legenden, 61.

على اية حال حرص عدد من المؤرخين على اعادة تقييم عصر الامبراطور ميخائيل الثالث وابراز ايجابياته ، انظر مثلا :

Gregoire, Michel III et Basile le Macédonien, 327—346; Gregoire, Etudes, 515—550; Vasiliev, Russian Attack, 152—153.

(١٦) انظر :

Adontz, Basile I, 223—260 and 475—500; Moravcsik, Legenden, 59—126.

ويأتي على رأس هؤلاء المؤرخين الامبراطور قسطنطين السابع Constantine VII Porphyrogenitus (٩١٣ — ٩٥٧ م) ، حفيد باسيل الأول .

لقد كان الغرض الرئيسي وراء نشاط قسطنطين الأدبي ، رغبته في تقديم عرض جديد لسيرة جده باسيل المقدوني مؤسس الاسرة المقدونية تختفي فيه كل خطاياه وأخطاءه وأصله الوضيع[١٧] . وبعد أن كلف بهذه المهمة المؤرخ جنسيوس Genesius [١٨] ، ومن بعده المؤرخ المجهول الذي كتب الفصول الأربعة الأولى من المجلد الكبير المعروف بصلة ثيوفانس Theophanes Continuatus [١٩] ، قرر الامبراطور أن يتولى هذه المهمة

---

(17) Toynbee, Constantine, 582.

(١٨) وضع جوزيف جنسيوس مؤلفه بناء على أمر الامبراطور قسطنطين السابع كما يتضح في مقدمة الكتاب . وتتناول الفصول الثلاثة الأولى من هذا الكتاب الفترة الثانية من النزاع حول عبادة الصور والايقونات والتي تبدأ بعهد الامبراطور ليو الخامس الارميني Leo V (٨١٣ — ٨٢٠) .

أما الفصل الرابع والفصل الخامس من هذا الكتاب فيتناولان عهدي ميخائيل الثالث (٨٤٢ — ٨٦٧) وباسيل الأول (٨٦٧—٨٨٦) على التوالي . ولقد حرص هذا المصدر على تمجيد عهد باسيل المقدوني والحط من شأن ميخائيل الثالث . والمرجح أن جنسيوس وضع هذا المؤلف في الفترة من ٩٤٤—٩٤٨ . انظر :

Genesius, 103—113.

وانظر أيضا :

Toynbee, Constantine, 5, 183, and 582—585; Bury, Treatise, 574; Ostrogorsky, State, 130—187.

(١٩) لا تزال شخصية هذا المؤلف مجهولة . ولقد تناول هذا المؤرخ المجهول في الفصول الأربعة الأولي من المجلد المعروف (بصلة ثيوفانس) Theophanes Continuatus الفترة من ٨١٣ — ٨٦٧ . فتناول في الفصل الأول عهد الامبراطور ليو الخامس الارميني ، وفي الفصل الثاني عهد الامبراطور ميخائيل الثاني العموري ، وفي الفصل الثالث عهد الامبراطور ثيوفيل ، وفي الفصل الرابع عهد الامبراطور ميخائيل الثالث . والثابت أن الامبراطور قسطنطين السابع هو الذي أمر بكتابة هذه الفصول الأربعة =

بنفسه • فقام باعادة ما كتبه جنسيوس مرة أخرى ووضع مؤلفا عن سيرة حياة باسيل الأول • ويحتل هذا المؤلف الفصل الخامس فى مجلد صلة ثيوفانس[٢٠] • لقد كان هدف قسطنطين السابع وتعليماته الى من كلفهم بكتابة التاريخ ، العمل على اخفاء الحقيقة ، الأمر الذى يتناقض مع الصدق والامانة التى يجب أن يتحلى بهما المؤرخ • لقد أراد ببساطة اخفاء حقيقة الأصل الفقير لجده ، واخفاء جهله بالقراءة والكتابة ، وأهم من هذا وذاك التستر على حقيقة قيامه بقتل القيصر برداس بيده سنة ٨٦٥ ، وتخطيطه وتنفيذه لمؤامرة اغتيال الامبراطور ميخائيل الثالث سنة ٨٦٧[٢١] •

على أية حال ، ان الطريق الذى سلكه باسيل المقدونى حتى وصل الى السلطة يمكن أن يخدم موضوع هذه الدراسة لأنه يلقى الضوء على أهمية التبعية الشخصية فى الارتقاء الاجتماعى •

والمرجح انه اشرف على اخراجها • وحرص المؤرخ المجهول هنا ، مثله فى ذلك مثل جنسيوس ، على تنفيذ أوامر قسطنطين السابع الخاصة بالحط من شأن ميخائيل الثالث وتمجيد عهد باسيل الأول فضلا عن تبرئته من جريمتى قتل القيصر برداس سنة ٨٦٦ ، والامبراطور ميخائيل الثالث نفسه سنة ٨٦٧ ، انظر :

Theoph. Cont., 1—211.

وانظر أيضا :

Jenkins, Scriptores Post Theophanem, 13, 19; Toynbee, Constantine, 5, 582 ff.

(٢٠) والمرجح ان قسطنطين كتب بنفسه سيرة جده باسيل حوالى سنة ٩٥٠ ، انظر :

Vita Basilii Imperatoais, 211—353.

وانظر أيضا :

Jenkins, Scriptores Post Theophanem, 11—30;

Btry, Treatise, 571—575;

Toynbee, Constantine, 575—580.

(21) Tonbee, Constantine, 582.

ولد باسيل المقدونى فى بلدة خاريوبولس Charioupolis التى تقع بالقرب من مدينة أدرنة Adrianupolis فى تراقيا Thrace ، وعرف بالمقدونى لأن بلدته كانت تتبع اداريا ثيم مقدونيا[٢٢] • ولا شك انه كان ابنا لاسرة قروية معدمة ، فأبوه كان بالتأكيد فلاحا أرمينيا أما أمه غربما كانت قروية من أصل سلافى ، ولهذا كانت لغة باسيل الأصلية هى الارمينية[٢٣] • وكان باسيل أميا لم تهبه الحياة أكثر من قوة بدنية ومظهرا حسنا وذكاءا • وبهذه المواهب هجر باسيل بلدته عقب وفاة والده حوالى سنة ٨٥٦ متجها الى القسطنطينية للبحث عن الحظ[٢٤] • وكانت القسطنطينية كعاصمةللامبراطورية تمتلىء بالفرص والاحتمالات• ويلاحظ أن كاتب سيرة باسيل المقدونى افترض أن باسيل كانت لديه خطة واضحة منذ بداية وصوله الى العاصمة • فباسيل كان يريد الدخول فى تبعية سيد ذو شأن ومركز ونفوذ ليعمل فى خدمته بشكل أو باخر • وكان باسيل

---

(٢٢) لا ندرى على وجه التجديد متى ولد باسيل المقدونى • فطبقا لرواية حفيده قسطنطين السابع يقع تاريخ مولده خلال عهد الامبراطور ميخائل الأول رانجاب Michael I Rangabe (٨١١—٨١٣) ، لأنه كان طفلا رضيعا خلال هجوم خان البلغار كروم على أرنة سنة ٨١٣ م • انظر :

Vita Basilii Imperatoris, 216.

وانظر أيضا :

Adontz, Basile I, 478—482.

ولكن المؤرخ الانجليزى روملى جينكز Jenkins يذكر أن باسيل ولد سنة ٨٣٦ دون أن يحدد مصدره ، انظر :

Jenkins, Imperial Centuries, 165.

(23) Jenkins, Imperial Centuries, 165.

وانظر أيضا :

Adontz ,Basile I, 482—485.

(24) Vita Basilii Imperatoris, 225.

وانظر أيضا :

Jenkins, Imperial Centuries, 165;
Adontz, Basile I, 485.

يستهدف أولا تحقيق الامان المادى ثم الارتقاء الاجتماعى وأن يصبح هو نفسه ســيدا •

ولعله من الأفضل أن نتوقف قليلا أمام خطة باسيل هذه لنلقى نظرة على الاصطلاحات التى استخدمها كاتب سيرته • لقد أراد باسيل الالتحاق بخدمة أحد السادة Kyrios ، وهو سيد تنطبق عليه شروط معينــة اذ يجب أن يكون معروفا Emphanes وذو مكانة مرموقة Periphanes وأن يكون أحد الأقوياء Dynatos [٢٥] • ولا شك أن تعبير القوى ذو النفوذ يعطى للتعبيرات السابقة تحديدا اجتماعيا • فالرجل القوى Dynatos — كما يتضح من قوانين القرن العاشر الميلادى — هو رجل ذو مركز وأهمية ونفوذ فى المجتمع ، وهى أهمية ليــس لها أية علاقة بالثروة • فالعنصر المادى يأتى بعد ذلك ويؤدى فى النهاية الى أن يصبح الرجل القوى ذو النفوذ فى المجتمع «Dynatos» رجلا ثريا Plousios أيضا • ويمضى كاتب السيرة قائلا أن باسيل أراد أن يصـــبح تابعا Doylos فى خدمة هذا السيد[٢٦] •

وهنا يجب أن نؤكد أنه من الخطأ أن نفهم من هذا الرغبة فى التخلى عن الحرية الشخصية ، فالطريق الى الحظ والغد السعيد الذى يبحث عنه باسيل كان فى بيزنطة المسيحية لا يمضى عبر العبودية • فكلمة Doyleia تعنى علاقة الخدمة بين شخص حر بالكامل وبين سيد ، وأصبحت هــذه الكلمة فى وقت لاحق تصف خدمة أكبر موظفى الامبراطور ، حتى لو كان هذا الموظف تمت بصلة قرابة للامبراطور نفسه ، فهو خادم ســموه أو

Vita Basilii Imperatoris, 223.

(26) Vita Basilii Imperatoris, 223.

تابعه[٢٧] •

وهكذا أراد باسيل بالالتحاق بتبعية أحد السادة ذوى النفوذ فى العاصمة أن يحقق الارتقاء الاجتماعى وأن يصبح هو نفسه بعد ذلك سيدا له اتباع من أقاربه القرويين فى بلدته[٢٨] • فهل كانت هذه أحلام خيالية لشاب ريفى من الأقاليم ؛ بالطبع لا لقد كان كاتب سيرة باسيل على علم كامل بالاحتمالات الموجودة فى مجتمع عصره ولهذا تناول المصير المقبل لباسيل من البداية وادعى انه خطته التى هاجر من أجلها الى العاصمة • ولذلك ليس هناك ما يدعو الى الدهشة أن تتحقق هذه الاحلام •

---

(٢٧) اشارت المصادر البيزنطية مثلا الى القائد بطرس فوقاس الذى فتح مدينة انطاكية فى ٢٨ من أكتوبر سنة ٩٦٩ ، بانه تابع أو غــلام الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ــ٩٦٩) ، Ton tou Phoka doylon ، انظر :

Scylitzes, 315.

وكان بطرس فوقاس هذا ابنا للقربلاط ليو فوقاس شقيق الامبراطور نقفور ، انظر :

Schlumberger, Un Empereur, 709—710.

وعلى هذا فكلمة Doylos فى هذا النوع من علاقة الخــدمة أو التبعية لا تعنى العبد بل الانسان الحر Anthropos أو Homo فى مجتمع أوربا فى العصور الوسطى • أما الكلمة الشائعة بالنسبة للتابع الحر الذى يعمل فى الخدمة المنزلية فهى كلمة تابع الاسرة Oikeios • وهى تعنى الانسان الحر العامل فى خدمة وتبعية الاسرة ولكنه مرتبط بالاسرة بشــكل خاص Familiaris أو Domesticus • وكانت كلمة Oikeios تستعمل أيضا لوصف المقربين العاملين فى خدمة الامبراطور • للمزيد عن استعمالات هذه الكلمة ، انظر :

Theoph. Cont., 189.

وانظر ايضــا :

Dolger, Byzanz, 54 note 48.

قارن أيضا الاستعمالات الأخرى لهذه الكلمة فى المصادر البيزنطية ، فى:

Psaltes, Chronikes, 197.

(28) Vita Basilii Imperatoris, 221.

على أية حال ، وصل الشاب سعيد الحظ الى القسطنطينية ووجـد طريقه الى احدى الكنائس الصغيرة الواقعة فى ضواحى المدينة • وهناك وجد لدى راعى الكنيسة Prosmonaios حسن الاستقبال والدعوة للاقامة عنده ، لأن راعى الكنيسة — كما تروى الاسطورة — رأى رؤيا تنبىء باعتلاء هذا الباسيل العرش الامبراطور[٢٩] • وبعد وقت قصير قـرر الاثنان توطيد علاقاتهما بعقد رابطة أخوة الدم التى لا تنفصم ، أى انهما قاما بعقد طقس اخوة الدم adelphopoiia المحرم من قبل الكنيسـة والدولة ، وهو طقس تمتزج فيه دماء الطرفين فى تأكيد لرابطة اعتقـد الناس فى الماضى انها أقوى من كل روابط القرابة الطبيعية الأخرى[٣٠] •

وبعد عقد رابطة الاخوة هذه بدأ باسيل يحقق أحلامه •• فقد كان لراعى الكنيسة أخا طبيبا يعمل فى خدمة وتبعية أحد السـادة الأقوياء Dynatos[٣١] • وكان هذا الرجل ذو النفوذ يسمى ثيوفيل Theaphilus ولكنه كان يدعى ثيوفيل الصغير Theophilitzes لقصر قامته ، وكان يشغل منصب قائد الحاميـة المكلفة بالدفاع من أسوار القسـطنطينية Komes Ton Teicheon[٣٢] ، كما كان يمـت بصـلة قرابة للاسرة

---

(29) Vita Basilii Imperatoris, 223;
Genesius, 108—109; Scylitzes, 120—121.

وانظر ايضـا :

Maravcsik, Legendn, 91—95.

(٣٠) للمزيد عن هذه الرابطة القديمة ، انظر :

Michaelides-Nuaros, Adelphopoiia, 251—313.

وانظر ايضـا :

Dolger, Paraspora, 197 and note 12.

(31) Pseudo - Symeon, 656.

(32) Pseudo - Symeon, 655.

للمزيد عن ها المنصب واللقب ، انظر :
Guilland, Comte des Murs, 17—23.

العمورية[٣٣] . وكان ثيوفيليتزس Theophilitzes هذا حريصا على تأكيد مكانته ومركزه فى المجتمع ، ولهذا أحاط نفسه بجماعة من الانتباع من الشباب ذوى المظهر الحسن والقوة البدنية[٣٤] . وقام بالباسهم الفراء والحرير كما سلحهم واستخدمهم كحرس خاص به[٣٥] .

وطبقا للتقاليد السائدة كانت المجالات التى انشغل فيها هؤلاء الشباب هى المبارزة وركوب الخيل والصيد . وكان لهذه الجماعة من الاتباع قائد اتخذ لنفسه لقب Protostrator مقلدا قرينه فى القصر الامبراطورى[٣٦] . وبفضل مساعى راعى الكنيسة لدى أخيه الطبيب أصبح لباسيل مكانا فى جماعة اتباع ثيوفيليتزس Theophilitzes ، وبعد فترة قصيرة أصبح باسيل بفضل قوته البدنية ومهارته قائدا Protostrator لهذه الجماعة[٣٧] .

ان مسار هذه الأحداث يؤكد حقيقة أن المجتمـــع البيزنطى كان مجتمعا مفتوحا لا مكان فيه لطبقة اجتماعية خاصة متميزة ومنغلقة على

---

(٣٣) كان ثيوفيل الصغير هذا يعرف أيضا باسم Theophilidion كما كان يمت بصلة قرابة للامبراطورة ثيودورا وأخيها القيصر برداس ، انظر :
Vita Basilii Imperatoris, 224, 229.

(34) Vita Basilii Imperatoris, 225; Genesius, 109.

(35) Vita Basilii Imperatoris, 226.

(٣٦) Protostrator هو قائد الاتباع ، وكان هذا المنصب أحـــد مناصب القصر . وفى البداية كانت مهمة Protostrator مساعدة الامبراطور على ركوب فرسه ، ثم الركوب بجوار الامبراطور . ولكنه أصبح يؤدى أعمالا هامة أخرى فى القصر ، فأحيانا كان هو الذى يقوم بتقدير الزوار الأجانب الى حضرة الامبراطور بدلا من الموظف المختص بهذه المهمـــة والذى يحمل لقب Protospatharios . وفى العصر البيزنطى المتأخر ارتفع شأن هذا المنصب حتى أصبح واحدا من أهم المناصب التى يشغلها كبار موظفى القصر . للمزيد عن هذا المنصب ، انظر :

Bury, Admin. System, 117—118;
Oikonomidès, Préséance, 337—338;
Guilland, Recherches, I, 478—497.

(37) Vita Basilii Imperatoris, 225.

نفسها تفتخر بنسبها وعراقة أصلها • كذلك يبين مسار هذه الأحداث ان علاقة التبعية بين السيد واتباعه Oikeioi تختلف تماما عن علاقة العمل العادية التى تربط صاحب العمل بالعامل المأجور •

ومن الجدير بالذكر أن صورة باسيل فى هذه الرواية تختلف تماما عن صورة الصبى الذى يعمل فى حظيرة خيل أحد نبلاء العاصمة • وسيتضح هذا أكثر اذا واصلنا تتبع مسار حياته •

وطبقا لرواية كاتب السيرة سافر باسيل مع سيده ثيوفيليتزس فى مهمة رسمية الى شبه جزيرة البلوبونيز • وفى مدينة باتراس Patras يلتقى باسيل بالأرملة الثرية دانيليس Danielis (نسبة الى زوجها دانل Daniel) ، ويلمس منها الاعجاب بعد أن سمعت بنبوئه الطالع الحسن ، الذى ينتظر هذا الشاب ، من أحد الرهبان • وقامت الأرملة بمنح باسيل مبلغا كبيرا من الذهب فضلا عن هدايا ثمينة أخرى ، كما قامت بعقد رابطة اخوة الدم بين ابنها يوحنا وباسيل المقدونى(٣٨) •

واذا تناولنا هذه الرواية بالتحليل سنجد أن المال الذى قدمته الأرملة لباسيل لم يكن بسبب اعجابها به أو ميلها اليه ، بل لأن هذه الأرملة الثرية رأت فى هذا التابع لأحد أقوياء العاصمة شيئا آخر • لقد وجدته انه يصلح أن يكون ممثلا لها وراعيا لمصالحها فى العاصمة ولهذا حرصت على كسب وده(٣٩) • فباسيل فى نظر الأرملة الثرية يصلح أن يكون من

---

(38) Vita Basilii Imperatoris, 226—228;

Scylitzes, 121—123.

وانظر أيضا :

Moravcsik, Legenden, 96—97; Adontz, Basile I, 487.

(٣٩) قارن :

Vita Basilii Imperatoris, 228.

اتباعها ، وكانت خدمته لمصالحها وتبعيته لها تتطلب المقابل ولهذا منحته تلك الأموال • وبعد انتهاء مهمة سيده الرسمية فى البلوبونيز عاد باسيل الى القسطنطينية رجلا ثريا • والطريف أن باسيل عرج فى طريق عودته على بلدته واستثمر الأموال التى حصل عليها ، طبقا لوجهة النظر الاقتصادية السائدة فى عصره ، فى شراء ضيعة زراعية كبيرة فى بلدته بمقدونيا[٤٠] • وبهذا أصبح باسيل رجلا ثريا وانتمى بالتالى لفئة كبار ملاك الأرض الزراعية التى اصدر ضدها خلفائه على العرش بعد ذلك التشريعات الاجتماعية المعروفة فى القرن العاشر الميلادى[٤١] •

ويلاحظ أن كاتب سيرة باسيل أراد أن يجعل روايته متفقة مع روح العصر ، لهذا جعل مصدر ثروة باسيل مصدرا واحدا لا غبار عليه • فالرواية تبرر كرم الأرملة البلوبونيزية بنبوئة أحد الرهبان فى باتراس والتى تقول بأن هذا الباسيل سيصبح فى القريب العاجل Plousios امبراطورا[٤٢] • أما الحقيقة فربما كانت شيئا آخر ، فربما عرض باسيل على أثرياء آخرين أيضا بالعمل فى خدمة مصالحهم فى العاصمة وتسلم منهم مبالغ من المال لهذا الغرض • ولكن ذكر مثل هذه الاخبار يعطى انطباع الرشوة والفساد ، فالربط بين المعاملات المالية والسلطة كان لا يتمشى مع روح ذلك العصر • وكان حفيد باسيل حريصا فى كتابة سيرة جده على تصوير ارتقائه ثم اعتلائه العرش فى الصورة المثالية التى تتفقق والعقلية السائدة فى مجتمع عصره •

---

(40) Vita Basilii Imperatoris, 228; Scylitzes, 123.

وانظر ايضا :

Moravcsik, Legenden, 97.

(٤١) وسام : « قوانين الملكية الزراعية فى الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى : دراسة تحليلية » ، مقال منشور فى : ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، العدد الثانى ١٩٨٣ ، ص ٢٩٩—٣٤٢ •

(42) Vita Basilii Imperatoris, 228;
Moravcsik, Legenden, 96—97.

ان الانطباع الذى نخرج به من قراءة المصادر البيزنطية عن الحياة فى القسطنطينية فى القرن التاسع الميلادى يتلخص فى أن الفرصة كانت متاحة أمام الطبقات الدنيا للارتقاء وصعود الهرم الاجتماعى بسرعة اذا توفر للانسان الطموح الذكاء والقوة والمروة فضلاً عن بعض المال الذى كان له تأثير كبير على الناس فى العصور الوسطى • وكان يكفى أن يجد الانسان بيتا يلتحق به وسيدا ذو مركز ونفوذ راضى بمكانته الاجتماعية وليست له أية تطلعات ليعمل فى تبعيته ويستظل بظله • وكانت العلاقة بين السيد وتابعه تقوم على العمل والعطاء المتبادل ولكن ليس بمفهوم علاقة العمل الحديثة بل بمفهوم العلاقة القائمة على الثقة واحترام المكانة الاجتماعية • لقد كانت علاقة التبعية الشخصية مفتوحة تماما مثل كل المجتمع البيزنطى ، فهى مفتوحة الى أعلى : الى النفوذ والسلطة والى المال والثروة ، وتسمح للتابع أن يصبح بالتالى أحد الأقوياء Dynatos أو أحد الأغنياء • وكما ذكرنا كان هذا النمط من التبعية الشخصية بالنسبة لثيوفيليتزس Theophilitzes شيئا أراد به تأكيد أهميته ومكانته الاجتماعية •

وهنا تبادر الى الذهن السؤال التالى : هل كان هذا النموذج الذى قدمه ثيوفيليترس للسيد الذى يحيط نفسه بجماعة من الاتباع والمريدين حالة فردة ؟ لأنه اذا كان كذلك فلا جوز لنا أن نعمم هواية خاصة به •

يجيب المؤرخ جنسيوس Genesius على هذا السؤال حين يذكر وجود جماعة أخرى من الاتباع معاصرة لجماعة ثيوفيليتزس وكيف أن سيدا الجماعتين تنافسا فى احاطة انفسهما بالرجال ذوى المظهر الحسن والقوة البدنية والمهارة • وكان سيد هذه الجماعة الثانية هو الامبراطور ميخائيل الثالث نفسه[٤٣] • فجماعة الاتباع الثانية هى جماعة الخاصة التى أحاط ميخائيل الثالث نفسه بها والتى كانت تصرفاتها القبيحة وسلوكها السىء هو الذى برر حكم المصادر البيزنطية بالادانة على الامبراطور •

(43) Genesius, 109.

فالمصادر تتحدث عن جماعة من الصعاليك الذين جاءوا من أصول غامضة وافتقروا الى الاخلاق الطيبة والسلوك الحميد[٤٤] • ولنترك حكم المصادر عليهم ونقرر أن هذه الحاشية التى أحاط الامبراطور نفسه بها لم تضم العاملين فى القصر من الموظفين وحملة الألقاب حتى اذا اضطر بعض هؤلاء احيانا للاشتراك فى السهرات الماجنة لهذا الامبرطور الخليع[٤٥] •

والمعروف أن صيت باسيل المقدونى ذاع ذات يوم فجأة حين نجح فى القضاء على مصارع بلغارى عملاق فى احدى الولائم التى حضرها القيصر برداس وكبار رجال الدولة وسفراء بلغاريا[٤٦] • وتناقل الناس

---

(44) Theoph. Cont., 199—200;
Vita Basilii Imperatoris, 242—243.
Pseudo-Syfeon, 660—661.

(٤٥) يتضح هذا فى :

Theoph. Cont., 199.

بالنسبة لاشارات المصادر لميخائيل الثالث واسرافه فى تعاطى الخمر وتصرفاته الماجنة ، انظر :

Vita Basilii Imperatoris, 251.

وقارن أيضا :

Pseudo - Symeon, 662—663.

وانظر أيضا :

Jenkins, IQmperial Centuries, 165;
Jenkins, Michael III, 73;
Toynbee, Constanrine, 3, 19, 590 and 60î.

(٤٦) كان انتيجونوس Antigonus ابن القيصر برداس (وكان يشغل منصب القائد العسكرى للجيوش البيزنطية Domestikos ton Scholon هو صاحب هذه الوليمة التى عقدت فى احدى الصالات الملحقة بالقصر الامبراطورى • وكان ثيوفيليتزس Theophilitzes ضمن الحاضرين مع حاشية اتباعه وعلى رأسهم باسيل المقدونى ، انظر :

Vita Basilii Imperatoris, 229—230. Scylitzes, 123—124.

وجدير بالذكر أن المؤرخ جنسيوس ذكر رواية أخرى مؤداها أن باسيل هزم أقوى المصارعين العاملين فى خدمة القيصر برداس والامبراطور ميخائيل ،
=

فى العاصمة البيزنطية هذا الخبر بالاعجاب الشديد • وبعد ذلك قـام الامبراطور ميخائيـل باغراء باسـيل على تـرك تبعيتـه لثيوفيلتزس Theophilitzes والانضمام الى حاشية اتباعه الخاصة[47] •

واذا توقفنا قليلا أمام المصطلحات التى استخدمتها المصادر البيزنطية فى التعبير عن اتباع ميخائيل الثالث ، سنلاحظ انها استخدمت فى البداية نفس المصطلحات التى استعملتها فى وصف اتباع ثيوفيليتزس من قبل ، فهم اتباع الامبراطور Oikeioi[48] ، والرجال المألوفين من اتباعه Oikeioi anthropoi; Oikeiotatoi[49] • كذلك استخدمت المصادر

اصطلاحين جديدين فى وصف جماعة اتباع الامبراطور : جماعة الرفاق Hetaireia ، عصبة الأخوان Phatria • بالنسبة للكلمة الأولى Hetaireia جد انها ستصبح بعد ذلك اصطلاحا رسميا يطلق على فرقة الحرس الامبراطورى وذكرتها المصادر فى أغلب الاحيان بالكلمة فرقة الرحس الامبراطورى التى كان بعض أفرادها يجندون من خارج الامبراطورية • وشكلت عناصر الروس Varangian بعد ذلك الفرقة الرئيسية فى الحرس الامبراطورى وذكرتها المصادر فى أغلب الأحيان

انظـــر :

Genesius, 110—111.

أما عن طرح المصارع البلغارى العملاق أرضا ، فيذكرها جنسـيوس فى موضع لاحق بعد اعتلاء باسيل المقدونى للعرش ، انظر :

Genesius, 127.

وانظر أيضا :

Toynbee, Constantine, 373—374;

Moravcsik, Legenden, 97—98.

(47) Vita Basilii Imperatoris, 231.

(48) Genesius, 112.

(49) Vita Basilii Imperatoris, 239.

بالكلمة السافية Druzina [٥٠] والمعروف أن تشكيل هذه الفرقة من الحرس الامبراطورى بدأ منذ منتصف القرن التاسع الميلادى تقريبا • واذا كنا لا نستطيع أن ننفى احتمال وجود علاقة وراثية بين هذه الفرقة من الحرس الامبراطورى وبين جماعة اتباع الامبراطور ا لأن هذا لا يعنى انهما شيئا واحدا • وفى رأيى انه بالنسبة لموضوع هذه الدراسة يجب أن نترجم كلمة Hetaireia بالرفاق أو جماعة الاتباع الخاصة • وبالطبع تبين هذه الكلمة طبيعة العلاقة التى تربط السيد باتباعه أكثر من كلمة Oikeioi البسـيطة •

بالنسبة للكلمة الثانية Phatria نجد انها لا تعبر عن أية اخوة أو صداقة عادية ولكن عن تلك الأخوة أو الصداقة ذات الأهداف التآمرية فقط ، فهذه الأهداف مرتبطة بمعنى الكلمة [٥١] • وعلى هذا فحين تذكر المصادر رفاق الامبراطور وخاصته وتستعمل فى التعبير عن ذلك كلمة Phatria يرتبط على الفور هذا المعنى الخاص • فالمصطلح الطبيعى لوصف رفاق الامبراطور وحاشية خاصته هو كلمة Hetaireia •

لقد ذكرت المصادر البيزنطية أحيانا أسماء الأشخاص البارزين فى حاشية اتباع الامبراطور ميخائيل ، ولكنها تذكرهم فى كل مرة دون أى

---

(٥٠) وكان قائد هذه الفرقة من الحرس الامبراطورى يسـمى Hetaireiarches ، وكان عليه حماية الامبراطور والدفاع عن القصر • انظر :

Bury, Admin. System, 106—108.

Ahrweiler, Recherches, 27.

وانظر أيضا :

Moravcsik, Legenden, 115.

بالنسبة لتجنيد الروس فى الحرس الامبراطورى فى عهد ميخـائيل الثالث ، انظر :

Blondal, Varangians, 33—36.

(٥١) عن اشارات المصادر لهذه الكلمة انظر مثلا :

Theophanes, 407.

ذكر لمناصب يشغلونها أو ألقاب يحملونا ، ولهذا فهم مجهولون[٥٢] .

وجدير بالذكر انه على خلاف جماعة اتباع ثيوفيليتزس Theophilitzes ، لم تعمل هذه الجماعة سيئة السمعة من اتباع ورفاق الامبراطور ميخائيل فى خدمة سيدها من أجل المظهر الاجتماعى ، فهذا الدور يؤديه العاملون فى القصر الامبراطورى وفيه الكفاية . لقد عملت جماعة اتباع ورفاق الامبراطور ميخائيل فى خدمة أهدافه السياسية . وهنا نجد أنفسنا أمام دور جديد للاتباع لم نقابله فى جماعة اتباع ثيوفيليتزس . وفى المرات القليلة التى كان فيها الامبراطور ميخائيل نشطا فى القصر نجد أنه يستخدم جماعة أتباعه ورفاقه فى أداء أعمال لا تناسب موظفى الجهاز الحكومى الرسمى . فعلى يد هؤلاء الاتباع قضى ميخائيل على خاله القيصر برداس سنة ٨٦٥ م ، وعن طريقهم حاول أيضا أن يتخلص من باسيل المقدونى فى سنة ٨٦٧ ولكن الوقت كان قد تأخر . وهكذا كانت جماعة اتباع ورفاق الامبراطور اداة سياسية من أدواته فى الداخل ولكنها بعيدة عن الجهاز الحكومى .

وكانت العلاقة بين هؤلاء الاتباع وسيدهم الامبراطور ميخائيل الثالث وطيدة . فقد ابتدأ ميخائيل تقليدا أصبح بمقتضاه مسئولا عن أولاد اتباعه وحاشيته الخاصة منذ تعميدهم . وكان الامبراطور يقدم مبالغ كبيرة وهدايا ثمينة فى حفل التعميد الذى يصبح بمقتضاه أبا روحيا للطفل المعمد[٥٣] . وكانت الابوة الروحية فى العرف البيزنطى لا تؤدى الى خلق رابطة قرابة روحية وتتضمن تقديم هبات مالية كبيرة وهدايا ثمينة . واذا كان علينا أن نصدق رواية الامبراطور قسطنطين السابع

---

(٥٢) انظر :

Theoph. Cont., 199;
Vita Basilii Imperatoris, 243;
Pseudo - Symeon, 660, 661.

(53) Theoph. Cont., 172.

الخاصة بقيام جده باسيل الأول ـ بعد اعتلائه العرش ـ باسترداد نصف الهبات والعطايا المالية التى قدمها سلفه لاتباعه وخاصته ، فلابد أن يكون ميخائيل الثالث قد انفق ما لا يقل عن ستين ألف رطل من الذهب ، ولابد أن يكون انفاق هذا المبلغ الضخم مدون فى السجلات الرسمية(٥٤) .

وكما سبق أن ذكرنا انتقل باسيل المقدونى من جماعة اتباع ثيوفيليتزس Theophilitzes الى حاشية اتباع الامبراطور . ومرة أخرى أصبح باسيل مقدما لهذه الجماعة بفضل قوته البدنية ومهارته واعجاب الامبراطور به(٥٥) .

ويبدو أن باسيل بعد أن وطد مركزه فى حاشية اتباع الامبراطور أخذ يستعرض الاحتمالات المتاحة أمامه ، ولم يتردد فى اتخاذ جماعة خاصة لنفسه من داخل دائرة اتباع الامبراطور ميخائيل . وقام باسيل بتوطيد أواصر رابطة الاخوة Adelphopoiie معهم عن طريق قسم الولاء

---

(٥٤) ذكر قسطنطين السابع فى مؤلفه عن سيرة جده ، ان الامبراطور باسيل الأول اجبر اتباع وأقارب الامبراطور ميخائيل الثالث على رد نصف الهبات المالية التى منحها لهم الامبراطور من خزانة الدولة دون وجه حق . ولقد بلغت هذه الأموال التى استردتها الخزانة الامبراطورية نتيجة لهذا الاجراء أكثر من ٢ مليون نوميسما ، انظر :

Vita Basilii Imperatoris, 255—256;
Toynbee, Constantine, 592.

(٥٥) روى قسطنطين السابع ، انه أثناء رحلة صيد قام بها الامبراطور ميخائيل الثالث ، جمع جواده وأفلتت منه زمام السيطرة عليه ، ولم ينقذ الامبراطور سوى باسيل المقدونى الذى قفز وأمسك بالفرس منقذا حياة الامبراطور . ولقد أثارت شجاعة باسيل وقوته اعجاب الامبراطور الذى قربه اليه ، انظر :

Vita Basilii Imperatoris, 230—231;
Moravcsik, Legenden, 99.

انظر أيضا الأسباب الأخرى التى يقدمها أحد المؤرخين المحدثين فى تفسير اعجاب ميخائيل الثالث بباسيل المقدونى :

Jenkins, Imperial Centuries, 165.

والاخلاص له(٥٦) • وبمساعدة هذه الجماعة من خاصته قام باسيل بتنفيذ أمر الامبراطور ميخائيل الثالث الخاص بتوجيه الضربة القاتلة ضد القيصر برداس فى ٢١ من ابريل سنة ٨٦٥ م • حقيقة ان بعض المشتركين فى تدبير مؤامرة قتل القيصر برداس كانت لهم مكانتهم فى القصر مثـــل سيمباتيوس Symbatios زوج ابنة القيصر برداس والذى كان يشغل منصب اللغثيت Logothetes ، ولكن الجماعة التى قامت بتنفيذ المؤامرة كانت تلك الجماعة الصغيرة من الاتباع المقربين التى ارتبط بها باسيل • وكانت هذه الجماعة تضم ماريانوس Marianus شقيق باسيل ، وشخص بلغـــارى يدعى بطـــرس ، وشـــخص ثالث يســـمى يوحنا الخـــالدى Joannes of Chaldia ، وشخص رابع يدعى قسطنطين توكساراس Constantine Toxaras (٥٧) • ويلاحظ انهم كانوا جميعا رجالا لا صفة لهم وغير معروفين مثل بقية حاشية الأتباع الخاصة المحيطة بالامبراطور والتى اشرنا لها من قبل •

وجدير بالذكر أن المثل الأعلى للعـــلاقة التى ربطـــت الامبراطور بحاشية اتباعه كانت رابطة الاخوة ، ولذلك نجد انه بعد تنفيذ مؤامرة قتل القيصر برداس قام ميخائيل الثالث باتخاذ باسيل المقدونى أخا له وبمقتضى ذلك انعم عليه بمنصب الامبراطور المشارك • ولكن يلاحظ أن باسيل حرص بعد ذلك على الفصل بين مركزه ومركز الامبراطور ميخائيل الضعيف ، ولهذا أخذ ينسحب تدريجيا من حاشية اتباع ميخائيل فهو لم يعد تابعا بل أصبح سيدا • واحتفظ لنفسه بجماعة اتباعه الخاصة ، وهى نفس الجماعة التى ساعدته فى قتـــل القيصر برداس من قبـــل والتى بمساعدتها بقتل الامبراطور ميخائيل بعد ذلك أيضا(٥٨) •

---

(56) Pseudo - Symeon, 676, 678.
(57) Pseudo - Symeon, 678.
(58) Georg. Mon. Cont., 837.
ويمكن القول انه ربما قام باسيل بتكوين جماعة اتباع خاصة به داخل إطار التبعية للامبراطور • وفى هذه الحالة أصبح باسيل سيدا لجماعته وظل فى نفس الوقت تابعا للامبراطور • ويذكرنا هذا الوضع بصورة الهرم الاقطاعى فى الغرب الأوربى •

ويبدو أن القيصر برداس كانت له أيضا جماعة من الاتباع المقربين، فالمصادر تشير اليهم بشكل أو بآخر(٥٩) • والمرجح أن القيصر استخدمهم من قبل فى الاطاحة باللفثيت ثيوكتيستوس Logothetes Theoctistus وقتله سنة ٨٥٦ م وتوطيد مركزه على رأس الحكومة البيزنطية • وكانت شخصيات هذه الجماعة من الاتباع مجهولة أيضا مثل اتباع الامبراطور ميخائيل • ويلاحظ أن المصطلحات التى استخدمتها المصادر فى التعبير عن الاتباع تصبح أكثر دقة ووضوحا فى وصفها لمؤامرة قتل القيصر برداس(٦٠) •

على أية حال ، ان قيام السادة ذوى النفوذ فى بيزنطة باحاطة أنفسهم بجماعات من الاتباع كان ظاهرة يمكن الرجوع بها الى بداية القرن التاسع الميلادى ، لأن جزءا كبيرا من أحداث التاريخ السياسى للامبراطورية فى العقد الثانى من القرن التاسع يقودنا الى واحدة من جماعات الاتباع Hetaireia • ففى عهد الامبراطور نقفور الأول Nicephorus I (٨٠٢ — ٨١١) ، ارتفع شأن القائد باردانس المعروف بالتركى Bardanes Turcus وأصبح منذ صيف سنة ٨٠٣ يشغل منصب Monostrategos أى القائد الأعلى للثيمات الخمس الكبرى فى آسيا الصغرى(٦١) • وتروى المصادر أن باردانس هذا أحاط نفسه بجماعة

---

(59) Gensius, 91; Vita Basilii Imperatoris, 232, 234.

(٦٠) تذكر المصادر أن اتباع ميخائيل Oikeioi كانوا مستعدين لقتل القيصر برداس حسب الخطة المتفق عليها ، الا أن تنفيذ المؤامرة تأجل وخفا من الرجال المحيطين بالقيصر • وهنا تفرق المصادر بين القادة العسكريين — الذين كانوا من أنصار القيصر برداس — وبين جماعة اتباعه Hetaireioeis Phatria التى كرست نفسها له ، انظر :

Vita Basilii Imperatoris, 236.

وقارن أيضا :

Genesius, 106.

(61) Theoph. Cont., 6.

وانظر أيضا :

Theophanes, I, 479; Jenkins, Imperial Centuries, 119; Ostrogorsky, State, 173.

من الشباب الذين كانوا مثل باسيل المقدونى من بيئة اجتماعية معــدمة ولكنهم كرسوا أنفسهم وتفانوا فى خدمة سيدهم • وفى وصف هــــذه الجمــاعة من اتبـــاع باردانس Bardanes تذكر المصــادر تعبير Doryphoroi Kai Dianonoi أى الحرس الخاص والاتباع المقربين(٦٢) • ومن حسن الحظ اننا نعرف أهم ثلاثة رجال فى هذه الجماعة من الاتباع : ليو الارمينى ، وميخائيل العمورى أو الفريجى ، وتوماس السلافى الذى كان ابنا لاحدى الاسر السلافية التى هجرتها الادارة البيزنطية الى آسيا الصغرى • ولقد لعب هؤلاء الرجال الثلاثة فى السنوات التالية أدوارا هامة فى تاريخ الامبراطورية ، فأصبح ليو الارمينى وميخائيل العمورى امبراطورين ، أما توماس السلافى فقد طمع فى العرش وقاد من أجل ذلك واحدة من أعنف الثورات فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية •

بالنسبة لليو الارمينى فالمعروف انه اضطر فى سن صــغيرة الى هجرة بلدته الارمينية لأسباب سياسية ، واستقر مع اسرته الفقــيرة فى بلدة تسمى بيدرا Pidra فى ثيم الاناضول(٦٣) • ومثل الكثيرين من أبناء الاسر الفقيرة انخرط ليو فى جند ثيم الأناضول • وكما لفت باسيل المقدونى نظر ثيوفيليتزس Theophilitzes ، لفت ليو نظــر القائد باردانس Bardanes بمظهره الحسن وقوته وشــجاعته(٦٤) • وكان بردانس فى البداية يشغل منصب قائد ثيم الأناضول •

---

(62) Theoph. Cont., 7 and 24.

(63) Theoph. Cont. 6.

وجدير بالذكر ان أحد المصادر البيزنطية اشار الى أن ليو كان من أصل ارمينى وأصل سريانى فى نفس الوقت ، انظر :

Pseudo - Symeon, 603.

ولكن الدراسات الدقيقة أثبتت أن هذا لا يمت للحقيقة بصلة ، وأن ليو كان من أصل ارمينى فقط ، انظر :

Adontz, Leon V, 1—10; Charanis, Armenians, 23.

(64) Theoph. Cont., 6-7.

كذلك جاء ميخائيل من اسرة قروية فقيرة من نواحي مدينة عمورية (احدى مدن اقليم فريجيا القديم) وقاعدة ثيم الأناضول • ويبدو أن الفارق بين مستوى التعليم فى عمورية ومستواه فى القسطنطينية كان كبيرا ، فالقدر الذى تلقاه ميخائيل من التعليم كان ضئيلا للغاية كذلك كان لسانه ثقيلا فى نطق الكلمات كما كان بطيئا فى القراءة • ولكنه تمتع بموهبة فهم خصائص الحيوانات والتعامل معها • فقد كان خبيرا من الطـــراز الأول فى تربية الخيول(٦٥) • وكان لديه رغبة واحدة هى الهروب من الفقر • والمرجح أن القائد الكبير باردانس Bardanes قدر فيه خبرته بالخيول •

أما توماس السلافى Thomes the Slar — الرجل الثالث فى هـــذه الجماعة — فقد كان أيضا ابنا لأسرة فقيرة من نواحى Gazura-Sees فى ثيم الأناضول ، وبرز أيضا فى جند ثيم الأناضول لشجاعته ومهارته الفائقة(٦٦) •

ويمكن القول ان هؤلاء الرجال الثلاثة فضلا عن زملاء آخرين لهم فى الحاشية المحيطة بالقائد باردانس قد كونوا شيئا يختلف عن مجـــرد فصيلة حرس خاصة بهذا القائد الكبير • لقد كانوا أعضاء بارزين فى

---

(65) Theoph. Cont., 42—44 and 49.

ويروى ميخائيل السريانى أن جد الامبراطور ميخائيل الثانى كان يهوديا ثم اعتنق المسيحية ، انظر :

Michel le Syrien, III, 72.

وانظر أيضا :

Charanis, Armenians, 23; Jankins, Imperial Centuries, 141—141.

(٦٦) عن الأصل الفقير لتوماس السلافى ، انظر :

Genesius, 35.

وعن ثورته ، انظر :

Bury, Thomas the Slavonian, 55—60.

Bury, ERE, 85 ff.;

Vasiliev, Byzance et les Arabes, I, 22—49.

جماعة اتباع هذا القائد ومريديه ، وربطت بينهم وبينه علاقات وطيدة • وكان باردانس بالنسبة لهم أكثر من مجرد قائدهم فهــو مربيهم وولى نعمتهم وارتبطوا به بروابط المودة والثقة ، ثم تطور الأمر الى الروابط العائلية فأصبح ليو وميخائيل زوجين لابنتى سيدهم[٦٧] •

وجــدير بالذكر أن علاقة هؤلاء الاتبــاع الثلاثة بسيدهم سرعان ما اتخذت طبيعة تآمرية • ففى سنة ٨٠٣ أخذ القائد باردانس يستعد للثورة ضد الامبراطور نقفور • واعتقد باردانس انه يستطيع الاعتماد على القادة العسكريين فى ثيمان آسيا الصغرى الخاضعة لقيادته العليا ، ولكنه اعتمد أولا وقبل كل شيء على جمــاعة اتباعه وخاصته المقــربين Synistores[٦٨] ، وهم معاونيه وموضع ثقته الذين شاركوه التخطيط وكانوا بالطبع الهيئة التنفيذية لمشروع الثورة ولهذا السبب أصـبحوا مميزين ومعروفين • ولكن الثورة أخذت تتعثر ، وقام ليــو الارمينى وميخائيل العمورى بالتخلى عن سيدهم فى وقت مناســب وانضما الى معسكر الامبراطور ، الذى عاملهما معــاملة خاصة تختلف عن معــاملة الضباط العاديين • فقد اهتم الامبراطور بهما واغدق عليهما الهبــات والعطايا وعينهما فى مناصب هامة مقــابل خيانتهما[٦٩] • أما توماس السلافى فقد ظل وفيا لسيده القائد بردانس دون أن يتمكن من تغير النهاية المحتومة لتلك الثورة • وأخذ ليو الارمينى يرتقى ويصعد بسرعة ، فقد عينه الامبراطور ميخائيل الأول رانجاب Michael I. Rangab (٨١١ —

---

(67) Genesius, 31; Theoph. Cont. 44.
(68) Genesius, 8.

(٦٩) قام الامبراطور نقفور الأول بتعيين ليو الارمينى فى منصب قائد فرقة المعاهدين Foederati فى الحرس الامبراطورى ، كما انعم على ميخائيل العمورى بلقب Komes Kortés ، انظر :
Theoph. Cont. 9.

وقارن أيضا :

Genesius, 10.

للمزيد عن فرقة المعاهدين فى الحرس الامبراطورى ، انظر :
Bury, Admin. System, 63—64 and 106.

٨١٣) قائدا لثيم الأناضول ، أى قائدا لواحد من أهم مناصب القيادة العسكرية فى آسيا الصغرى[٧٠] • وفى هذا المنصب الجديد ، حرص ليو على جذب رفيقه القديم ميخائيل الى جانبه • وتروى المصادر أن ليو تذكر روابط الصداقة القديمة وسنوات الشباب المشتركة مع رفيقه ميخائيل فى تبعية القائد باردانس[٧١] • وقرب ليو صديقه القديم ميخائيل وأخذ يفضى اليه باسراره وخططه التى كانت لا تستهدف شيئا أقل من العرش الامبراطورى • والمرجح أن يكون توماس قد انضم مرة أخرى الى جماعة رفاقه القديمة بعد عودته من المنفى •

ويلاحظ أن هذه الجماعة من الرفاق لم تعد مجرد جماعة رفاق سلاح لشباب طموح لا يشغل أية مناصب ذات أهمية ، فنشاط هذه الجماعة التى عملت من قبل فى تبعية القائد باردانس ، تجدد الآن فى ظل مستوى اجتماعى أعلى • وكما هو معروف نجحت خطط ليو الارمينى ، فقد انتهز فرصة الهجوم البلغارى على بيزنطة وساهم فى عزل الامبراطور ميخائيل الأول — صاحب الفضل عليه — واعتلى هو نفسه العرش وعرف بليو الخامس (٨١٣ — ٨٢٠)[٧٢] • وصعد مع ليو بالطبع اتباعه المخلصون، وأصبح ميخائيل العمورى يشغل منصب قائد الفرقة الرئيسية من فرسان الحرس الامبراطورى Domestikos Ton Exkubiton كما أصبح توماس قائدا لفرقة المعاهدين Foederatin وهى أيضا من فرق الحرس

---

(70) Theoph. Cont., 12.

وانظر أيضا :

Jenkins, Imperial Centuries, 137.

Theoph. Cont., 12.

(٧٢) عن دور ليو الارمينى فى هزيمة الجيش البيزنطى أمام الخان البلغارى كروم فى ٢٢ من يونيو سنة ٨١٣ والظروف التى أدت الى اعتلائه العرش ، انظر :

Theophanes, I, 497—503;

Theoph. Cont., 12—17.

وانظر أيضا :

Ostrogorsky, State, 177—178;

Jenkins, Imperial Centuries, 128—129.

الامبراطورى[٧٣] • وهذا يعنى أن كلا من ميخائيل وتوماس قد أصبح يشغل منصبا عسكريا قياديا يرتبط بشكل معين بحماية الامبراطور وخدمته الشخصية • ودعم الامبراطور ليو الخامس هذه العلاقة بعقد أواصر الرابطة الروحية حيث أصبح ليو أبا روحيا لابن ميخائيل ومسئولا عنه[٧٤] • وهكذا عاشت الروابط القديمة لهذه الجماعة فى اطار المناصب الجديدة ، وانتقلت جماعة الرفاق الى القصر الامبراطورى لتؤمن مركز الامبراطور فى مواجهة هرم المناصب الوظيفية ونفوذ شاغليها فى الحكومة والقصر •

وتتضح العقلية العجيبة التى تحكم هذه التشكيلات من جماعات الاتباع فى هذه الصحبة من الرفاق بشكل خاص • فالاخلاص والوفاء والارتباط بالسيد شىء مسلم به طالما كانت الأهداف واحدة والمصالح مشتركة • أما اذا تخطى هدف أو مصلحة أحد أفراد هذه الجماعة من الاتباع هدف أو مصلحة سيدها أو بقية الرفاق ، يحل محل الاخلاص والوفاء صفات أخرى هى الجحود والخيانة • ولا ينطبق هذا على ليو الارمينى فقط ، بل أيضا على ميخائيل العمورى الذى أخذ ينظر بعين الحسد للمكانة التى وصل اليها رفيقه القديم ليو ، وبدأ خطط ليعتلى هو العرش بدلا من رفيقه السابق وسيده الحالى[٧٥] •

---

(73) Genesius, 12.

بالنسبة لتعيين توماس قائدا لفرقة المعاهدين Tourmarches Foederaton

انظر أيضا : Theoph. Cont., 24.

للمزيد عن منصب

Domestikos ton exkubiton

Bury, Admin. System, 57—60;

Ahrweiler, Recherches, 26, 29, 30;

Jones, LRE, I, 658—659.

(74) Genesius, 12; Theoph. Cont., 23—24.

(٧٥) عن توتر العلاقات بين ليو الارمينى وميخائيل العمورى والمؤامرة التى دبرها اتباع ميخائيل لقتل ليو ، انظر :

Theoph. Cont., 33—40; Jenkins, Imperial Centuries, 137—139; Bury, ERE, 48—55.

أما توماس فلم يشترك فى مؤامرة قتل ليو الارمينى لأن ميخائيل لم يخبره بما نوى وخطط له مع جماعة اتباعه الخاصة • وما أن اعتلى ميخائيل العمورى العرش باسم ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩) ، بعد قتل الامبراطور ليو الخامس ، حتى ثار توماس السلافى باسم ألوفاء والاخلاص للامبراطور القتيل وللانتقام من الخائن ميخائيل • وبدأت تلك الثورة التى يحلو لبعض المؤرخين المحدثين وصفها بانها كانت أكبر ثورة اجتماعية فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية[٧٦] •

ويلاحظ أن هناك تشابه كبير فى الاحوال داخل دائرة اتباع Hetaireia القائد بردانس ودوائر اتباع كل من ثيوفيليتزس Theophilitzes ، وميخائيل الثالث ، والقيصر برداس • فكل أتباع هؤلاء السادة كان لديهم رغبة الارتقاء الاجتماعى ، كما بدأوا تبعيتهم لسادتهم بنفس الامكانيات المادية تقريبا ، واستغلوا روابط التبعية لاغراض سياسية غلبت عليها الطبيعة التآمرية • كذلك كانت جميع هذه الجماعات من الاتباع عبارة عن تشكيلات تكونت من خارج الهيكل الرسمى للحكومة البيزنطية ، ودائما كان أحد أفراد كل جماعة يحرص على التحرك الى أعلى خارج نطاق دائرة جماعته ورفاقه متجاوزا مركز سيده • وبالطبع كان من الضرورى تكوين جماعات جديدة من الاتباع للسادة الجدد فى المستويات الجديدة التى ارتفعوا اليها فضلا عن تحريك المسرح الى أعلى• ولكن العقلية التى سادت جماعات الاتباع هذه استمرت أيضا فى المراكز التى ارتفعت اليها •

واذا انتقلنا الى القرن العاشر الميلادى سنلاحظ أن جماعات الاتباع استمرت كظاهرة واضحة فى الدولة البيزنطية كما يتضح من الاشارات المتناثرة فى المصادر • ولكن المصطلحات التى استخدمتها المصادر فى وصف الاتباع لم تكن دائما واضحة ، وفى كثير من الأحيان كان الفصل بين الاتباع من ناحية والخدم العاديين من ناحية أخرى مسألة صعبة •

---

(٧٦) عن ثورة توماس السلافى ، انظر حاشية رقم ٦٦ •

وجـــدير بالذكر أن حاشية اتبـــاع كل من الامبراطور اســـكندر Alexander (٩١٢ — ٩١٣) والامبـــراطور رومانوس الثــــانى Romanus II. (٩٥٩—٩٦٣) غلب عليها اللهو والمجون • وربما كان هذا أمرا متوقعا من امبراطور مشارك ووارث للعرش ابتعد عن أمور الحكم فترة طويلة قضى فيها وقته فى اللهو مع صحبة ماجنة من رفاق السوء ، كان هو سيدها ولم يكن يستطيع الاستغناء عنها • ولهذا فان اشارات المصادر لهذه الجماعة من الاتباع يصبح ذو قيمة أقل[٧٧] • أن الاسماء التى ذكرتها المصادر لاتباع الامبراطور اسكندر عبارة عن اسماء لرجال لا يشغلون أية مناصب حكومية وبلا مكانة اجتماعية مثل : يوحنا لازارس Joannes Lazares وجابريلوبولوس Gabrielopulus ، وبازيليتزس السلافى Basilitzes[٧٨] • ولقد أشارت المصادر الى أن الامبراطور أغدق عليهم الأموال الكثيرة ، بل وفكر جديا فى تخطى ابن أخيه قسطنطين السابع واختيـــار واحد منهم — المدعـــو بازيليتزس Basilitzes — ليكون خلفا له على العرش[٧٩] • أما بالنســـبة للامبراطور رومانوس الثانى فيلاحظ أن المصادر ميزت بعناية بين موظفيه الرسميين من ناحية وحاشية اتباعه الخاصة Hetairekotes من ناحية أخرى[٨٠] •

---

(٧٧) عن اشارات المصادر لاتباع الامبراطور اسكندر ، انظر :
Scylitzes, 194; Cedrenus, II, 275—276.
وعن اشارة المصادر لحاشية اتباع الامباطور رومانوس الثانى ، انظر :
Scylitzes, 248; Cedrenus, II, 339;
Leo Diaconus, 30.

(78) Scylitzes, 194; Cedrenus, II, 275.
بالنسبة للاصل السلافى للمدعو بازيليتزس Basilitzes ، انظر :
Theoph. Cont., 379.

(79) Theoph. Cont., 379.
وانظر أيضا :
Runciman, Romanus Lecapenus, 46.

(80) Scylitzes, 248, 254; Cedrenus, II, 339, 345.

أما الامبراطور رومانوس الأول ليكابينوس Romanus I. Lecapenus (٩٢٠ — ٩٤٤) فلم يكن فى حاجة الى جماعة خاصة من الاتباع لمساعدته فى اعتلاء العرش الامبراطورى • فالفوضى والارتباك فى بيزنطة فى أعقاب وفاة الامبراطور اسكندر فى ظل انقسام مجلس الوصاية على نفسه وتهديد القيصر البلغارى سيميون Symeon ، كانت ظروف استدعت أن يتولى الحكم امبراطور قوى كوصى على الطفل الصغير قسطنطين السابع[٨١] • وكان رومانوس ليكابينوس كقائد للاسطول يملك القوة الضرورية التى ساعدته على التخلص من منافسيه على هذا المنصب دون أن يكون فى حاجة الى تكوين جماعة من المتآمرين لمساعدته فى هذا الصدد • ومع ذلك فحين نتتبع الطريق الذى سلكه رومانوس حتى وصل الى العرش ، نجد أن المصادر تشير الى رجال لم يشغلوا أية مناصب عسكرية ولكنهم لعبوا من أجله دورا حاسما فى المشاورات التى انتهت بدعوته الى القسطنطينية ، مثل : الاسقف يوحنا Joannes وشخص آخر يدعى ثيودور ماستزوسيس Theodorus Mastzusis[٨١] •

وبعد أن وصل رومانوس ليكابينوس الى السلطة انشغل دائما بابعاد المنافسين الأقوياء Dynatoi الآخرين الذين كانوا يطمعون فى منصبه ، كما حرص على الحيلولة دون تكون جماعات تتآمر ضده • ورغم

---

(٨١) بالنسبة لحالة الفوضى والارتباك الذى أعقب وفاة الامبراطور اسكندر وحتى اعتلاء رومانوس ليكابينوس ، فضلا عن الخطر البلغارى الذى هدد بيزنطة من الخارج ، انظر :

Runciman, Romanus Lecapenus, 47—62;

Jenkins, Imperial Centuries, 230—237;

Ostrogorsky, State, 231—234.

(82) Theoph. Cont., 393.

وانظر أيضا :

Runciman, Romanus Lecapenus, 59.

كل هذا سقط الامبراطور رومانوس فى النهاية سنة ٩٤٤ م على يد جماعة اتباع ابنه ستيفن Stephen [٨٣] •

ويلاحظ ان نجاح الامبراطور نقفور فوقاس Nicephorus Phocas (٩٦٣ – ٩٦٩) فى اعتلاء العرش قد تم بصورة استخدمت فيها احدى جماعات الاتباع لخدمة أغراض سياسية •وكان الخصى الداهية باسيل ، الذى كان ابنا غير شرعى للامبراطور رومانوس ليكابينوس [٨٤] ، وهو سيد هذه الجماعة من الاتباع التى ساعدت نقفور فوقاس • وكان الخصى باسيل هذا يشغل منصب براكيمومينوس Parakoimomenus فى عهد الامبراطور قسطنطين السابع وتولى ادارة الحكومة البيزنطية نيابة عن الامبراطور[٨٥] ، ولكنه اضطر بعد وفاة قسطنطين السابع الى التخلى عن منصبه القيادى فى ادارة الحكومة البيزنطية لصالح جوزيف برناجس Joseph Bringas الذى أصبح الوزير الأول Paradynasteuon

---

(٨٣) بالنسبة لمؤامرة ستيفن واتباعه ضد والده رومانوس ليكابينوس ، انظر :

Theoph. Cont., 435; Scylitzes, 235; Cedrenus, II, 323.

Runciman, Romanus Lecapenus, 232;

وانظر ايضا :

Jenkins, Imperial Centuries, 253;

Ostrogorsky, State, 246.

(84) Scylitzes, 237—238; Cedrenus, II, 326—237; Zonaras, III, 432—483.

وانظر أيضا :

Toynbee, Constantine, 12; Jenkins, Imperial Centuries, 258, 266 and 267.

(٨٥) عن حياة الخصى باسيل ليكابينوس ، انظر :

Brokkaar, Basil Lecapenus, 199—234.

للمزيد عن منصب براكيموميونس Parakoimomenos ، انظر :

Guilland, Recherches, I, 202—211;

Oikonomidés, Préséance, 305;

Bury, Admin. System, 124—125.

فى عهد الامبراطور رومانوس الثانى(٨٦) .

والمعروف أن الامبراطور رومانوس الثانى توفى فجأة فى ١٥ من مارس سنة ٩٦٣ تاركا وراءه طفلين صغيرين هما باسيل وقسطنطين ، وتنافس على السلطة رجلان : جوزيف برنجاس من ناحية والقائد نقفور فوقاس من ناحية أخرى(٨٧) . وفى اللحظة الحاسمة اطلق الخصى باسيل كل اتباعه Hetaireia البالغ عددهم ٣ آلاف رجل لضرب اتباع ومؤيدى برنجاس Bringas الذى رفض قبول ترشيح نقفور فوقاس لاعتلاء العرش . واستطاع اتباع الخصى باسيل السيطرة على القسطنطينية ، وأصبح فى امكان نقفور فوقاس أن يغامر بدخول العاصمة(٨٨) . وبالطبع كافأ نقفور فوقاس ، بعد نجاحه فى اعتلاء العرش ، الخصى باسيل بأن نقل اليه مرة أخرى مقاليد ادارة الحكومة البيزنطية . واذا كان الخصى باسيل هذا قادرا باشارة من يده على اطلاق ثلاثة آلاف رجل ، فالمرجح أن هذا العدد الكبير ضم كل أهل بيته ، وعدد كبير من الخدم — فباسيل كان على درجة كبيرة من الثراء — فضلا عن عدد كبير من الاتباع المسلحين وكل من استطاع تجنيده من الأقارب والأصدقاء والانصار(٨٩) .

---

(86) Scylitzes, 248; Cedrenus, II, 339; Zonaras, III, 490.

وانظر ايضـــا :

Jenkins, Imperial Centuries, 270; Ostrogorsky, State, 251.

(87) Leo Diaconus, 31.

وكان نقفور فوقاس يشغل فى ذلك الوقت منصب القائد العام للقوات البيزنطية فى الشرق Domestikos tes Anatoles

للمزيد عن هذا المنصب ، انظر :

Bury, Admin. System, 49—51.

(88) Leo Diaconus, 46—49; Scylitzes, 256—259; Cedrenus, II, 347—351.

(89) Leo Diaconus, 47; Scylitzes,258; Cedrenus, II, 349; Zonaras, III, 498.

ولم تكن جماعات الاتباع ظاهرة قاصرة على مدينة القسطنطينية فقط بل وجدت أيضا فى الأقاليم • فالمصادر تشير الى هذه الجماعات من الاتباع حين تتناول الثورات الكبيرة التى قام بها أبناء طبقة الارستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى ، وخاصة ثورات أبناء عائلة فوقاس وعائلة سكليروس فى العقود الأخيرة من القرن العاشر الميلادى •

أما أولى تلك الثورات الكبيرة فهى تلك الثورة التى قام بها برداس فوقاس Bardas Phocas ابن شقيق الامبراطور نقفور فوقاس ، الذى قتله يوحنا تزيمسكس فى ديسمبر سنة ٩٦٩ • وتروى المصادر أن برداس تآمر مع اثنين من أقاربه هما الأخوين ثيودور ونقفور بارزاكوتنوس Parsacutenus ، ونجح فى الهرب من منفاه فى أماسيا Amaseia وعاد الى بيت أسرته فى قيصرية Caesarea قاعدة ثيم قبدوقيا Cappadocia • وهناك على أرضه وبين عشيرته قام بتجنيد الرجال والمغامرين ، الذين كانوا يميلون الى جانب كل تمرد أو انقلاب ، ولكنه اعتمد أيضا على أقاربه وعشيرته الضخمة واتباعه[٩٠] • وهنا يجب ألا ننسى أن عائلة فوقاس كانت من أكبر وأقوى عائلات كبار ملاك الأرض الزراعية وكانت أراضيها الزراعية منتشرة فى ثيم قبدوقيا[٩١] • وهكذا استطاع برداس تكوين جيش من الاتباع والمؤيدين ، ولكن الثورة فشلت بعد أن نجح الامبراطور وحنا تزيمسكس فى اغراء المغامرين تدريجيا على ترك الثائر والانضمام الى جانبه • ولم يبق لبرداس فى النهاية سوى عشيرته التى كانت بالطبع أساس جماعة اتباعه ومصدر قوة أسرته[٩٢] •

---

(90) Leo Diaconus, 113.

(٩١) عن ممتلكات عائلة فوقاس ومركزها الاجتماعى ، انظر :
Vryonis, Time of Troubles, 174;
Vryonis, Medieval Hellenism, 24—25;
Djuric, Phocas, 195—291.

(٩٢) عن تفاصيل ثورة برداس فوقاس ضد الامبراطور يوحنا تزيمسكس انظر :

Leo Diaconus, 113—126; Scylitzes, 291—294; Cedrenus, II, 388 — 392.

وتتكرر ثورة العسكريين الارستقراط مرة أخرى في بداية عهد باسيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥) حين انلعت ثورة برداس سكليروس Bardas Sclerus سنة ٩٧٦ م ، ومن بعدها ثورة برداس فوقاس الثانية سنة ٩٨٧م[٩٣] • وتروى المصادر أن برداس سكليروس لم يخطط للثورة بالتشاور مع القادة العسكريين فقط ، بل مع خاصته المقربين أيضا وغامر باعلان الثورة مع جماعة اتباعه • وسرعان ما انضم الى معسكره أعداد غفيرة من المغامرين والأرمن والعرب القاطنين منطقة الحدود البيزنطية الاسلامية[٩٤] •

ويبدو أن الامبراطور باسيل الثانى كانت له أيضا جماعة أتباعه الخاصة ، اذ يروى أحد المصادر البيزنطية انه بعد وفاة والد الطفلين اسحاق ويوحنا كومنين Comnenus أخذ الامبراطور باسيل على عاتقه مسئولية تربيتهما فاحضر لهما المربين والمعلمين الذين اهتموا بتنشئتهما وتعليمهما اصول فن الحرب والقتال • وما أن أصبح اسحاق ويوحنا شابين يافعين حتى قام الامبراطور بضمهما الى جماعة اتباعه Hetaireia ، فقد كان من عادة الأباطرة البيزنط الترحيب بابناء النبلاء للعمل فى خدمتهم[٩٥] • ويجب ألا نفترض أن المقصود هنا ضم يوحنا واسحاق

---

(٩٣) للمزيد عن ثورة برداس سكليروس ضد الامبراطور باسيل الثانى ، انظر :

Scyl itzes, 315 ff.; Cedrenus, II, 418 ff., Zonaras, III, 539 ff.

وانظر أيضا :

Seibt, Die Skleroi, 37—56.

وعن ثورة برداس فوقاس الثانية ضد باسيل الثانى ، انظر :

Scylitzes, 332—338; Cedrenus, II, 438—446; Zonaras, III, 551 — 554.

وانظر أيضا :

Seibt, Die Skleroi, 51—54.

(94) Scylitzes, 315—316; Cedrenus, II, 418—419; Zonaras, III, 539—541.

(95) Nicephore Bryennios, 75—76.

كومنين الى فرقة الحرس الروسية الخاصة بالامبراطور باسيل الثانى •
فهذه الفرقة من الحرس الامبراطورى التى أصبحت تسمى Hetaireia
أيضا كانت عبارة عن تشكيل عسكرى من العناصر الروسية فقط ، وأصبحت
فى عهد باسيل الثانى أهم فرق الحرس الامبراطورى(٩٦) • والمرجح
وجود جماعات مختلفة أخرى من الاتباع Hetaireia الى جانب غرفة
الحرس الامبراطورى فى عهد الامبراطور باسيل الثـــانى • ولكن من
الصعب هنا أن نميز بوضوح بين فرقة الحرس الامبراطورى الرئيســـية
وحاشية اتباع الامبراطور •

وفى عهد الامبراطورين ميخائيل الرابع البافلاجونى (١٠٣٤ —
١٠٤١) وابن اخته ميخائيــل الخـــامس كلافاتس Calaphates
(١٠٤١ — ١٠٤٢) ، يظهر الاتباع فى صورة عشيرة اسرية على رأسها
الخصى المعروف يوحنا اورفانوتروفوس Orphanotrophus شــقيق
الامبراطور ميخائيل الرابع • وكان يوحنا هذا أحد كبار موظفى القصر
الامبراطورى ولعب دورا هاما مع اتباعه فى اعتلاء شقيقه ميخائيــل
الرابع للعرش ومن بعده ابن اخته ميخائيل الخامس(٩٧) •

واذا انتقلنا الى عهد الامبراطور الضعيف ميخائيل الســـادس
(١٠٥٦ — ١٠٥٧) نجد أن المؤامرات تحاك منذ البداية لاسقاطه • وكانت
أول محاولة للثورة هى تلك التى قام بها ثيودوسيوس Theodosius ،

---

(96) Blondal, Varangians, 44—53.

وانظر أيضا حاشية رقم ٥٠ •

(٩٧) عن دور يوحنا اورفانوتروفوس John Orphanotrophus
هذا ، انظر :

Psellos, Chron., I, 5—56, 66—67, 86—88;

Scylitzes, 390—393, 416—417;

Cedrenus, II, 504, 508, 534—535.

أحـــد أقارب الامبراطور الســـابق قســـطنطين التاســـع مونوماخوس Constantine IX. Monomachus (١٠٤٢ — ١٠٥٥) ، بالاتفاق مع اتباعه فى العاصمة •

وباسلوب واضح تشير المصادر الى أن أنصار هذا الطامع فى العرش كانت تتكون من ثلاث جماعات : أهل بيتـــه Oikogeneis ، وخدمـــه Doyloi ، واتباعه ، ثم انضم اليهم الجيران والأصدقاء[٩٨] • واذا كانت هذه الثورة قد فشلت ، فان النجاح قد حالف ثورة القائد اسحاق كومنين بفضل المساعدة الفعـــالة التى قدمها له ميخائيـــل كرولاريوس Michael Cerularius بطريرك القسطنطينية (١٠٤٣ـــ١٠٥٨)[٩٩] •

وفى العهـــد المضـــطرب للامبراطور ميخائيـــل الســـابع دوقاس Miclael VII. Ducas (١٠٧١ — ١٠٧٨) قام اثنان من أبنـــــاء الارستقراطية العسكرية بالثورة ضده ، فقد قام القائد نقفور برينيوس Nicephorus Bryennius قائد ثيم ديراخيوم Dyrrachium بالثورة فى القسم الأوربى من الامبراطورية ، بينما قام القائد نقفـــور بوتانياتس Nicephorus Botaneiates قائد ثيم الأناضول بالثورة فى آسيا الصغرى[١٠٠] • وقدر لثورة الأخير النجاح فى النهاية • فما أن وصل بوتانياتس بجيشه الى نيقية فى مارس سنة ١٠٧٨ م،

---

(98) Scylitzes, 481; Cedrenus, II, 612—613;
Zonaras, III, 655.

(٩٩) كان البطريرك ميخائيل كرولاريوس وراء اشعال ثورة ســـكان القسطنطينية لصالح اسحاق كومنين • وفى هذه الثورة تجمع النـــاس فى كنيسة الحكمة المقدسة حيث نادوا باسحاق كومنين امبراطورا ، وكان على رأس المجتمعين رؤساء النقابات التجارية والحرفية بالعاصمة ، انظر :
Attaleiates, 58; Scylitzes, 498—499;
Cedrenus, II, 635—636; Vryonis, Democratia, 309.

(١٠٠) عن هاتين الثوـــتين والأحوال المضطربة فى الامبراطورية فى ذلك الوقت ، انظر :
Attaleiates, 262—290.

حتى اهتزت القسطنطينية على صوت نداء يدعو جماهير الناس للثورة على الامبراطور . وخرجت جماعات من الناس الى شوارع المدينة استجابة لنداء الثورة(١٠١) . وذكر أحد المصادر البيزنطية أن الذين تجمعوا فى كنيسة الحكمة المقدسة بالعاصمة استجابة لنداء الثورة كانوا الأعضاء البارزين فى مجلس السناتو ، وكبار رجال الدين والرهبان والتجار(١٠٢) .

ولكن المرجح أن أبناء الطبقة العليا تجمعوا مع اتباعهم لانهاء الحكم المخزى للامبراطور ميخائيل السابع . وهنا يلاحظ أن نقفور بوتانياتس كان له اتباعا يعملون لصالحه فى العاصمة . وكما فعل رومانوس ليكابينوس من قبل ، أرسل بوتانياتس أحد اتباعه — وهو شخص يدعى بوريلوس Borilus — ليتولى مع آخرين فى العاصمة مهمة الاستيلاء على القصر الامبراطورى وتمهيد الطريق لدخول الثائر للعاصمة(١٠٣) .

وبعد أن نجح نقفور بوناتياتس فى اعتلاء العرش قام بتعيين تابعه بوريوس Borilus هذا مع تابع آخر يدعى جرمانوس على رأس جهاز الحكومة الامبراطورية(١٠٤) .

على أية حال ، اذا أردنا أن نقيم هذه الظاهرة فى اطار النظم الاجتماعية والسياسية للامبراطورية البيزنطية مع مقابلتها بالنظم المشابهة والمعاصرة فى الغرب الأوربى ، فجب علينا أن نضيف الملاحظات التالية :

---

(101) Zonaras, III, 719; Scylitzes Continuatus, 733; Attaleiates, 269—270.

(102) Attaleiates, 270.

وانظر أيضا :

Vryonis, Democratia, 311.

(103) Seylitzes Continuatus, 734.

قارن أيضا :

Vryonis, Democratia, 311.

(104) Scylotzes Continuatus, 743.

أولا : ليس هناك شك فى حقيقة أن ظاهرة التبعية الشخصية لم يكن لها أى وضع قانونى • كذلك ليس لهذه الظاهرة أية علاقة بالقانون الدستورى وما يتعلق به • فالامبراطورية البيزنطية ــ على خلاف الغرب الأوربى ــ عاشت طوال العصر الوسيط دولة بمعنى الكلمة ولم يستوعب نظامها الدستورى مثل هذه الظاهرة •

ثانيا : يلاحظ أن جماعات الاتباع لم تكن فى كل الأحوال ظاهرة سياسية ، فعلى الأقل فى حالة ثيوفيليتزس Theophilitzes لاحظنا أن حاشية اتباعه كانت تعبير عن أهميته ومركزه الاجتماعى • ولكن فى أغلب الحالات التى استعرضناها كانت جماعات الاتباع تظهر فى صورة روابط وتحالفات سياسية ذات أهداف تآمرية بشكل خاص • وكانت هذه الروابط تنمو وتتقدم فى أحسن الأحوال حين يكون هناك اعداد لتمرد أو ثورة أو انقلاب داخلى فى القصر الامبراطورى •

ثالثا : يلاحظ أن ظاهرة التبعية الشخصية البيزنطية لم تعرف أبدا السيادة الاقطاعية • لقد كان السيد فى بيزنطة راعيا لاتباعه ولكن رعايته وسيادته لم تكن بغرض حماية أراضى اتباعه والدفاع عنها ، كما أن عمل الاتباع فى خدمة السيد لم تكن لهذا الغرض • ولهذا تفتقر ظاهرة التبعية الشخصية البيزنطية لكل أشكال التعهد ومنح الأرض الزراعية مقابل الخدمة • كذلك لا يبدو أن هذه الظاهرة كانت مقدمة للنظام الاقطاعى البيزنطى ، هذا اذا جاز لنا استعمال مثل هذا الاصطلاح الغربى •

رابعا : كانت ظاهرة التبعية الشخصية البيزنطية تعبير عن المجتمع البيزنطى المفتوح الذى أتاح أمام كل طموح فرصة الارتقاء الاجتماعى • ويمكن ادراك هذه الحقيقة اذا أخذنا فى الاعتبار التغيرات الاجتماعية الجذرية التى تحدث بمجرد أن ينجح شخص ما بمساعدة اتباعه فى اعتلاء

العرش الامبراطورى[١٠٥] • وجدير بالذكر أن الانضمام لجماعة اتباع أحد السادة الأقوياء كانت ترفع الفرد الى مكانة النبلاء أو أبناء الطبقة العليا ، مع ملاحظة أن هذه المكانة ليست بالمعنى السائد فى الغـــرب الأوربى لأن الانتماء للطبقة العليا أو طبقة النبلاء فى بيزنطة ليس له صفة الاستمرار والدوام كما انه غير وراثى • أى أن المكانة الاجتماعية للسيد Kyrios كانت تنتقل تلقائيا الى اتباعه ، ويفتح هذا أمامهم الباب ليصبحوا هم أنفسهم سادة أقوياء Dynotoi حتى لو كانوا فى الأصل ينتمون لبيئة معدمة •

خامسا : يلاحظ أن هناك وجه دستورى تاريخى لظاهرة التبعيـــة الشخصية فى المجتمع البيزنطى • لقد عاشت الامبراطورية البيزنطية طوال أكثر من ألف عام امبراطورية انتخابية • حقيقة لقد غطى على هذه الفكرة تعاقب أبناء الأسرة الواحدة على العرش الامبراطورى ، ورغم ذلك لم تفقد هذه الفكرة أهميتها • ففى كل مرة انتهى فيها حكم أسرة من الاسر ، كان الناخبون يظهرون فى الصورة وبسلطان كامل • ويمكن القول أن دور الناخبين لم يقتصر على الهتاف باسم الشخص الذى اختـــاره الامبراطور قبل وفاته ليخلفه على العرش ، بل كان هناك فى كثير من الأحيان اختيار حقيقى وفيه توقفت أهمية الفئات الانتخابية المنفـــردة (الجيش والسناتو والشعب) على الأهمية الاجتماعية السائدة لكل فئة فى ذات الوقت وما تمتلكه من نفوذ • وفى عصر لم يعرف الأحزاب الحديثة لأنه لم يكن بمقدوره أن يعرفها بسبب الافتقار لوسائل الاتصال الحديثة، كان على المرشح أو الطامع فى العرش أن يجد طرقا ووسائل تجعله قريبا من الناخبين ومألوفا لديهم كى يتمكن من فرض نفسه عليهم •

---

(١٠٥) وسام : « أضواء على مجتمع القسطنطينية : دراسة فى التـــاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر » — مقال منشور بمجلة كلية الآداب جامعة المنصورة — العدد الخامس ١٩٨٤ ، ص ٧٨—٧٩ .

وهنا تظهر جماعة الاتباع فى مكان الحزب الرئيسى بالنسبة للطامع فى التاج اذ تتولى توفير القوة السياسية المناسبة — وعند الضرورة القوة العسكرية أيضا — التى تعتبر ضرورية فى الانتخاب • وهكذا يفوز الطامع فى العرش بالانتخاب بفضل حاشية اتباعه وغالبا بفضلها فقط • ويلاحظ انه بعد الفوز بالتاج كان الامبراطور لا يقوم باتلخلص من اتباعه بل يحرص على الابقاء عليهم والاستفادة منهم •

سادسا : يلاحظ انه فى تعاقب أبناء الاسرة الواحدة على العرش الامبراطورى كان الواحد منهم يرئث مع التاج هيئة موظفى الحكومة والقصر الخاص بسلفه • وربما قام الامبراطور الجديد بتغير أشخاص كبار الموظفين الذين شغلوا مناصب الادارة العليا بسبب حنقه عليهم خلال فترة ولايته للعهد ، ولكن بصفة عامة كان الامبراطور يستطيع الاعتماد على بقية موظفى الجهاز الحكومى لأنهم الانصار القدامى للاسرة الحاكمة • أما بالنسبة للامبراطور الذى لا تربطه أية صلة قرابة بشخص سلفه ، أى ذلك الشخص الطموح الذى استطاع أن يشق طريقه ويصل الى العرش ، فقد كان عليه أن يتعامل مع جهاز موظفى الحكومة • وكان فى امكان هؤلاء الموظفين أن يضعوا العراقيل أمام الامبراطور الجديد ويجعلوا مهمته بالتالى صعبة • ولم يكن سهلا على الامبراطور المتوج حديثا والذى يعتبر رجلا جديدا حسب التعبير الرومانى Homo Novus أن يقوم بطرد كل موظفى الحكومة واستبدالهم بآخرين على الفور ، فمثل هذا التصرف كان غير مأمون فى ظل هذه الظروف • ولهذا حرص هؤلاء الأباطرة الجدد على الاحتفاظ بهيئة موظفى الحكومة التى لا يمكن الاستغناء عنها ولكنهم قاموا بمساعدة اتباعهم بمراقبة هؤلاء الموظفين والسيطرة عليهم •

وهكذا كان الامبراطور يناقش مع حاشية اتباعه خططه السياسية وبعض الأمور الأخرى التى كانت أما غير مناسبة للموظف أو ليس بمقدوره

التجاوب معها • ولهذا كان يمكن لحاشية الاتباع أن تصبح فى أية لحظة السلاح السياسى الحقيقى للامبراطور فى الداخل •

حقيقة كان الامبراطور يحكم بمساعدة هيئة موظفى الحكومة ، الا انه كان يحمى نفسه من مناورات هذه الهيئة من الموظفين ويردأ عن نفسه الخطر باستخدام جماعة اتباعه الخاصة التى تتكون من خارج التشكيل الحكومى • وهى جماعة من الرجال تأتى للعمل فى خدمـــة الامبراطور وتبقى خارج هيكل المناصب الحكومية الرسمية • وتتولى هذه الحاشية من الاتباع القيا مبأى عمل سياسى للأمبراطور ، أى تضـــمن له حرية العمل السياسى الذى لا يستطيع أن يؤديه موظفيه الرسميين لأنهم ليسوا فى مركز يسمح لهم بذلك طبقا للتقاليد •

قائمـــة

المصادر والمراجع والمختصرات

— Adontz, Basile I : N. Adontz, «L'âge et l' Origine de l' Empereus Basile I (867—886)», B, 8 (1933), 475—500; 9 (1934), 223-260.

— Adontz, Leon V : N. Adontz, «Sur l' Origine de Leon V, Emperur de Byzance», Armeniaca, 2 (1927), 1—10.

— Ahrweiler, Recherches : H. Ahrweiler, «Recherches sur l' Administration de l' Empire Byzantin aux IXe—XIe Siécles», B C H, 84 (1960), 1—109.

— Attaleiates : Michaelis Attaliotae Historia, ed. I. Bekker (Bonn, 1853).

— B. Byzantion. Bruxelles (Paris) 1924 ff.

— BAc Belg, Bulletin e la Classe des Lettre et des Sciences marales et Politiques Académie Royale de Belgique.

— B C H, Bulletin de Correspondance Hellénique. Paris 1877 ff.

— Blondal, Varangians, S. Blondal, The Varangians of Byzantium. An Aspect of Byzantine Military History, translated, revised and rewritten by B. Benedikz (Cambridge, 1978).

— Bréhier, Institutions, L. Bréhier, Les Institutions de l'Empire Byzantin (Paris, 1949). «= Le Monde Byzantin vol. II.».

— Brokkaar, Basil Lecapenus, W. G. Brokkaar, «Basil Lecapenus. Byzantium in the Tenth Century», Byz. Neerland, 3 (1972), 199—234.

— Bury, Admin. System, J. B. Bury, The Imperial Adminstrative System in the Ninth Century, with a Revised Text of the Kletorologion of Philotheos (London, 1911).

— Bury, ERE, J. B. Bury, A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I «852 — 67» (London, 1912).

— Bury, Tomas the Slavonian, J. B. Bury, «The Identity of Thomas the Slavonian», BZ, I (1892), 55—60.

— Bury, Treatise, J. B. Bury, «The Treatise De Administrando Imperio», BZ, 15 (1906), 517—577.

— Byz. Neerland, Byzantina Neerlandica. Studia Byzantina et Neohellenica. ZsiPa

— BZ, Byzantinische Zeitschrift. (Leipzig) München 1892 ff.

— Cedrenus, I. Cedenus, Compendium Historiarum, ed. I. Bekker (Bonn, 1838—1839), 2 vols.

— Charanis, Armenians, P. Charanis, The Armenians in the Byzantine Empire (Lisboa, 1963).

— CMH, The Cambridge Medieval History, 2nd revised edn. J. M. Hussey (Cambridge, 1966), vol. IV.

— Djuric, Phocas, I. Djuric, «La famille des Phocas», ZRVI, 17(1976) 195—291.

— Dolger, Byzanz, F. Dolger, Byzanz und die Europaische staatenwelt, new ed. (Darmstadt, 1964).

— Dolger, Paraspora, F. Dolger, Paraspora (Ettal, 1961).

— DOP, Dumbarton Oaks Papers. (Cambridge/Mass.) Washington 1941 ff.

— Dvornik, Iconoclasm, F. Dvornik, «The Patriarch Photius and Iconoclasm», DOP, 7 (1953), 69—79.

— Ensslin, Government, W. Ensslin, «The Government and Administration of the Byzantine Empire», CMH, IV, pt. 2. (1976), 1-54.

— Genesius, J. Genesius, Regna, ed. C. Lachmann (Bonn, 1834).

— Georg. Mon. Cont. Georgius Monachus Continuatus, Vita Recentiorum Imperatorum, ed. I. Bekker in : Theoph. Cont. (Bonn, 1848), 761 — 924.

— Grégoire, E'tudes, H. Grégoire, «E'tudes sur le Neuviéme siècle», B, 8 (1933)), 515—550.

— Grégoire, Michel III. et Basile le Macédonien, H. Grégoire, Michel III. et Basile le Macédonien dans les Inscriptions d' Ancyre», B, 5/1 (1929), 327—346.

— Guilland, Comte des Murs, R. Guilland, «E'tudes sur l'Histoire Administrative de l'Empire Byzantin : Le Comte des Murs», B, 34 (1964), 17—23.

— Guilland, Recherches, R. Guilland, Recherches sur les Institutions Byzantines (Berlin/Amsterdam, 1964), 2vols.

— Jenkins, Amperial Centuries, R. Jenkins, Byzantium : The Imperial Centuries A. D. 610—1071 (London, 1966).

— Jenkins, Michael III, R. Jenkins, «Constantine VII's Portrait of Michael III», BAc Belg, 34 (1948), 71—76.
Background of the Scriptores Post Theophanem», DOP, 8 (1954), 11 — 30.

— Jones , LRE, A.H.M. Jones, The Later Roman Empire 284—602. A Social Economic and Administrative Survey. Reprint (Oxford, 1973) 2 vols.

— Les Diaconus, Leonis Diaconi Caloensis Historiae Librì Decem et Liber de Velitatione Bellica Nicephori Augusti, ed. C. B. Hase (Bonn, 1828), 3—178.

— Leo Grammaticus, Leonis Grammaticl Chronographia, ed. I. Bekker (Bonn, 1842), 1—331.

— Mango, Byzantium, C. Mango, Byzantium The Empire of New Rome (London, 1980).

— Jenkins, Scriptores Post Theophanem, R. Jenkins, « The Classical

— Mango, Liquidation, C. Mango, «The Liquidation of I Conoclasm and the Patriarch Photios», in : I Conoclasm (Pauers given at the Ninth Spring Symposium of Byzantine Studtes), ed. A. Bryer an J. Herrin (Birmingham, 1977), 133—140.

— Michaelides-Nuaros, Adelphopoiia, G. Michaelides-Nuaros, Peri tes Adelphopoiias en te Archaia Elladi kai en to Byzantio (Thessalonike, 1952).

— Michel le Syrien, Chronique de Micel le Syrien ed. J. B. Chabot (Paris, 1899—1905), 3 vols.

— Moravcsik, Legenden, G. Moravcsik, «Sagen und Legenden über Kaiser Basileios I.», DOP, 15 (1961), 59—126.

— Nicephore Bryennios, Nicephore Bryennios Histoire, ed. et tr. P. Gautier (Bruxelles, 1975). «= Corpus Fontium Historiae Byzantinae IX».

— Oikonomidés, Préséance, N.Oikonomidés, Les Listes de Préséance Byzantins des IXe — Xe Siècles (Paris, 1972).
State. Eng. Trans. by J. M. Hussey (Oxford, 1957).

— Ostrogorsky , State , G. Ostrogorsky , History of the Byzantine

— Psaltes, Chronikes, B. Psaltes, Grammatik der Byzantinischen Chroniken. Reprint (Gottingen, 1974).

— Psellos, Chron. M. Psellus, Chronographie, ed. F. Renauld (Paris, 1926/1928), 2 vols.

— Pseudo - Symeon, Symeonis Magistri et Logothetae Chronographia, ed. I. Bekker, in : Theoph. Cont. (Bonn, 1838), 601—760.

— Runciman, Romanus Lecapenus, S. Runciman, The Emperor Lecapenus and His Reign. A Study of Tenth - Century Byzantium. Reprint (Cam bridge, 1963).

— Schlumberger, Un Empereur, G. Schlumbeger, Un Emperor Byzantin au Dixième Sièck Nicéphore Phocas (Paris, 1890).

— Scylitzes, I. Scylitzes Synopsis Historiarum, ed. I. Thurn (Berlin, 1973).

— Scylitzes Continuatus, Excerpta ex Breviario Historico Ioannis Scylitzae Couropalatae, ed. I. Bekker in : Cedrenus, vol. II. (Bonn, 1839), 639—744.

— Seibt, Die Skleroi, W. Seibt, Die Skleroi : Eine Prosopographisch - Sigillographische Studie (Wien, 1976).

— Theophanes, Theophanis Chronographia, ed. C. De Boor (Leipzig, 1883—1885), 2 vols.

— Theoph. Cont. Theophanes Continuatus, Ioannes Cameniata, Symeon Magister, Georgius Monachus Continuatus, ed. I. Bekker (Bonn, 1838), 1—211 and 354—481.

— Toynbee, Constantine, A. Toynbee, Constantine Porphyrogenitus and His World (London, 1973).

— Vasiliev, Byzance et les Arabes, A. A. Vasiliev, Byzance et les Arabes I : La Dynastie d, Amorium (820—867); ii : La Dynastie Macédonienne (867—959). Ed. francaise par H. Gregoire, M. Canard (Bruxelles, 1935, 1950).

— Vasiliev, Russian Attack, A. A. Vasiliev, The Russian Attack on Constantinople in 860 A.D. (Cambridge/Mass., 1946).

— Vita Basilii Imperatoris, Constantine Porphyrogenitus, Historia De Vita Et Rebus Gestis Basilii Inclyti Imperatoris, ed I. Bekker, in : Theoph. Cont. (Bonn, 1858), 211—353.

— Vryonis, Demokratia, S. Vryonis, «Byzantine Demokratia and the Guilds in the Eleventh Century», DOP, 17 (1963), 237—314.

— Vryonis, Medieval Hellenism, S. Vryonis, The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh through the Fifteenth Century (Berkley, Los Angeles/ London, 1971).

— Vryonis, Time of Troubles, S. Vryonis, The Internal History of Byzantium during the 'Time of Troubles, 1057-81 (Diss— ertation, Harvard, 1956).

— Zonaras, Ioannis Zonarae Epitomae Historiarum, edd. M. Pinder and Th. Püttner — Wobst (Bonn, 1841—1897), 3 vols.

— Z R V I, Zbornik Radova Vizantoloskog Instituta.

تجارة الأسلحة النارية فى جنوب افريقيا
فى أواخـــر القرن التاســـع الميلادى
والآثـــار المترتبـــة عليهـــا

اعداد : د / محيى الدين محمد مصيلحى

موضوع تجارة الأسلحة النارية من الموضوعات التى حظت بالقليل من الدراسات المتخصصة ، رغم أهميتها بالنسبة لافريقيا ، لأنها ترتبط ارتباطا مباشرا باستغلال القارة واستعمارها ، وتبرز آثار استخدام نتاج الحضـــارة الأوربية فى التوســـع والســـيطرة وانهاك القوى البشرية والثروات التعدينية لقارة كانت بكر االى عهد قريب • وعلاقة افريقيـــا بالأسلحة النارية علاقة قديمة ترجع الى الفترة التى أعقبت اكتشـــاف الأمريكيتين ، لأنها حلت محل الأسلحة التقليدية فى الردع والقهر وصيد الرقيق من أجل شحنه من سواحل افريقيا لحساب الأوربيين الى العـــالم الجديد •

وقـــد دخلت الأسلحة النارية الى جنوب القارة الافريقية منذ بدء وصول الأوربيين اليها فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر [١] ، حين تمكن البرتغاليون من الالتفاف حول افريقيا عن طريق رأس الرجـــاء الصالح ، وازداد دخول هذه الأسلحة مع بدء الاستقرار الأوربى فى

---

(١) شوقى عطا الله الجمل ـــ تاريخ كشف افريقيا واستعمارها المعادى ١٩٨٠ ـــ الطبعة الثانية ص ١٧٥ .

هذه المنطقة على يد الهولنديين فى عام ١٦٥٢ [٢] ، وتسربت هذه الأسلحة من مستعمرة الرأس جنوبا الى بقية أجزاء جنوب القارة مع المستوطنين والتجار الأوربيين والمبشرين ، ولعب المسئولون الأوربيون دورا كبيرا فى رواج هذه التجارة فى هذا الجزء من القارة الافريقية •

وكانت تجارة الأسلحة النارية فى جنوب افريقية تجارة مشروعة بالنسبة للأوربيين ، فى الوقت الذى حظرت فيه رسميا حيازة السلاح لأول مرة بالنسبة للافريقيين منذ عام ١٦٧٧ فى مستعمرة الرأس [٣] ، وقد برر الأوربيون ضرورة حيازتهم للأسلحة لحاجاتهم اليها للدفاع عن النفس ضد اعتداءات القبائل الافريقية ، ولصيد الفيلة ، وقتل الحيوانات المفترسة ، وفى صيد الرقيق الأسود للعمل فى أراضيهم الزراعية ورعى القطعان الأوربية [٤] واستخدم الأوربيون هذه الأسلحة النارية فى توسعهم من الرأس تجاه الشمال ، وبفضل هذه الأسلحة النارية تمكن البوير من تأسيس مستعمرة فى الأورنج الحرة والترنسفال •

وتعلم الافريقيون طريقة استخدام الأسلحة النارية من الأوربيين ، واشترك الافريقيون الموالون لهم فى الاغارة على اخوانهم من رجال القبائل التى تصدت بالمقاومة للأوربيين • ووصلت الأسلحة النارية الى الافريقيين عن طريق الرقيق الهارب من مزارع الأوربيين ومراعيهم ، وكان هذا الرقيق يفر أحيانا بعد أن يتمكن من سرقة بعض الأسلحة النارية من مزارع البيض ، وكانت هذه الأسلحة تصل الى الافريقيين الذين يستخدمونها فى مقاومة البيض •

---

(2) Shula Marks and Anthony Atmore, Journal of African History, Vol. 12. No. 4, 1971. Firearms in Southern Africa, p. 517.

(3) Agra Hamilton, The Native policy of the voortrekers, Capetown, 1928, p. 5-10.

(4) Shula Marks and Anthony Atmore. op. cit., pp. 518-519.

ومن ناحية أخرى كان البوير يستخدمون قبائل الهونتنتوت الموالية لهم من أجل مساعدتهم فى القبض على الرقيق الهارب ، وكان شرط الاستخدام هو معرفة استخدام الأسلحة النارية (٥) وعلم الهتونتوت أخوانهم من الافريقيين استعمال السلاح ، وزودهم بها فى أحيان كثيرة .

وأحس الأوربيون بالخطر من جراء حيازة الافريقيين للأسلحة النارية ، فطبقوا الحظر على حيازته واستخدامه حتى بالنسبة للقبائل الموالية لهم ، وشمل الحظر الهتونتوت ، أنفسهم ، وظل جنوب افريقية يشهد سلسلة من التقييدات على حيازة الافريقيين للسلاح ، وكان آخر هذه الحظورات هو الحظر الذى طبقه الناتال فى عام ١٩٠٦ على حيازة الأسلحة للافريقيين ، ويشير الفشل فى تطبيق سياسة الحظر على حيازة الافريقيين للأسلحة النارية على امتداد أكثر من قرنين ونصف قرن الى عدة ظواهر منها : الربحية العالية التى كان يجنيها بائعو السلاح (٦) ، والتراخى الذى كانت تبديه السلطات الاستعمارية بالنسبة لرواج هذه التجارة ، والتورط من جانب المسئولين أنفسهم فى هذه التجارة (٧) واشتغال وسائط قبليين فى عمليات نقل الأسلحة من الساحل نحو الداخل ، هذا فضلا عن أن هذا الرواج يؤكد اهتمام الافريقيين بحيازة الأسلحة النارية ، وادراكهم لتفوقها على أسلحتهم التقليدية ، وهذه ظواهر تستحق الدراسة والتحليل ، وسنحاول التعرض لها فى هذا البحث :

ويلاحظ أن الافريقيين رغم طول عهدهم بالأسلحة النارية فى جنوب القارة فانهم ظلوا حتى أواخر القرن التاسع عشر يستخدمونها استخداما محدودا لا بسبب الحظر على حيازتهم لها ، وانما بسبب ارتفاع أسعارها

---

(5) C. O. 107 No. 58898, O. Laryon to Barry, May 28, 1878.

(6) F.O. 5732/73 Scott to Salisbury, June 14, 1888.

(7) J. B. R. Wallis, The Matabele Journals of Robert Moffat, London, 1945, p. 91.

وجهلهم بطريقة تشغيلها وصيانتها ، وصعوبة نقلها من منطقة لأخرى ، واستحالة استخدامها فى موسم المطر ، وظلوا يفضلون الأسلحة التقليدية عليها كالسهام والرماح والأقواس [٨] • واقتصر استخدام الافريقيين لها على المفاخرة بها ، واضفاء الهيبة على أنفسهم باقتنائهم لها ، وعلى اطلاقها للتحية ، أو الارهاب لاعدائهم القبليين بصوت فرقعتها المرتفعة ، ولصيد الحيوانات البرية [٩] ، أما استخدامها فى الحروب القبلية فكان نادرا ، أما فى الحروب ضد الأوربيين فانهم أدركوا أن قلة ما بيدهم من سلاح نارى لا يجعلهم قادرين على مواجهة البيض ، وعلى هـذا فانهم نادرا ما استخدموها ضدهم حتى أواخر القرن التاسع عشر ، بل كثيرا ما تجنبوا الدخول فى حروب نظامية مع الأوربيين لأجل هذا السبب [١٠]، وكانوا يلجأون الى حرب العصابات ضدهم ، وساعدهم على هذا معرفتهم الجيدة بظروف بلادهم الجغرافية ، ونجحوا فى ذلك نجاحا ملحوظا •

أواخر القرن التاسع عشر وتجارة الأسلحة النارية فى جنوب أفريقية :

وأدى التكالب الأوربى على القارة الافريقية فى النصف الأخير من القرن التاسـع عشر ، وما صـحبه من زيادة وفود المغامرين والتجار والمبشرين الأوربيين الى افريقيا الى زيادة دخول الأسلحة النارية الى جنوب افريقية • وفى أوربا ارتبطت ظاهرة تصدير السلاح الى افريقيا بالتطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى كانت تسود هـذه القارة فى تلك الفترة • ذلك أن القارة الأوربية شهدت تطورا صـناعيا كبيرا ترتب عليه التقدم فى صناعة السلاح وتطوره ، والاستغناء عن

---

(8) Shula Mrks Anthony Atmore. Op. cit., p. 518.

(9) W. R. Chanler, Through Jungle and Desert, London, 1986, p. 217.

(10) Beachey, R. W. The Arms Trade in East Africa, in the late 19th century, Journal of African History Vol. 8, No. 3, 1962. pp. 451-452.

المخزون الضـــخم العتيق الذى تبقى لـــدى دولها منذ حروب نابليون والقرم [11] •

ولم يكن أمام أوربا الا أن تصدر الفائض من السلاح العتيق الى افريقيا التى كان يناسبها هذا الطراز من السلاح لتأخرها ، وعدم دراية كثير من سكانها بنوعيات الأسلحة الجيدة — هذا فضلا عن أن هـــذه الأسلحة النارية كانت تبهر الكثير من الافريقيين لتفوقها على الأســـلحة التقليدية التى خبروها • ورأت أوربا أن تصدير هذا السلاح العتيق الى افريقيا يحقق لها تخلصا من مخزون سلعى أصبح لا قيمة له ، بل أن كثيرا منه كان قد فقد فاعليته ، وأصابه العطب [12] ، ويتيح لها الحصول على عائد مالى ضخم من بيعه ، وذلك لأن أسعار السلاح فى افريقيا كانت مرتفعة بسبب تهافت الافريقيين عليه • وأتاحت ضخامة الأساطيل التجارية الأوربية فرصـــة جيدة لتصدير الســـلاح • وفى الوقت الذى كان بيع الأسلحة النارية يمثل عائدا اقتصاديا جيدا ، فانه كان يســـاعد الدول الأوربية على التوغل فى الداخل من أجل رواج التجارة المشروعة ، لأنه عن طريق هذا السلاح كان يمكن للتجار الأوربيين أن يأمنوا لأنفســـهم الملاحة الحرة فى الانهار الافريقية ونقل بضائعهم الى الداخل •

ويلاحظ أن التقدم التكنولوجى قد صحبه فى أوربا زيادة فى سكانها نتجية ارتفاع المستوى الصحى ، كما صحبه فائض فى العماله ، وهجرة الفائض لرأس المال الصناعى ، وعلى هذا ارتبطت هذه الظواهر بظاهرة الاستعمار الاستيطانى فى افريقيا حيث تجد العمالة الفائضة ورأس المال المصـــدر فرصا متزايدة للنمو داخل القارة البكر ، واتضح أثر هذه العوامل فى ضغط المستوطنين البريطانيين فى الرأس على البوير وهجرة البوير الى الشمال ، وصحب هذا استخدام متزايد للأسلحة النارية من جانب الأوربيين ضد الافريقيين لازاحتهم من المناطق الخصبة الملائمة الى أماكن أقـــل

(11) Ibid., p. 451.

(12) Ibid, pp.451-452.

خصوبة [١٣] على نفس النسق الذى حدث فى الأمريكتين حين طارد المستوطنون السكان الأصليين ودفعوهم الى أماكن نائية سيئة ، وأتاحت المذاهب الاقتصادية التى راجت فى أوربا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والتى نهضت أساسا على مبدأ حرية التجارة للأوربيين [١٤]، فى مستعمرات جنوب افريقية فرصا واسعة للحصول على الأسلحة النارية بكميات كبيرة •

ولنا ملاحظات حول تجارة الأسلحة النارية فى جنوب أفريقية فى أواخر القرن التاسع عشر :

أولا : أن نوعية الأسلحة النارية التى وصلت الى جنوب افريقية كانت أعلى بكثير من هذه الأسلحة التى وصلت الى أجزاء أخرى من أفريقيا لعدة أسباب أهمها أن الافريقيين فى الجنوب كانوا أكثر خبرة من غيرهم فى استخدام الأسلحة النارية لطول معاشرتهم للأوربيين ، كما عرفوا طريقة صيانتها واصلاحها ، الى جانب تصنيع البارود محليا فى حالة قلة المستورد منه [١٥] ، هذا فضلا عن أن الأسلحة المصدرة لهذا القسم من القارة كان يقصد بها أن تصل الى أيدى طائفة من الأوربيين الذين استوطنوا به ، وأقاموا به اقامة دائمة ، ومن هنا كان ضروريا أن تكون نوعية السلاح عالية ، خاصة وأن جنوب القارة كان قد طبق به الحظر الرسمى على حمل الافريقيين لهذه الأسلحة منذ وقت طويل ، ولم تشهد أجزاء القارة الأخرى مثل هذا الحظر بالنسبة للافريقيين الا فى أعقاب مؤتمر بروكسل الخاص بمنع تجارة الرقيق والذى عقد فى عام ١٨٨٩ ، وتعرض لتجارة الأسلحة النارية لعلاقتها المباشرة بصيد الرقيق •

---

(١٣) شوقى عطا الله الجمل : مرجع سابق ، ص ٥٨٦ .

(14) Alpert, Paul, Economic History of Europe in the 20th century, New York, 1951, pp. 3-8.

(15) Anthony Atmore and others, Firearms in south central Africa, Journal of Africa History, Vol. 12, No. 4, p. 545.

ثانيا : أن كميات السلاح التى وصلت الى جنوب القارة كانت كبيرة بسبب وفود معظم المبشرين والتجار الأوربيين عبر هذا القسم من افريقية فى طريقهم الى وسط وشرق افريقية ، وكان طريق المبشرين الذى يبدأ من شمال غرب الترنسفال وعبر البتشوانالاند ، هو المنفذ الرئيسى للولوج من الجنوب الى الشمال (١٦) ، ورغم كبر حجم تجارة الأسلحة فى الجنوب فانها كانت أقل حجما من تجارة الأسلحة فى شرق افريقية ، لأن تجارة شرق القارة من الأسلحة ارتبطت بتجارة العاج والرقيق ، وقد اشترك فى هاتين التجارتين الأوربيين والهنود والأفريقيين والعرب على السواء لضخامة أرباحهما •

ثالثا : أن تجارة الأسلحة النارية فى جنوب القارة لم تستخدم من أجل صيد الرقيق وشحنه الى الخارج ، لأن مستعمرات الجنوب قد حرمت فيها تجارة الرقيق منذ ولوج الأوربيين اليها (١٧) ، ولكن الأسلحة النارية استخدمت فى صيد الصبية الافريقيين من أجل تشغيلهم فى مزارع البيض بعد تدريبهم على أعمال الفلاحة والخدمة المنزلية •

رابعا : أن تجارة الأسلحة فى جنوب افريقية لم تكن قاصره على دولة أوربية بعينها ، وانما اشتركت فيها دول أوربية كثيرة الى جانب الولايات المتحدة ، ولم تنفرد انجلترا وحدها بهذه التجارة باعتبارها دولة لها السيطرة على جنوب القارة ، لأنها كانت قد تخلت عن مبدأ حماية التجارة ونادت باطلاق حرية التجارة ، وعلى هذا كانت موانىء الجنوب مفتوحة أمام شركات السلاح الأوربية (١٨) ، وانما حدث التنافس الحر بين الشركات من أجل الربح دون اعتبار للدمار أو الآثار السلبية الأخرى التى أحدثتها هذه التجارة فى الجنوب •

---

(16) Guy. T.T. A Note on firearms in the Zulu kingdom, The same Issue of J.A.H. pp. 558-559.

(17) Shulu marks and Anthony Atmore, Op. cit., p. 519.

(18) Anthony Atmore and others, Op. cit., p. 547.

خامسا : أن الشركات التى صدرت السلاح الى جنوب القارة عملت أيضا فى تصدير مواد التجارة المشروعة الأخرى ، بمعنى أن هــذه الشركات كانت متعددة الأنشطة ، وأنها لم تتخصص فى تصدير السلاح ، بل كانت هذه الشركات كثيرا ما تخفى الأسلحة تحت صناديق التجــارة المشروعة حين تفرض احدى مستعمرات الجنوب حظرا على الســلاح وتصديره للقارة [١٩] •

سادسا : أن تصدير الســلاح الى جنو بافريقية ارتبط ارتباطا مباشرا بالظروف السياسية فى أوربا ففى أعقاب حرب السبعينات بين ألمانيا وفرنسا ، قلت صادرات فرنسا من السلاح ، وزادت صــادرات ألمانيا ، بينما ظل لانجلترا أكبر نصيب فى هذه التجارة بسبب ظروفها السياســية المســتقرة وازدهارها الاقتصــادى داخل القــارة الأوربية وخارجها [٢٠] ، وسيطرتها الاستعمارية على مستعمرات جنوب افريقيا • وارتبطت السيطرة والتفوق السياسى بالنوعية العالية المصدرة من السلاح فكانت الأسلحة الانجليزية تأتى فى المرتبة الأولى ، وتليها الأســلحة الألمانية•

سابعا : أن أية محاولات لحظر تصدير السلاح كانت لا تلقى نجاحا كبيرا بسبب عدم التزام مستعمرات الجنوب جماعيا بأى قرار حظــر يصدر ، هذا الى جانب تراخى بريطانيا فى الضغط على المســتعمرات لتنفيذ الحظر حرصا منها على أرباح تجارة السلاح العالية [٢١] •

وتذكر تقارير الرحالة والمبشرين الأوربيين أن أرباح تجارة الأسلحة النارية كانت عالية ، ومن ثم تحدى المبشرون والتجار قرارات الحظر

(19) Sue Miers, A Note on the Arms trade, Government Policy in southern Africa Between 1870-1880, Journal of African History, Vol. 12 No. 4, p. 571.

(20) Alpert, Paul, Op. Cit., pp. 3-7.

(21) Brookes, E. H. The History of Native Policy in South Africa, p. 124.

على حيازة الافريقيين للسلاح ، وحملوها لهم الى الداخل ، وعمل كثير منهم وكلاء لشركات السلاح الأوربية ، ودربوا الافريقيين على استخدامها ورافقوهم فى حروبهم القبلية ورحلات صيدهم • كما وصلت الأسلحة النارية عن طريق وسطاء افريقيين الى الداخل ، وتقاضى هؤلاء الوسطاء عمولات كبيرة من شركات السلاح نظير تسويق السلاح وبيعه لاخوانهم الافريقيين ؛ ومن هؤلاء الوسطاء افريقيون من قبائل المفنجو (Mfengu) [٢٢] • وقد ثبت تورط مبشرين أوربيين فى بيع السلاح للافريقيين فى جنوب افريقيا ، من هؤلاء المبشر الانجليزى الابن جون موفات (John Moffat) الذى كان يعمل فى جنوب افريقية لحساب جمعية لندن التبشيرية .L.M.S الذى باع الأسلحة لقبائل الزولو فى كرومان Kurman [٢٣] وذكر المبشر الانجليزى الأب روبرت موفات أن ملك الماتابيلى لوبنجولا (Lobengula) قد اشترى بندقيته من مسئول كبير فى حكومة يدعى فيلجون Viljoen • وقام هوفمان (Hoffman) فى عام ١٨٥٢ ببيع ٥٠٠ طلقة نارية وعدد من البنادق للزعيم موشيشى (Moshwshe) زعيم السوتو [٢٤] ، وقد أصبح هوفمان فى عام ١٨٥٤ أول رئيس لجمهورية الأورنج الحرة • وتأكد تورط المبشر الانجليزى ليفنجستون (Livingstone) الذى اكتشف نهر الزمبيزى فى بيع الأسلحة النارية للافريقيين • وقد أثار هذا العمل من جانبه البوير ضده فقاموا بالهجوم

---

(٢٢) كانت قبائل المفنجو من القبائل التى تسكن فى الناتال ، ثم رحلت عنها الى شرق الكاب ، وكانت موالية للبريطانيين ، وكانت تبيع الأسلحة لقبائل الاكسوز

(٢٣) كانت كرومان هى المقر الرئيسى لجمعية لندن التبشيرية التى تأسست فى عام ١٧٩٥ بهدف التبشير فى آسيا وافريقيا ، وتقع كرومان على الحدود الغربية للترنسفال .

(٢٤) تنتمى قبائل السوتو الى مجموعة البانتو ، وتنقسم هذه القبائل الى قسمين جنوبى يسكن مستعمرة الكاب وقسم شمالى يسكن منطقة نهر الأورنج .

علـــى مقـــره وتهديم منزله ، وكـــان من بين المهاجمين بـــول كروجر (Paul kruger) الذى أصبح فيما بعد رئيسا لجمهورية الترنسفال (٢٥)، وعلا شـــأن المبشرين فى نظر الافريقيين واعتبروهم رؤساء لحكومات وملوكا مستقلين ، وذلك لقدرتهم على شحن الأسلحة التى يحتاجون اليها رغم حظر السلطات الرسمية لحيازة السلاح بالنسبة للافريقيين • ويدل على هذه المكانة التى حظى بها المبشرون لدى الزعماء الافريقيين ما أطلقه الزعيم الافريقى مزيلكازى (Mzilikazi) زعيم الزولو عـــلى موفـــات فوصفه بأنه « ملك كرومان » ومهندس معركة ديتاكونج (Dithakong)

ورغم مهارة بعض الافريقيين فى استخدام السلاح النارى ، فان كثيرا من الافريقيين كانوا يجهلون استعماله ، واستغل التجار الأوروبيون هذا الجهل ، ومدوهم على حد وصف أحد الكتاب المعاصرين بأحط الأنواع وأردأها وبأسلحة عديمة الجدوى تقريبا • وكان الافريقيون يقايضون على الحبوب والماشـــية والعاج بالأســـلحة النارية ، وارتبطت حيازة الافريقيين لأعداد متزايدة من الخيول بزيادة طلبهم على الأسلحة النارية فى جنوب افريقية ، وذلك بعد أن كثر اســـتخدام الافريقيين لســـلاح الفرسان الذى نقلوه عن الأوربيين (٢٦) •

وكان السوتو يبعثون بشبابهم من أجل العمل فى مناجم الماس فى جركولاند وست Grqualand West (٢٧) وفى مشروع خط حديد الكاب — كيمرلى (Kimberley) بهدف الحصول على الأسلحة النارية ، وكانت أهم

---

(25) Anthony Atmore and others, Op. Cit., p. 548.

(26) Richard Brown, External Relations of the Ndebele kingdom in the Pre-Partition Era, in leonard Thompson (ed.) African societies in Southern Africa, London, 1969, p. 262.

(٢٧) تقع جركولاند وســـت شمال مستعمرة الرأس ، وكانت منطقة مستقلة قبل اكتشاف الماس فيها فى عام ١٨٧٠ ، ثم ضمت لأهميتها التعدينية الى مستعمرة الرأس •

البنادق التى يتهافتون عليها هى بنـادق سنيدرا ينفلد Snider Enfield ووبت روث White Worth [٢٨] ، وتكدست الأسلحة فى يد السوتو ، وخشت سلطات الكاب سوء العاقبة ففرضت الحظر على بيعها للافريقيين فى عام ١٨٧٣ ، ورغم الحظر الرسمى فان الالتزام به كان ضعيفا ، والغريب أن سلطات مشروع الخط الحديدى رفضت بيع الأسلحة النارية للسوتو ، فى الوقت الذى توفرت فيه هذه الأسلحة فى الحوانيت فى منطقة كرادوك Cradock التى تقع على مقربة من منطقة المشروع [٢٩]. ويوضح هذا مدى التحايل وعدم الالتزام بالأوامر الرسمية الخاصـة بحظر السلاح من حظر الأوربيين والافريقيين على السواء . ويبدو أن السوتو قد عرفوا فوائد اسـتخدام الأسلحة النارية فى صـيد الفيلة والتغلب على الأعداء ومجابهة المستوطنين الأوربيين ، ومن ثم فقد تصدت هذه القبائل على امتداد أكثر من عامين كاملين لمحاولات سلطات الكاب لنزع سلاحها ، وذلك فى الفترة ما بين يناير ١٨٧٩ ، وأبريل ١٨٨١ ، ولقى أكثر من تسعمائة جندى بريطانى مصرعهم فى الصراع المسلح ضد السوتو الذين ثبت حسن استخدامهم للسلاح ومهارتهم فى اصـلاحه وصيانته [٣٠] .

وتشير وثائق وزارة المستعمرات البريطانية الى أنه فيما بين عامى ١٨٦٧ ، ١٨٧٥ أعيد تسليح كل دول أوربا بالأسلحة الحديثة ، وان كميات كبيرة من الأسلحة العتيقة أصبحت جاهزة للتصدير ، وتواكب هـذا مع زيادة الطلب على السلاح من جانب الافريقيين ، ووجد تجار السلاح أن بيع الأسلحة العتيقة مربح للغاية ، ولم تكن مستعمرات جنوب افريقية البريطانية على استعداد للاستغناء عن الأرباح الضخمة التى كانت تأتى اليها من استيراد السلاح العتيق ، وتشير احصائيات وزارة المستعمرات

(28) Anthony Atmore and Peter Sanders, Op. Cit., p. 541.

(29) Ibid., p. 542.

(30) Cape Blue Book for Native Affairs, 1879, A Report quoted by Anthony Atmore and Peter Sanders, Op. cit., p. 542.

الى أنه فيما بين ١٨٧٢ ، ١٨٧٧ تم استيراد ٦٠ ألف قطعة من السلاح فى الناتال ، وأن نحو ٨٥٪ من كمية هذه الأسلحة كانت عتيقة ، وأن المخزون العتيق قد خصص لاستخدام الافريقيين ، وأن سعر القطعة من هذه الأسلحة كان يعادل سبعة شلنات ، وستة بنسات فى بروسيا (٣١) • وتشير المصادر المعاصرة الى أن معظم الأسلحة دخلت الى منطقة الزولو عبر خليج دلاجو • وعند وصول الأسلحة الى موانى جنوب افريقيا يتسلمها تجار السلاح الأوربيون ، حيث يقومون ببيعها للافريقيين من الزولو مقابل الماشية • وتجمع الماشية التى تم شرائها وتساق جنوبا الى النآتال حيث يتم بيعها بأسعار مرتفعة ، وهكذا تتضمن عملية بيع السلاح عدة عمليات تجارية ، تدر على كل عملية منها أرباحا كبيرة • ويمكن تصور مدى الربحية العالية اذا عرفنا أن قطعة واحدة من السلاح كانت تباع للأفريقيين بما يعادل عشرين جنيها استرلينيا ، أو ما يعادل أربعة رؤوس من الماشية فى منتصف السبعينات من القرن التاسع عشر (٣٢) • وحسب تقديرات نائب القنصل فى موزبيق فان ما يعادل ١٢٠ ألف بندقية قد مرت عبر موانىء هذا البلد الافريقى ، بالاضافة الى عشرة آلاف برميل من البارود ، وأن ثلاثة أرباع هذه الكمية من السلاح المستورد قد دخلت الى أرض الزولو فيما بين عامى ١٨٧٥ ، ١٨٧٧ (٣٣) • غير أن التقارير تشير فى الوقت نفسه الى كمية السلاح التى اشتراها الزولو من الأوربيين بعد عام ١٨٧٩ — وهو العام الذى اندلعت فيه الحرب بين الزولو والانجليز ، قد انخفضت ، وأن أسعار السلاح بدأت تتناقص ، ومن المعتقد ان السبب فى انخفاض الاقبال

---

(31) C.O. 879, 14/16, No. 9, Bulwer to Hicks Beach 29, April, 1878.

(32) J. J. Guy, A Note on firearms in the Zulu Kingdom, Journal of African History, Vol. 12, p. 560.

(33) C.O. 879; 17/208 No. 4, F.O. to C.O., Report by Vice consul, Mozambique 22 Sept., 1879.

على شراء السلاح من جانب الزولو يعود الى ادراكهم لفساد الأسلحة التى اشتروها ، وعدم جدواها فى الحرب مع الانجليز [٣٤] . وقد بلغ من انخفاض أسعار السلاح أن قطعة السلاح النارى كانت تباع بما يعادل ثمن رأس واحدة من الماشية ، ومع هذا فانه كان يمكن للتجار الأوربيين تحقيق أرباح لا بأس بها اذا باعوا بهذه الأسعار المنخفضة .

ولا تتوفر لدينا احصائيات متكاملة عن حجم الأرباح التى جنتها شركات السلاح الأوربية من بيع الأسلحة النارية فى افريقيا ، ويبدو أن السبب فى هذا يرجع الى تعدد شركات السلاح واختلاف جنسياتها ، وحرص هذه الشركات على اخفاء حجم أرباحها الضخم من عمليات تسويق السلاح بسبب المنافسة الشديدة فيما بينها ، ولاخفاء مظهر الاستغلال البشع الذى مارسته ضد الافريقيين ، غير أن وجود بيانات متناثرة فى الوثائق البريطانية وكتب الرحالة عن حجم السلاح النارى المتوفر لدى القبائل الافريقية فى الجنوب ، وحجم الأسلحة المطروحة للبيع فى الأسواق الافريقية يكشف عن ضخامة هذه التجارة وارتفاع عائداتها . ففى تقرير الى الحكومة البريطانية كتب المسئول البريطانى بالجريف (Palgrave) الذى أرسل كمندوب خاص الى جنوب غرب افريقيا فى عام ١٨٧٦ يقول أنه وجد كل الرجال والصبية الذين تبلغ أعمارهم اثنى عشر عاما مسلحين بالبنادق الجيدة ، وأنه لاحظ أن كميات ضخمة من الأسلحة النارية مطروحة للبيع فى السوق ، قدرها بما لا يقل عن ستين ألف بندقية ، وأكثر من عشرين طنا من البارود ، وكمية مماثلة أخرى من الرصاص [٣٥] . وفى عام ١٨٩٣ كتب جون موفات Moffat فى رسالة الى هنرى لوك (Loch) المندوب السامى البريطانى يقول أنه لاحظ أن قبائل النجواتو (Nagwato) فى محمية

---

(34) J. J. Guy op. cit., p. 561.

(35) Palgrave, W. C. A. Mission to Damarland and Great Namaqualand in 1876, Capetown 1877, p. 22.

يستهلكون سنويا نحو ٤٠٠ ألف طلقة ذخيرة ، وأشار موفات الى علو سعر الأسلحة النارية فذكر أن سعر البندقية الجيدة يصل أحيانا الى البتشوانا لاند لديهما ما يتراوح بين ثلاثة الى أربعة آلاف بندقية ، وأنهم خمسين دولارا [٣٦] • ويقدر دى كويت (De. Kewiet) أن حجم ما وصل من سلاح نارى الى مناجم الماس فى جنوب افريقيا خلال التسعة أشهر الأولى من عام ١٨٧٣ يقدر بنحو ثمانية عشر ألف بندقية ، ويشير الى أن معظم هذه البنادق قد بيعت فى جركولاند وست (Griqualand West) وحملها الافريقيون الى منطقة جنوب غرب افريقية [٣٧] • ويشير الرحالة الى العلاقة المباشرة بين الاقبال على العمل فى مناجم الماس وحقول الذهب فى جنوب افريقية والتهافت من جانب الافريقيين على الحصول على الأسلحة النارية ، فيذكر أحد التقارير أن ما يزيد على ٤٫٥٠٠ من التسوانا (Tswana) ، ٥٠٠ من الماتابيلى (Matabele) وتسعة آلاف من البيدى (Pedi) كانوا يعملون فى مناجم الماس فى عام ١٨٨١ ، وأن هؤلاء كانوا يتقاضون أجورهم فى شكل أسلحة نارية بدلا من الأجر النقدى [٣٨] • ولا شك أن هناك علاقة قوية بين ازدياد حجم العمالة الافريقية من البيدى (Pedi) ، وما جاء فى تقرير آخر عن تعداد جيشهم القبلى ، والذى قدر بنحو ١٢ ألف مقاتل أكثر من ثلثه مسلح بأسلحة نارية متقدمة [٣٩] • ويلفت النظر فى التقارير هذه والتى ترجع كلها الى ما بعد منتصف السبعينات من القرن التاسع عشر أنها تصف ما فى أيدى الافريقيين من

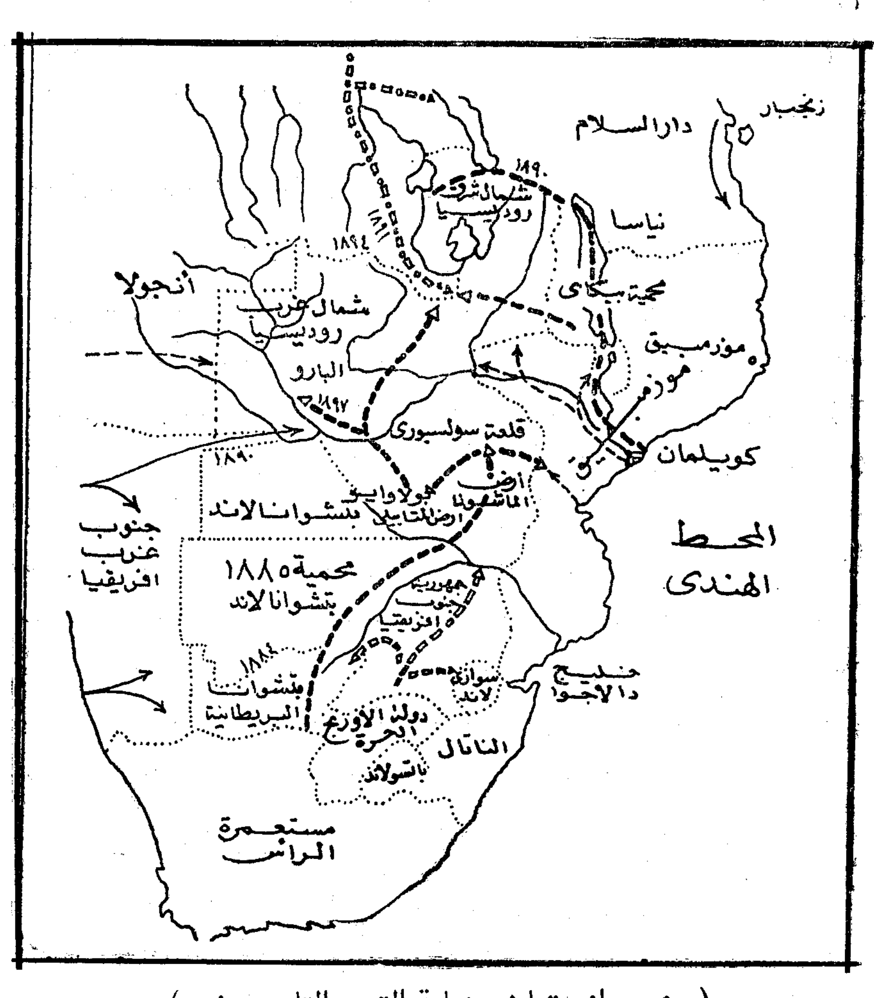
---

(36) C. O. 417/91 Moffat to loch Jan 7/1893.

(37) De Kewiet, the Imperial factor in South Africa, London, 1937, pp. 18-19.

(38) Anthory Armore and Others Op. Cit., p. 550.
Quoting the Cape Blue Book on Native Affairs, 1888, (pp. 182/183).

(39) K. W. Smith. The fall of the Bapedi of the North Eastern Transvaal. Journal of Afr. Hist Vol. X. No. 2, 1969, pp. 239-252.



(جنوب افريقيا فى نهاية القرن التاسع عشر)

أسلحة نارية بأنها عالية النوعية [٤٠]• وترجع سبب حيازة الافريقيين لنوعيات عالية من السلاح الى طول تمرسهم بالأسلحة النارية ، الى جانب أنهم أصبحوا أكثر ادراكا لخداع الأوربيين من تجار السلاح ، فرفضوا النوعيات المنخفضة •

مصادر الأسلحة الواردة لجنوب افريقيا :

وقد دخلت الأسلحة النارية الى جنوب القارة من جهات متعددة ، وعلى سفن تتبع دول أوربية كثيرة • وأسهم الألمان والبرتغاليون والانجليز بصفة أساسية فى هذه التجارة خاصة تلك المتجهة من الجنوب تجاه الشمال ، ووصلت الأسلحة النارية الى الشونا والمتابيلى والجازا والفاندا (Venda) ، وساعد على انسياب الأسلحة النارية تجاه الشمال أن تجارة الأسلحة النارية ظلت مشروعة فى المنطقة التى تلى المستعمرات الانجليزية فى جنوب افريقية شمالا حتى عام ١٨٩٠ ، أى الى وقت عقد معاهدة بروكسل الخاصة بالقضاء على تجارة الرقيق • واستلزم القضاء على هذه التجارة تحريم حيازة الأسلحة النارية على الافريقيين فى المنطقة التى تقع بين خطى عرض ٢٠° شمالا ، ٢٢° جنوبا ، وعلى هذا أخضع جزء من منطقة جنوب وسط افريقيا للحظر •

ووصلت الأسلحة النارية الى هذه المنطقة عن طريق تجار السلاح البرتغاليين ، وقبائل الفاندا (Venda) التى اندفعت شمالا تحت ضغط هجمات البوير ، ودخلت هذه القبائل فى علاقات مع قبائل المنطقة وخاصة مع الشونا ، وأمدتهم بالأسلحة النارية ودربتهم على استعمالها وصيانتها ، وعلى صناعة البارود والذخيرة محليا من المواد المحلية المتاحة، كأسلاك التلغراف ، والمسامير ، زجاجات الصودا ، والأحجار ، وكانت صناعة البارود محليا هامة لأن البارود ثقيل يصعب على تجار السلاح حمله الى المنطقة [٤١] ، كما وصلت الأسلحة النارية الى قبائل المنطقة

(40) Anthony Atmore and Others op cit., pp. 550-551.
(41) Anthony Atmore and Others, op. cit., pp. 553-554.

مع الافريقيين القادمين من مناجم الماس والذهب فى جنوب افريقية ، وكان لقبائل الكارنجا (Karanga) دور هام فى بيع البنادق بأسعار مرتفعة للشونا (٤٢) • كما كان عدد لا بأس به من أفراد قبائل الشونا والميتابيلى والجازا قد توجهوا للعمل فى هذه المناجم من أجل الحصول على السلاح • وفضلا عن هذا فقد كان للتجار الأوربيين والمغامرين والباحثين عن الذهب والمبشرين دور كبير فى حمل السلاح الى المنطقة ، وخاصة فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر بعد أن راجت الأساطير عن وجود الذهب الغنية فى قلب منطقة الزمبيزى (٤٣) •

واذا كانت ظروف التنافس الأوربى على اقتسام افريقية قد ساعدت على زيادة امدادات الأسلحة النارية الى منطقة جنوب وسط القارة ، فان هذا كان يعنى أن المنطقة قد عرفت تجارة السلاح قبل القرن التاسع عشر بثلاثة قرون عن طريق البرتغاليين ، خاصة وأن جزءا منها كان يقع فى نطاق منطقة تجارة الرقيق ، وكانت الأسلحة النارية تستخدم من جانب الوكلاء الافريقيين أو العرب من أجل صيد الرقيق وشحنه لحساب تجار الرقيق البرتغاليين ، وزادت الأسلحة النارية التى تشحن الى الداخل مع اشتراك دول أوربية أخرى فى تجارة الرقيق ، وكان صيد الفيلة من أجل الحصول على العاج — الذى كانت عائداته تفوق عائدات تجارة الرقيق — عاملا آخر شجع تجارة الأسلحة فى الداخل (٤٤)، ورغم هذه العوامل المشجعة لتجارة الأسلحة النارية فى منطقة جنوب وسط افريقية ، فان تداول هذه الأسلحة مع أفراد القبائل الافريقية كان محدودا ، واقتصرت حيازة الأسلحة على الزعامات الهامة أو التجار ،

---

(42) Beach, D.N. The Rising in South-Western Mashona, 1896-1897, Ph.D. London University Thesis, p. 145.

(43) Cary, R. Chartered Royal, Salisbury, 1970, pp. 26-27.

(44) Beachery, D.N. op. cit., p. 462.

وظل استخدام الأسلحة النارية بين القبائل الافريقية نادرا • وعلى هذا فان مملكة المونوتوماتابا (MONOMUTABA) [٤٥] لم تعرف استخداما ذا مغذى لهذه الأسلحة فى حروبها القبلية طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كما أن ملوك الروزوى [٤٦] كانوا يفضلون استخدام الأسلحة التقليدية فى قتالهم ضد جيرانهم •

وفى القرن التاسع عشر حدثت تطورات فى المنطقة أدت بقبائلها الى زيادة استخدامهم للأسلحة النارية ، ففى الثلاثينات من القرن التاسع التاسع عشر هاجر الزولو من مناطقهم فى الترنسفال تحت ضغط البوير الى منطقة شمال اللومومبر والزمبيزى ، واستقر جزء من الزولو فى أرض المانيكا (Manica) وأسسوا مملكة الجازا ، واستقر قسم آخر فى منطقة جنوب الزمبيزى وأسسوا مملكة المتابيلى [٤٧] • وتعرضت قبائل المنطقة من الشونا الى غارات الجازا والمتابيلى ، وكانت القبائل المغيرة قبائل محاربة تعودت على السلب والاغارة ، ورغم عدم استخدامها للأسلحة النارية فانها كانت تستطيع احراز نصر على الشونا الزراعيين بما لها من تمرس طويل بأساليب الحرب • واضطر الشونا الى استخدام الأسلحة النارية ضد المغيرين الجدد ، وتعاونوا من أجل ذلك مع البوير أحيانا ، ومع قبائل الفاندا (Venda) أحيانا أخرى ، كما دخلوا فى علاقات تجارية مع البرتغاليين من أجل تزويدهم بالأسلحة النارية •

---

(٤٥) تأسست مملكة المونوماتابا على ما يعتقد فى القرن التاسع الميلادى ، ويقال أن قبائل الكارنجا (Karanga) التى وفدت على شمال وشرق أرض الماشونا من الشمال هى التى شكلت هذه الملكة التى عرفت فى الأصل باسم (Mwene Mutapa) ثم حرفت بعد ذلك الى المونوماتابا •

(٤٦) تأسست مملكة الروزوى Rozwi فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى بعد أن اسقطت قبائل الروزوزى مملكة المونوماتابا ، ولا يعرف من أين وفدت هذه القبائل ، والأرجح أنها أتت من جنوب غرب افريقيا •

(٤٧) تأسست مملكة الجازا فيما يعرف اليوم باسم موزمبيق ، وتأسست مملكة المتابيلى فيما يعرف اليوم باسم زمبابوى •

ونجح الشونا فى التصدى للمتابيلى بفضل استخدامهم للأسلحة النارية ، كما حدث فى الستينات من القرن التاسع عشر حين هزم زعيم الشونا شـــيبيا موابا مو (Chiba Munabamu) قوة المتابيلى المغيرة [(٤٨)] ويلاحظ أن الشونا أقدموا على منح امتياز للبوير فى عام ١٨٩٠ عرف باسم امتياز ادندورف (Adendorff) ، قبل الشونا بموجبه مســاعدة البوير لهم فى صد هجمات المتابيلى مقابل بعض الحقوق للبوير فى أراضيهم ، كما عقد الشونا معاهدة مع البرتغاليين فى عام ١٨٨٩ ، وقبلوا بموجبها الأسلحة البرتغالية • والاعلام البرتغالية بهدف التصدى لهجمات الجازا والمتابيلى [(٤٩)] فى أراضيهم ، ومع زيادة وصول الأسلحة النارية الى الشونا شعر المتابيلى والجازا أن غاراتهم على الشونا أصبحت غير مجدية •وكلفت الأسلحة النارية الشونا مبالغ كبيرة رغم أن ما وصل منها اليهم كان عتيقا ومتخلفا ، لأن سعر البندقية العادية كان يعادل مهر عروس من الشونا ، كما كانت البندقية الجيدة يعادل سعرها سعر مائتى رطل من العاج [(٥٠)] • ولم يستخدم الشونا الأسلحة النارية ضــد الأوربيين الا فى ثورة ١٨٩٦/١٨٩٧ ، وقد طال أمد مقاوماتهم ضــد قوات شركة جنوب افريقيا البريطانية مدة ستة عشر شهرا ، وقد تم العثور على نحو ألفى بندقية فى مناطق الثوار ، وكانت هــذه البنادق معظمها انجليزية الصــنع من نوع انفيلد سنيدر Einfield Snider ، وهنرى مارتينى Henry Martini [(٥١)] ، وهذا يدل على أن معظم هذه الأسلحة وصلت اليهم عن طريق المستوطنين الانجليز ، كما يثير الشكوك فى تورط بعض مسئولى ادارة الشركة فى شحن الأسلحة الى القبائل حرصا على الأرباح التجارية العالية •

---

(48) Beach, D. N. op. cit., pp. 143-144.

(49) Ibid., pp. 158-160.

(50) Tabler, E.C. The Far Interior, Capetown, 1956, p. 165.

(51) Anthony Atmore and others, Op. cit., p. 553.

ودخلت الأسلحة النارية الى مملكتى الجازا والمتابيلى ، وأدركت الملكتان أهمية هذه الأسلحة ، وحرصتا على الحصول عليها لما لا حظتاه من تأثيرها فى تغيير موازين القوى • وطلب المتابيلى الأسلحة من الأوربيين الذين وصلوا الى المملكة بعد أن نزلت بهم الهزيمة على أيدى أتباعهم السابقين من قبائل النجواتو (Nagwate) فى عام ١٨٦٣ ، بعد أن تسلحوا بالأسلحة النارية ، ودخلوا فى علاقات وطيدة مع الأنجليز فى جنوب القارة الافريقية [٥٢] وزاد هذا من رغبة المتابيلى فى الحصول على الأسلحة النارية ، وفضلا عن ارسالهم شبابهم الى مناجم الماس للعمل هناك وشراء الأسلحة ، فانهم حاولوا الحصول عليها من مندوبى الشركات الأوربية التى تشكلت فى بلادهم فى السبعينات من أجل استثمار كنوز الذهب التى اعتقد أن بلادهم مليئة بها • ويرجع سبب موافقة ملك المتابيلى لوبنجولا (Lobengula) على امتياز رود (Rudd) الى أن هذا الامتياز الذى صدر فى عام ١٨٨٨ لحساب رودس يقضى بمنح المتابيلى ألف بندقية من نوع هنرى مارتينى Henri Martini ومائة ألف طلقة ذخيرة [٥٣] • ومع أن المتابيلى حصلوا على الأسلحة النارية فانهم لم يستخدموها فى غاراتهم ، وظلوا يستخدمون الأسلحة التقليدية ، ويرجع السبب فى هذا الى أن ملوك المتابيلى كانوا يخشون تمرد زعاماتهم عليهم اذا ما دربوا على استخدام هذه الأسلحة ، وقد ظلت الأسلحة النارية التى تسلمها ملك المتابيلى من جماعة رود فى المخازن دون استخدام ، وعثرت عليها قوات الشركة فى عام ١٨٩٣ حين أسقطت مملكة المتابيلى ، وفى أثناء حرب المتابيلى كان استخدام الملك وجيشه للأسلحة النارية نادرا ، غير أن المتابيلى نجحوا من خلال الأسلحة فى ابادة قوات الضباط الانجليزى ويلسون التى بلغ عددها ثلاثون جنديا ، وأغرقوهم فى نهر شانجانى [٥٥] •

(52) Galbraith, J.S. Op. Cit., p. 15.
(53) Glass, S. The Matabele War, London, 1968, p. 8.
54) Ibid., p. 192.
(55) Ibid., p. 192.

وفى عام ١٨٩٦ ثار الميتابيلى على حكم شركة جنوب افريقية البريطانية • وتحصن الثوار بتلال الماتوبو Matapoo ، وأنزلوا بالقوات الأوربية هزائم كبيرة بفضل استخدامهم للأسلحة النارية ، وقد رفض الثوار خلال مفاوضاتهم مع رودس التجرد من أسلحتهم ، لأنهم أدركوا أنها ضرورية لهم لاجبار الشركة على الموافقة على شروط معقولة • وكان ما لدى الثوار الميتابيلى يبلغ نحو ستة آلاف بندقية ، ومعظمها بريطانية الصنع ، وبالنسبة للجازا فقد قبل ملكهم تسلم الاعلام البرتغالية نظير تسلم بعض الأسلحة النارية منهم ، وكان للجازا جيش كبير يقدر بنحو خمسة عشر ألف جندى ، ويتسلح نحو ربع هذا الجيش بالأسلحة النارية ، وكان للهنود دور كبير فى امداده بالأسلحة الى جانب البرتغاليين ، وقد تمكن ملك الجازا جنجنهآنا Gunghana أن يصمد أمام قوات البرتغاليين مدة ستة عشر شهرا ، ولم ينجح البرتغاليون فى القضاء على مقاومته الا بعد أن وصلتهم المدافع الرشاشة ومدفعية الميدان من لشبونة •

ويلاحظ الأوربيين وأن استخدموا الأسلحة النارية المتفوقة ضد الميتابيلى والجازا ، فانهم كانوا يدركون قوة هاتين المملكتين ، ومن ثم حرصوا على التفاوض معهما حين اندلعت فيهما لواء الثورة ، كما حرص ملكاها على استمرار التفاوض لأنهما أدركا أنه لا قبل لهما بمواجهة السلاح الأوربى ، ومن ثم سهلت الأسلحة النارية مهمة الاتفاق بين الجانبين • وكانت مملكتا الجازا والمتيابيلى آخر الممالك التى سقطت على يد الأوربيين ، ولم يكن تأخر سقوطهما ناجما عن بعد أراضيهما ، أو لعدم الرغبة الأوربية فيهما كما هو الحال بالنسبة لجنوب غرب افريقيا ، ولكن الأوربيين لم يكونوا حينئذ أقوياء بالدرجة الكافية التى تؤهلهم لمواجهة هاتين المملكتين •

محاولات تقييد تجارة السلاح فى جنوب افريقية :

أدركت العناصر الأوربية التى سكنت جنوب افريقيا حاجتها للأسلحة النارية من أجل التوسع والاستيلاء على الأراضى الخصبة ، وتأمين

المراعى والدفاع عن النفس وصيد الحيوانات ، وعلى هذا أتاحت بريطانيا دخول السلاح الى هذه المنطقة ، وكانت التجارة فيه مشروعة ، غير أن الأوربيين حاولوا حظر حيازة الافريقيين لهذه الأسلحة خشية استخدامهم لها ضدهم ، وطبقت هذه السياسة على جميع مستعمرات الجنوب ، وأكدت اتفاقية ساند رفر Sand River التى عقدت بين البوير والانجليز فى عام ١٨٥٢ هذا الحظر ، وحرمت على الافريقيين حمل السلاح واستخدامه دون ترخيص رسمى [٥٦] • على أن الحظر جوبه بمعوقات كثيرة منها أن البوير أنفسهم اضطروا لقلة عددهم الى الاستعانة بالافريقيين فى رعى ماشيتهم ، وفى الصيد وفى مطاردة القبائل المعادية ، واستلزم الأمر تدريبهم على استخدام الأسلحة النارية ، وحذق الافريقيين الموالون فى استخدام الأسلحة وخاصة الهوتنتوت • وتحدى المبشرون الأوربيون قوانين الحظر ، وطالبوا بالغائه على أساس أن حمل السلاح النارى ضرورى للافريقيين لتصريف بعض شئونهم الاقتصادية ، هذا فضلا عن أن الأسلحة النارية وصلت الى الافريقيين من خلال منافذ خديدة كسرقته من الأوربيين ، وشرائهم له من الوكلاء الافريقيين أو الهنود أو الأوربيين ، وكانت أسعاره العالية تمثل اغراءا كبيرا لهم ، كما كانت هذه الأسلحة مصدر دخل جمركى كبير لمستعمرات الجنوب ، ولم تلتزم سلطات المستعمرات بقرارات الحظر بصفة جماعية ، وتعرضت المستعمرة التى تشتد فى تطبيق الحظر لخسائر مالية كبيرة تضطر على أثرها الى الغائه بعد فترة قصيرة ، كما حدث فى الناتال حين ألغت الحظر الذى فرضته على حيازة الافريقيين للأسلحة النارية فى عام ١٨٧٤ بعد عام واحد [٥٧] ، وذلك بعد أن اكتشفت أن تجارة السلاح قد تحولت عوائدها الى المستعمرات الأخرى وأن تهريب السلاح داخل أراضيها ظل على

---

(56) Anthony Atmore and Peter Sanders ; Op. Cit., p. 539.

(57) C.D. 879 No. 180 (African) Bulwer to Hicks Beach. Sept. 3rd 1879, secret and confidential.

العمالة الافريقية للعمل فى المناجم من أجل تعدين الماس والذهب ، وكان ما هو عليه • وفى السبعينات من القرن التاسع عشر زادت الحاجة الى الحصول على الأسلحة النارية يمثل اغراءا كبيرا للافريقيين الذين تهافتوا عليه • واضطرت سلطات المستعمرات الى التغاضى عن الحظر النظرى على حيازة الافريقيين للأسلحة النارية ، وكانت عملية انتهاك الحظر تتم فى شكل التراخى فى استكمال اجراءات استيراد السلاح بالشكل القانونى •

ويتضح مما جاء فى كتابات المعاصرين أن مستوردى الأسلحة فى مستعمرة الرأس كان يتعين عليهم قانونا أن يقدموا اقرارا يوضحون فيه الجهة التى سيبيعون لها السلاح ، وكانت السلطات فى المستعمرة تتجاهل هذا الاجراء حرصاً منها على زيادة استيراد السلاح ، وجمع حصيلة كبيرة من الضرائب الجمركية التى كانت تفرض على دخول السلاح الى المستعمرة • وبجانب هذا كانت السلطات لا تتقيد بما جاء فى قوانين المستعمرة الخاصة بضرورة استصدار الافريقيين تراخيص من القاضى العام لشراء الأسلحة وحيازتها ، كما كان التجار يتفقون مع السلطات على تجاهل مثل هذا الاجراء [٥٨] •

وفى مستعمرة الناتال كان من المقرر أن يتم دمغ الأسلحة وتسجيلها حالة استيرادها من أجل تسهيل مهمة ضبطها اذا تسربت الى أيدى الافريقيين ، ومعاقبة تجار السلاح الذين قاموا ببيعها لهم ، ولكن سلطات الناتال كانت تبدى تراخيا شديدا فى متابعة مصير الأسلحة النارية بعد انتهائها من دمغها وتسجيلها رغم ادراكها يقينا أنها تتسرب الى الافريقيين • ومن الناتال كانت الأسلحة النارية تتجه الى أرض الزولو والسوازى لاند وأما تونجالاند [٥٩] ، وفى الترنسفال كان يتم تهريب الأسلحة النارية

---

(58) Anthony Atmore and others op. cit. p. 547.

(59) F.O. 48/19 No. 372, Euan Smith to Salisbury, Dec. 15. 1888.

تحت عدد غير قليل من السلع التجارية المشروعة ، وتراخت السلطات فى تفتيش السفن ، وكانت تكتفى بالتفتيش الشكلى ، واثبات أنه لا توجد أسلحة نارية على ظهر السفن • ومن الترنسفال تتجه الأسلحة النارية الى شرق لومبوبو ، والى بلاد النجواتو Nagwato ومنطقة الزمبيزى الغنية بالعاج والرقيق والثروة الحيوانية (٦٠) • وكانت شحنات السلاح توزع علنا وبكميات كبيرة ، وبالتالى لم يكن الحظر على الافريقيين الا حظرا نظريا فقط •

وساعد على زيادة شحنات السلاح داخل جنوب افريقية وفى الأقاليم المجاورة التى تقع الى الشمال منها أن الافريقيين كانوا يعلقون أهمية كبيرة على حيازة السلاح حتى النوعيات المنخفضة منها الى جانب ارتباط تجار السلاح بتجارة السلع المشروعة الأخرى ، واستخدام الأسلحة النارية لفتح الانهار الداخلية للملاحة ، والوصول الى الأقاليم الداخلية ، وترويج التجارة الأوربية فيها ، وخاصة السلع التى كانت تحظى بطلب كبير عليها من جانب الافريقيين ، كالمشروبات الروحية • وتواكبت هذه العوامل مع ظروف التنافس الأوربى على افريقيا ، وسيادة مبدأ حرية التجارة ، وانعدام وجود أية حدود سياسية بين الأقاليم (٦١) ، وفضلا عن هذا كانت الأسلحة تستخدم لشراء الامتيازات والمنح من الزعماء الافريقيين ، وأدى هذا الى اندلاع الثورات فى لانجبرج فى البتشوانالاند ، وفى أرض الماشونا والميتابيلى والى زيادة شحنات الأسلحة الى الافريقيين ، وقد لعب الهولنديون (البوير)، والبرتغاليون الدور الأكبر فى تزويدهم بالسلاح ، كما كان للفرنسيين نصيب لا بأس به فى شحن الأسلحة اليهم ، وكانت سفن السلاح تأتى اليهم من موانىء مدغشقر لحساب الشركات الباريسية ، وحاولت انجلترا ايقاف شحن الأسلحة الى الزولو ، وطلبت من فرنسا التعاون معها غير أن فرنسا

(60) Sue Miers, Op. Cit., p. 571.

(61) Sue Miers, op. cit., p. 572.

اعتذرت عن عدم امكانية ذلك لأن السلاح كان يشترى فى أمريكا وينقل على سفن أمريكية [٦٢] ، وعلى هذا أصبح واضحا أن الأمر يحتاج الى اتفاقية دولية لوقف امدادات السلاح ، كما يحتاج الى التزام جماعى دولى ببنود مثل هذه الاتفاقية ، وكان هذا أمرا متعذرا فى ظل ظـروف التكالب الأوربى على الاستعمار ، والتسابق على الربح ، وزاد الأمـر خطورة أن أسلحة كثيرة تسربت الى أيدى الافريقيين فى ظروف حربى البوير والانجليز فى عامى ١٨٨١ و ١٨٩٩ [٦٣] ، وشجع هذا على رفع لواء الثورة ضد الأوربيين وجعل مسألة حظر الأسلحة على الافريقيين فى الداخل مسألة أكثر الحاحا فى جنوب افريقية •

وعلى هذا تعاونت المستعمرات فى تشديد الرقابة على شـحنات الأسلحة المتجهة الى الداخل ورغم فاعلية هذا التعاون ، فان الأسـلحة النارية ظلت ترسل الى الأفريقيين فى جنوب القارة وان قلت نسبيا •

وأرادت مستعمرات الجنوب أن تعوض خسارتها من قلة شحنات الأسلحة للداخل ، فعملت على زيادة شحنات الأسلحة المتجهة عبر موانيها وأراضيها الى الشمال ، وأيدت بريطانيا هذا الاتجاه بعـد أن أدركت صعوبة الوصول الى اتفاق مع الدول الأخرى لتقييد تجارة السلاح فى القارة الافريقية ، ففرنسا لا توافق على المنع بسـبب ظروف التنافس الانجليزى والفرنسى فى شرق القارة والأزمة المصرية ، واصرار الفرنسيين على جلاء الانجليز عن مصر • وكانت لانجلترا تجربة فاشلة مع ألمانيا ، بعد أن انتهت المباحثات التى دارت بين البلدين فى النصف الثانى من الثمانينات فى شأن حظر تجارة السلاح لمنطقة غرب الباسفيك الى طريق مسدود ، وكانت موافقة ألمانيا على أى حظر للسلاح فى جنوب القـارة

---

(62) C.O. 879/15 F.O. to C.O. April 2nd 1879, African No. 190.

(٦٣) لمزيد من التفاصيل حـول حربى البوير راجع شوقى عطا الله الجمل : « مرجع سابق » ص ص ٢٨١ — ٢٩٠ •

أمرا حيويا بسبب الوجود الألمانى فى شرق وجنوب غرب افريقيا [٦٤]. كما كان التعاون قائماً بين البوير والبرتغال من ناحية أخرى ، وكانت مستعمرتا الرأس والناتال تشكوان من تسرب التجارة البويرية الى الموانىء البرتغالية ، ومن الرسوم الجمركية العالية التى يفرضها البوير على التجارة الانجليزية المارة عبر أراضى الترنسفآل [٦٥]. وكان هذا التعاون البرتغالى البويرى حريا بأن يدفع الى الاعتقاد بأن البرتغال رغم اعلان استعداداتها لتنفيذ الحظر على السلاح المتجه الى جنوب القارة لن تلتزم به عمليا . وكان طبيعيا ألا تقدم بريطانيا من جانبها على حظر تجارة الأسلحة النارية لتخسر العوائد الكبيرة التى تجنيها منها ، ولتفتح المجال للدول الأوربية الأخرى لجنى هذه الأرباح . وعلى هذا اتفقت مصالح المستعمرات فى جنوب القارة مع مصلحة بريطانيا فى تحويل تجارة السلاح من المناطق الداخلية فى هذه المستعمرات الى الأقاليم التى تليها شمالا .

والغريب أن سولسبورى وزير خارجية بريطانيا كان يعتقد بعدم ضرر استمرار تجارة السلاح ، وكان من رأيه أن تجارة المشروبات الروحية لها آثار اجتماعية واقتصادية أكثر خطورة على الافريقيين ، وأنه من الأفضل أن نحاول الوصول الى اتفاق دولى لمنعهما . وكان سوسلبورى يرى أن حظر تجارة السلاح من شأنه أن يحد من قدرة بريطانيا على الدفاع عن مستعمراتها ومصالحها داخل افريقيا ، وأنه اذا لم يكن لبريطانيا قوات عسكرية فى منطقة جنوب وسط افريقيا ، فانها تستطيع من خلال انسياب امدادات الأسلحة البريطانية اليها تأييد الزعامات الموالية لها ، وتحويل المنطقة الى مجال للنفوذ البريطانى ، ومن ثم فان الفائدة التى تعود على بريطانيا تكون فائدة مزدوجة سياسية واقتصادية

---

(64) C.O. 879/31.. African 381. C.O. to F.O., March 5, 1886.

(65) Robinson, R. and others, Africa and the Victorians, London 1961, pp 218-220.

وعسكرية اذا ما استمرت أسلحتها تصل الى الشمال ، وأرسل سولسبورى مذكرة تحوى وجهة النظر هذه الى مستعمرة الرأس ، وردت المستعمرة على المذكرة بأنها لا توافق على وجهة نظره ، وأنها لا ترى خطورة كبيرة فى استمرار تجارة المشروبات الروحية (٦٦) •

ويبدو أن هناك من الأسباب ما جعل سولسبورى ينادى بالغاء تجارة المشروبات الروحية ، فتجارة المشروبات الروحية تجعل الافريقيين فريسة سهلة أمام غارات الرقيق والباحثين عن الامتيازات والاتفاقيات ، كما أن المشروبات الروحية أخف وزنا من الأسلحة ، ويسهل نقلها • ومن ثم تشحن بكميات كبيرة ، وفضلا عن هذا فان التجارة البريطانية لن تتأثر بهذا المنع لأن تجارة المشروبات الروحية كانت تصنع محليا للافريقيين ، ولا تستورد من بريطانيا لانخفاض النوعية المطلوبة للمستهلك الافريقى •

وعارضت مستعمرة الرأس اقتراح سولسبورى لأنه يعنى ضياع عوائد كبيرة عليها تفرضها على المشروبات الروحية التى تستهلك محليا (٦٧) •

ولم يعد البريطانيون فى حاجة الى اتفاقية دولية لحذر السلاح ، ففى عام ١٨٨٩ كتب هركليز روبنسون H. Robinson المندوب السامى البريطانى الى وزارة المستعمرات البريطانية يقول أن سياسة تقييد السلاح قد جربت من قبل وثبت فشلها لأن الحكام المعاديين لا يجدون صعوبة فى منطقة جنوب الزمبيزى فى الحصول على السلاح من البوير بينما ترك الحكام الموالون تحت رحمة أعدائهم • والغريب أن يأتى هذا التصريح من جانب مسئول بريطانى كبير كهذا فى وقت بدا فيه أن الوقت مناسب لعقد اتفاقية لتقييد تجارة الأسلحة النارية لأن الحملة من أجل القضاء على تجارة الرقيق كانت فى أوجها • ونادت الجماعات الانسانية بتقييد تجارة السلاح داخل نطاق الرق فى افريقيا لما لهذه التجارة

---

(66) C. O. 879/31 F.O. to C.O. March 23, 1887.
(67) Sue Miers op. cit., p. 574.

من علاقة بتسهيل صيد الرقيق • وألحت ألمانيا على تنفيذ طلب تقييد تجارة السلاح بعد أن اندلعت ثورة بوشيرى فى شرق افريقية الألمانية فى عام ١٨٨٨ (٦٨) ، وطال أمد مقاومة الثوار للألمان بسبب استمرار تدفق السلاح عليهم • والغريب أن بريطانيا أيدت مطلب الغاء تجارة الرقيق • لأن الرقيق أصبح غير مرغوب فيه بالنسبة لها بعد فقدان مستعمراتها فى أمريكا ، وكان من الأفضل لها أن تحل محل هذه التجارة غير المشروعة تجارة مشروعة عن طريق شحن فائض انتاجها الصناعى الضخم الى داخل افريقيا ، ورغم التأييد الكامل لالغاء تجارة الرقيق فقد كان لها وجهة نظر مختلفة بالنسبة لتقييد تجارة الأسلحة النارية • فبغض النظر عما تجنيه من عوائد ضخمة من هذه التجارة ، فقد كانت الظروف السياسية والاقتصادية التى تمر بها جنوب افريقيا فى أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر تدعو الى استمرارها على الأقل من وجهة النظر البريطانية ، وقد عبر لورد نتسفورد Knutsford وزير المستعمرات البريطانى عن هذه الحقيقة فى عام ١٨٨٩ بقوله : « أن الوقت لم يكن من قبل غير موات كما هو الآن بالنسبة لبريطانيا لعقد أية اتفاقية دولية لحظر أو تقييد تجارة الأسلحة النارية فى افريقية » (٦٠) •

والظروف التى تحدث عنها نتسفورد عشية انعقاد مؤتمر بروكسل الخاص بالغاء تجارة الرقيق فى عام ١٨٨٩ تتلخص فى أن ملك الميتابيلى لوبنجولا Lobengula كان يطالب بريطانيا بالعون ضد البرتغال ، لأنـــه كان فى حاجة الى السلاح للدفاع عن النفس ، فاذا لم يزوده البريطانيون به فسيفقدون صداقته ، وسيحصل على السلاح من البوير (٧٠) ، وكان خاما Khama ملك النجواتو Nagwato يخشى هجوم بويريا على أراضيه

(68) National Zeitung, Oci. 24, 1888.

(69) C.O. 879/31. African No. 381, C.O. to F.O. March 1st, 1889.

(70) Sue Miers, op. cit., pp. 575-576.

ولن يستطيع الحصول على السلاح اذا لم تزوده به بريطانيا [٧١] ، كما أن حماية النجواتو كانت مسئولية بريطانية مباشرة بسبب ظروف الحماية البريطانية على شمال البتشوانالاند • وكان رودس (Rhodes) قد وعد ملك الميتابيلى لامداده بالسلاح مقابل منح الملك لجماعة الامتياز المعروف بامتياز « رود «Rudd» كما أنه على أساس هذا الامتياز منحت جلالة ملكة بريطانيا براءة ملكية لشركة جنوب افريقيا البريطانية فى اكتوبر ١٨٨٩ ، وكانت هذه الشركة تضطلع بمهمة ادارة منطقة سبق لبريطانيا أن أعلنت أنها تدخل ضمن دائرة نفوذها [٧٢] • وعلى هذا فانها ستخلص بريطانيا من مهمة التورط المباشر فى أعباء الادارة اذا دعت الظروف لذلك •

وكان مد شمال البتشوانالاند ومملكة الميتابيلى بالسلاح يلقى تأييدا كبيرا من جانب المندوب السامى البريطانى روبنسون ، ومن نائبه فى محمية البتشوانالاند المبشر جون موفات ، وكانت تشحن الأسلحة النارية الى جنوب الزمبيزى وبلاد النجواتو بالتساوى ، بدعوى تمكين الافريقيين فى الملكتين من الدفاع عن النفس ، واستخدام الأسلحة فى الصيد ، واشترطت بريطانيا لاستمرار امدادات السلاح اليهما أن يظل حاكمهما القبليون على علاقات صداقة معها [٧٣] وخشت حكومة الرأس مغبة التورط فى شحن السلاح تجاه الشمال ، واصرت على ضرورة أن يقدم حاكم محمية البتشوانالاند البريطانى اقرارا اليها يتضمن اعترافه بمصدر الأسلحة المشحونة عبر أراضيه وموافقته على تصدير الأسلحة الى الجهات المخصصة لها ، ووافقت بريطانيا على ذلك [٧٤] • وطالب نتسفورد

(71) C.O. 879/31 African No. 581, knutsford to Loch Nov. 19, 1889.

(72) C. 5918 knutsford to Robinson Jan. 31, 1289 and Hole, M. Lohengula, London, 1929, pp. 29-30.

(73) Sue Miers, p. 576.

(74) Sue Miers, op. cit., p. 575.

وزير المستعمرات بابقاء شحنات الأسلحة الى البتشوانالند وما يليها شمالا دون عوائق ، على أن يتم ذلك تحت اشراف السلطات البريطانية ، وألا تعوقه أية ارتباطات دولية •

لكن بريطانيا لم تستطع تجنب الدخول فى ارتباطات دولية ، ففى نوفمبر عام ١٨٨٩ انعقد مؤتمر بروكسل الخاص بالغاء تجارة الرقيق ، واتخذت ألمانيا وبلجيكا زمام المبادرة ، ودعت الدولتان الى تقييد تجارة السلاح داخل نطاق الرق فى افريقيا ، واقترحتا أن يتم ذلك لمدة ٢٥ عاما واقترحت بريطانيا أن تقتصر هذه المدة على خمس سنوات فقط (٧٥) • وتدخلت الدول الأخرى المشتركة فى المؤتمر ، وانتهى المؤتمر باتخاذ توصية بتقييد تجارة السلاح داخل نطاق الرق لمدة اثنتى عشر عاما ، وكانت هذه التوصية تمثل صيغة حل وسط بين الاقتراح البلجيكى الألمانى والاقتراح الانجليزى (٧٦) •

ومن الطريف أن التقييد لم يشمل مستعمرات جنوب افريقيا ، وظهرت براعة الدبلوماسية البريطانية فى هذه الناحية ، اذ تعللت بريطانيا بأن هذه المستعمرات لها حكومات تتمتع بالحكم الذاتى ، وأن أراضيها لا تقع ضمن نطاق الرق ، كما أن لها قوانينها الخاصة بتجارة السلاح ، وأن أى محاولة لتقييد تجارة الأسلحة داخلها تعد بمثابة تدخل فى شئونها ، وأنها أى بريطانيا لا ترى من صلاحيتها أن تتدخل لحث

---

(75) Ibid., p. 576.

(٧٦) كانت من مصلحة بلجيكا أن يطول أمد تقييد السلاح النارى داخل نطاق الرق ، لأنها كانت تجابه معارضة شديدة من جانب العرب فى الكنغو ، وكان سلطان زنجبار يمدهم بالسلاح فى مقابل تسهيل مهمة الرق ، واشتراكه فى تجارة العاج فى الداخل ، وبالاضافة الى هذا فان بلجيكا كانت تريد حظرا حقيقيا للأسلحة على الافريقيين داخل أراضى الكنغو لتأمين خطر الثورة من جانبهم •

مستعمرات الجنوب على الموافقة على أمر قد يضر باقتصادها [٧٧] ، وعارضت ألمانيا والبرتغال عملية عدم التقييد لتجارة الأسلحة فى مستعمرات الجنوب على أساس أن استمرار هذه التجارة فيها قد يسهل تصدير السلاح الى جنوب شرق وجنوب غرب افريقيا ، ولم يكترث المؤتمر برأى الدولتين ، وتمت الموافقة على المشيئة البريطانية [٧٨] ، وقيدت تجارة الأسلحة النارية داخل نطاق يمتد بين خط عرض ٢٠° شمالا وخط عرض ٢٢° جنوبا .

وبالنسبة لمحمية البتشوانالاند التى كانت أراضيها متاخمة لنطاق الرق وافقت بريطانيا على عدم السماح بمرور أسلحة دقيقة فيها ، أما بالنسبة لأرض الماشونا وأرض الميتابيلى واللتين تقعان فى نطاق الرق ، فقد التزمت فيهما بريطانيا بتقييد تجارة السلاح ، ومنع حيازته بالنسبة للأفراد ، غير أنها احتفظت لنفسها بحق الدفاع عن مناطق نفوذها ، وتسليح من تراه من قوى داخلية ولأسباب تتعلق بالمحافظة على أمنها [٧٩] .

وقد نصت معاهدة بروكسل لعام ١٨٩٠ ، والتى لم تنفذ الا فى عام ١٨٩٢ — على حظر استيراد الأسلحة النارية والبارود والقذائف النارية والخراطيش داخل المناطق الافريقية الواقعة داخل نطاق الرق ، وشمل الحظر الجزر التى تقع على بعد مائة ميل من الساحل ، وقضت المعاهدة التى وقعتها سبع عشرة دولة أوربية بوجوب حفظ الأسلحة النارية المتقدمة فى مخازن حكومية ، أما الأسلحة العادية فيمكن حفظها فى مخازن

---

(٧٧) كانت المانيا تتهم بريطانيا بأنها تهرب الأسلحة النارية عبر أراضى مستعمراتها ، وتغرقها بالمشروبات الروحية ، وأن مستعمرة الرأس تشحن الأسلحة الى جنوب غرب افريقيا . للاطلاع على تفاصيل هذه الاتهامات — انظر : F. O. 84/1759

(٧٨) راجع المادة الأولى والثامنة من معاهدة بروكسل لعام ١٨٩٠ .

(79) F.O. 541/38 No. 118 C.O. to F.O. Feb. 21, 1890.

خاصة ، على ألا تباع الأسلحة فى مناطق تجارة الرقيق ، وأجازت بيع الأسلحة من جانب الادارات المسئولة للرحالة أو الموظفين الذين تتطلب مراكزهم حيازة السلاح ، بشرط تسجيل هذه الأسلحة ودمغها ، على أن تحتفظ الحكومات لنفسها بحق تسليح قواتها الخاصة فى المنطقة ، ويلاحظ على هذه المعاهدة ما يلى :

١ — أن الحظر على شحنات السلاح لم يشمل المناطق الساحلية ، وانما اقتصر على الداخل فقط ، وعلى هذا كان يمكن للادارات المستعمرة استيراد السلاح وتشوينه فى الساحل ثم تهريبه تدريجيا الى الداخل •

٢ — أنها أتاحت للحكومات حرية التعامل فى السلاح ، والاحتفاظ به تحت ستار أغراض أمنية وبيعه لما تراه من الموظفين ، ومن الطبيعى أن يجد مسئولو الحكومات من المبررات ما يتيح لهم بيع السلاح بهدف الحصول على الأرباح العالية •

٣ — أن الحظر على تجارة السلاح لم يشمل افريقيا بعامة ، وانما منطقة حددتها المعاهدة بخط عرض ٢٠° شمالا ، ٢٢° جنوبا ، ومن ثم كان من السهل شحن السلاح من المناطق التى تلى هذا النطاق شمالا أو جنوبا •

٤ — أن المعاهدة سمحت للدول الداخلية التى لا موانىء لها باستيراد السلاح مع تقديم تعهد باستخدامه فى أغراض مشروعة ، وكان من السهل اصدار هذا التعهد ، وعلاوة على هذا فان المعاهدة سمحت باستيراد السلاح فى حالة وجود اضطرابات فى المنطقة ، وكان من السهل افتعال الأسباب للادعاء بوجود القلاقل فيها •

٥ — أن الترنسفال لم تشترك فى التوقيع على المعاهدة ، وبالتالى فانها لم تلتزم بقراراتها أو بنودها • وسهل هذا شحن السلاح منها الى جنوب وسط افريقيا ، كما أن فرنسا رفضت الموافقة على مبدأ تفتيش

السفن التى يشك فى حملها للسلاح والمتجهة الى نطاق الرق ، ومن ثم ظلت هذه عقبة كؤود أمام تنفيذ الحظر ، واستمرت شحنات الأسلحة تصل الى الافريقيين فى الداخل ، واندلعت ثورة الميتابيلى والماشونا فى عام ١٨٩٦ وثورة الماجى ماجى فى عام ١٩٠٥ ، واستمرت الثورات الافريقية فترات طويلة بسبب وفرة السلاح لديهم • كما أن تجارة الرقيق التى من أجلها عقدت المعاهدة استمرت دون قيد فى المناطق الداخلية من افريقيا حتى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالى •

الآثار التى ترتبت على تجارة الأسلحة النارية :

ترتبت على تدفق السلاح على جنوب افريقيا آثار سلبية كثيرة اتضحت فى زيادة تحدى الافريقيين للسلطات المستعمرة واندلاع الثورات ضد الأوربيين احتجاجا على السياسات الاستعمارية الجائرة كسياسة العمالة الاجبارية وسياسة المعازل ، والطرد من الأراضى الخصبة ، وقوانين الانتقال والعبور (Pass Laws) من منطقة الى أخرى وقوانين الاقامة فى المناطق الاستيطانية ، وقوانين التفرقة العنصرية الأخرى الكثيرة التى عانى منها الافريقيون فى جنوب افريقية • ولم تقتصر هذه الآثار السلبية على جنوب القارة فقط ، وانما امتدت الى جنوب وسط افريقية وجنوبها الغربى ، وفى عام ١٨٩٦ نشبت ثورة فى جنوب البتشوانالاند التى ضمت الى مستعمرة الرأس عرفت باسم ثورة لانجبرج Langberg احتجاجا على سوء معاملة الأهالى ، واعدام أعداد كبيرة من الماشية بعد تفشى وباء الطاعون بينها ، والحظر على امدادات السلاح النارى لهم ، وطالت مدة مقاومة الافريقيين لقوات حكومة الرأس الأوربية الى أحد عشر شهرا بفضل الأسلحة المكدسة لديهم [٨٠] • وفى نفس العام

---

(80) J.O. Aldridge. The langberg Rebellion (1896-1897). M. A. Thesis, London University, 1968, unpublished, pp. 21.

اندلعت ثورة الماشونا والميتابيلى فى جنوب الزمبيزى بسبب سياسة الأراضى وحاجة الافريقيين الماسة الى أماكن مناسبة لسكناهم [٨١] .
وفى جنوب غرب افريقيا الألمانية تمكن الهيرورو والناما Herero and Nama بفضل ما لديهم من سلاح نارى أن يرفعوا لواء الثورة ضد الألمان فيما بين عامى ١٩٠٤ ، ١٩٠٧ وأوقعت هذه القبائل خسائر كبيرة مادية وبشرية بالمستعمرين ، وطال أمد المقاومة رغم ما فرضه الألمان من حظر على امدادات السلاح عن طريق خليج ويلفس (Walvis) وساعد على طول أمد المقاومة الافريقية أن السلاح ظل يصل الى الثوار عن طريق التهريب عبر خليج ساندوتش Sandwich لأرباح السلاح العالية [٨٢] .

وأدت الأسلحة النارية الى قلب موازين القوى بين الافريقيين ، وترجيح كافة الحائزين على كميات كبيرة منها على جيرانهم الذين يقلون عنهم تسلحا بها ، ففى شمال البتشوانالاند التى أعلنت عليها الحماية البريطانية فى عام ١٨٨٢ رجحت كفة قبائلها من النجواتو Magwato على الميتابيلى نتيجة تسليح البريطانيين لهذه القبائل بها ، وتزويدهم لها بأسلحة متقدمة . وبعد أن كانت هذه القبائل تابعة للميتابيلى تمكنت من هزيمتها فى عام ١٨٦٣ ، كما حولت قبائل الكالانجا ولائها من الميتابيلى الى النجواتو نتيجة لتفوق القبائل الأخيرة [٨٣] . واستخدمت الأسلحة النارية فى تصفية الخلافات القبلية عن طريق الردع ، وتدخل الافريقيون فى هذه الخلافات وشجعوا فريقا ضد الآخر مما أدى الى احتراق القرى

---

(٨١) راجع الأوراق البرلمانية تحت رقم 7555 .C للرجوع الى تفاصيل ثورة الميتابيلى .

(82) Bley, H. South West Africa under German Rule, London 1971, pp. 150-151.

(٨٣) سعد زغلول عبد ربه : تجارة الرقيق وآثارها على استعمار غرب افريقيا — المجلة المصرية للعلوم التاريخية — ١٩٧٤ .

ودمارها ، وقتل الكثير من الافريقيين [٨٤] • وتنافس الزعماء الافريقيون للحصول على الأسلحة ودخلوا فى اتفاقات غير متكافئة مع الأوربيين من أجل تزويدهم بالسلاح ، كما منحوهم امتيازات فى أراضيهم كما حـــدث عندما منح الميتابيلى لجماعة رود Rudd الامتياز الذى على أساسه تأسست شركة جنوب افريقيا البريطانية التى تولت استعمار منطقة الزمبيزى فى عام ١٨٨٩ •

واستخدم الأوربيون الأسلحة النارية ضد الافريقيين فى ازاحتهم من أماكنهم كما حدث حين أزاح البوير قبائل الزولو شمالا ، وأجبروهم على عبور نهر اللمبوبو فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كما استخدموا الأسلحة النارية فى صـــيد الرقيق من أجل استخدامه فى الزراعة والخدمة المنزلية ورعى ماشيتهم ، وفى ارهاب الافريقيين العزل واجبارهم على تنفيذ أوامرهم • وسقط الكثير من الافريقيين نتيجة أعمال الارهاب التى شنها الأوربيون ضدهم ، ولم ينس الافريقيون ســـوء المعاملة الأوربية ، ومن ثم حرصـــوا على حيازتها واستخدامها وتعلم صيانتها واصلاحها • وقدموا خدماتهم فى مناجم الذهب والماس ثمنا للحصول عليها منذ السبعينات من القرن التاسع عشر ، ولا غرابة أن تنشب فى أواخر السبعينات أعمال عنف كبيرة من جانب الافريقيين ضد الأوربيين فى جنوب افريقيا ، اذ تتحدث وثائق وزارة المستعمرات عن حـــروب الاكسهوزا xhosa والسوتو Sotho والبدى Pedi مع السلطات المستعمرة فى عام ١٨٧٨ [٨٥] • وتشير هذه الوثائق الى طول أمد مقاومة الثوار

---

(٨٤) للاطلاع على تفاصيل امتياز رود ــ انظر الفصل الثانى من رسالة الدكتوراة غير المنشورة ل • (محيى الدين محمد مصيلحى) ــ الاســـتعمار البريطانى فى روديســـيا الجنوبية ــ ١٩٢٣ ، جامعة عين شمس ــ كلية الآداب ــ ١٩٨٢ •

(85) Shula Marks and Anthony Atmore op. cit., p. 525.

الافريقيين ضد الجيوش الامبريالية ، كما تشير الى شكاوى المستعمرين من حيازة الافريقيين لأنواع متقدمة ودقيقة من الأسلحة وصفوها أنها أفضل مما لديهم من الأسلحة •

وشجعت تجارة الأسلحة النارية وازدهارها فى أواخر القرن التاسع عشر البرتغاليين على الاستمرار فى صيد الرقيق من مستعمراتيهما فى موزمبيق وأنجولا (٨٦) • وتعرضت المستعمرتان لنزيف سكانى كبير ، وكانت الحصون البرتغالية على سواحلهما مراكز لاستقبال الرقيق من الداخل وشحنه الى خارج القارة الافريقية • ويبدو أن أنجولا قد عانت أكثر من موزمبيق من جراء تجارة الرقيق حتى أنها سميت بالأم السوداء بسبب قربها من البرازيل التى ظلت البرتغال تشحن اليها الرقيق فترة طويلة •

وأدت زيادة الأسلحة النارية الى زيادة صيد الفيلة من جانب القبائل الافريقية ، واشتركت قبائل جنوب افريقيا فى جمع العاج والاتجار به ، وحتى منتصف السبعينات كان معظم السلاح النارى يوجه لعمليات الصيد ، وكانت عائدات تجارة العاج مرتفعة للغاية قدرتها الرحالة النمساوية اميلى هولوب (Emile Hollub) فى الثمانينات من القرن الماضى بنحو ثلاثة آلاف جنيه سنويا ، وهو دخل زعيم التسوانا من هذه التجارة (٨٧) ، ويقدر هيل (Hill) أن ما تم صيده من الفيلة فى عام ١٨٧٧ فى الشوشونج Shoshong عاصمة بلاد النجواتو باثنى عشر ألف فيل جمع منها ما يربو على ١٥٠ ألف رطل من العاج (٨٨) •

---

(٨٦) صبحى محمد نافع : تجارة الرقيق فى غرب افريقيا وآثارها الحالية ، رسالة دبلوم معهد الدراسات الافريقية ١٩٧٠ صص ٥٦ — ٥٧ .

(87) Emile Hollub, Seven years in South Africa, London, 1881, p. 386.

(88) H.M. Mill, The Passing of Black kings, London, 1932, pp. 129-131.

ويلاحظ أنه رغم استخدام الأسلحة النارية فى الحروب القبلية بين الافريقيين ، فأن هـذا الاستخدام كان محدودا للغاية لارتفاع أثمـان الأسلحة التقليدية عليها • وظل الحال على هذا حتى السبعينات من القرن التاسع عشر حين أدت زيادتها فى أيدى الافريقيين الى استخدامها فى أعمال العنف ضد بعضهم بعضـا تدفعهم الى ذلك المنافسـات القبلية والمشاحنات حول المرعى والماشية ، ولا شك أن الأسلحة النارية قد أحدثت ثورة فى مجال الفتك ، وأسهمت فى تأخر الافريقيين حضاريا ، فبدلا من الاستفادة من هذه الأسلحة النارية المتقدمة فى حماية وتأمين بلادهم ، استخدم الافريقيون الأسلحة هذه فى تدمير مزارع أعدائهم القبليين وقتل ماشيتهم ، وأدت هذه الأسلحة الى زيادة تخفيض الكثافة السكانية فى المناطق الافريقية ، وذلك نتيجة استخدام الأوربيين لها فى ابادة الثوار الافريقيين واقتحام القلاع •

ولم يخل استخدام الأسلحة النارية من آثار ايجابية لأنه ترتب على هذا الاستخدام فتح المناطق الداخلية ، وتشجيع حركة الكشـف الجغرافى ، وتم الوصـول من الجنوب الى نهر اللمبوبو ، والزمبيزى واستكشـفت بحيرة نياسا [٨٩] ، ودخـل المبشرون الأوربيون لتعليم المسيحية ونشرها ، كما صحب دخول الأسلحة النارية تشجيع التجـارة المشروعة فى داخل جنوب القارة ، وكانت قوافل التجارة تعبر من الساحل الى الداخل فى حماية التجار المسلحين بالأسلحة المتقدمة ، وزادت عمليات المقايضـة بين الافريقيين والأوربيين ، ودخلت الى جنـوب القـارة المصنوعات الأوربية كالملابس القطنية والخرز ، وتم مبادلة هذه المنتجات غالبا بالعاج — الذى تهافت الأوربيون عليه [٩٠] •

(89) Evans, I, The British in Tropical Africa, Cambridge 1929, pp. 20-22.

(٩٠) كان عاج جنوب شرق القارة أفضل انواع العاج لأنه يتسم بنعومة ملمسه واشتداد بياضه ، وكان يفضل عاج غرب افريقيا ، ومن ثم كان التهافت عليه ، والغريب أن هذا العاج كان أرخص سعرا لوفرته وسهولة الحصول عليه نسبيا •

وأحدثت تجارة الأسلحة النارية عدة تغيرات سياسية أهمها ازاحة الأوربيين للقبائل الافريقية ، كما حدث عندما أزيح الزولو من جنوب افريقية الى جنوب الزمبيزى وأرض الماتيكا والجازالاند ، وظهرت فى هذه المناطق الجديدة ممالك بانتوية افريقية محاربة مثل مملكتى الميتابيلى والجازا ، غير أن هاتين المملكتين ما لبثتا أن سقطتا بعد أن نشط التجار الأوربيون والمغامرون فى التقدم من الجنوب صوب الشمال تدفعهم قصص وأساطير كنوز الذهب الموجودة فى تلال زمبابوى •

وكانت الأسلحة النارية وسيلة قمع وقهر مارس الأوربيون من خلاله السيطرة على الافريقيين وأجبروهم على زراعة أراضيهم ورعى ماشيتهم واستقطعوا أراضيهم الخصبة •

كما حطم الأوربيون من خلال حيازتهم للأسلحة المتقدمة الحركات الثورية الافريقية التى اندلعت ضد تسلطهم واستغلالهم •

ومن الناحية الاقتصادية كانت هذه الأسلحة وسيلة أغرى بها الأوربيون الافريقيين فى جنوب القارة وجنوب وسطه لجذب طاقاتهم العاملة لاستغلال مناجم الذهب والماس ، كما كانت وسيلة لابتزاز الأموال من الافريقيين وخداعهم لأن الأسلحة العتيقة العديمة الجدوى بالنسبة للدول الأوربية والفاسدة أحيانا كانت تباع للافريقيين بأسعار مرتفعة مستغلين جهلهم بفنية السلاح وطرق استخدامه • واتضح الاستغلال فى التباين الشديد بين ثمن القطعة الواحدة من السلاح فى المناطق الساحلية والمناطق الداخلية ذلك أنها كانت تباع فى الداخل أحيانا بنحو عشرة أضعاف ثمنها فى منطقة الساحل ، وهذا الارتفاع يصعب تبريره بتكلفة النقل الى الداخل ، وعلاوة على هذا فان السعر فى المناطق الداخلية نفسها كان يختلف اختلافا شديدا فى حالة السلام والاضطرابات ، ففى أثناء الاضطرابات كانت أسعار السلاح ترتفع ارتفاعا جنونيا •

ومن الناحية الاجتماعية استخدم السلاح ضد الافريقيين الذين تشردوا وانتقلوا الى مناطق نائية غير صالحة للسكنى ، كما حصدت أرواح الكثيرين منهم أمام الأسلحة الأوربية المتقدمة ، وسقط منهم الآلاف فى القتال مع الأوربيين كما حدث فى ثورة الماشونا والميتابيلى ، وارتد السلاح الى قلوب مروجيه بعد أن استخدمه الافريقيون ضدهم فى الحروب الكثيرة التى اندلعت ضد الأوربيين فى جنوب القارة فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر •

وأدت حروب الابادة والقهر ضد الافريقيين الى توتر العلاقات الاجتماعية بينهم وبين الأوربيين ، وأسفرت هذه الكراهية عن السياسات العنصرية الكثيرة مثل سياسة المعازل الافريقية والفصل الاقليمى — وهى السياسات التى أصبحت السمة المميزة للسياسة الأوربية تجاه الافريقيين منذ عهد الاستعمار حتى الآن فى جنوب افريقية ، كما أدت حيازة الافريقيين للأسلحة الى عمليات دمار نسبية بسبب استخدام السلاح ضد المنافسين القبليين ، وترتب على هذا أن ساد جو من التشاحن والتنافس الشديد بين القبائل الافريقية •

وخلاصة القول أن هذه الدراسة انتهت الى نتيجتين هامتين :

النتيجة الأولى :

أن تجارة السلاح فى جنوب القارة الافريقية وجنوب وسطها استمرت دون قيد خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وزاد حجمها الى درجة هددت أمن واستقرار القبائل فى الداخل ، وأرقت فى الوقت نفسه المستعمرين الذين واجهوا قوة افريقية مسلحة حركها الاحساس بالظلم الى شهر السلاح فى وجههم •

النتيجة الثانية :

أن جهود التقييد لتجارة السلاح داخل جنوب افريقيا أو ما يليها شمالا قد منيت بفشل كبير بسبب ارباح التجارة العالية وتهافت الافريقيين

على الحصول على السلاح ، والتنافس الاستعمارى بين الدول ، واختلاف المصالح ، وعدم الالتزام الجماعى بقرارات التقييد داخـل مستعمرات الجنوب ، واستحالة الاتفاق دوليا على الحظر والتقييد • ونجم عن تدفق التجارة عصف بالقيم والأخلاقيات ، ولم تفلح الجماعات الانسانية فى الضغط وأحداث التقييد ، ودفع افريقيو جنوب القارة وجنوب وسطها ثمن هذه السياسية المادية واللاأخلاقية التى تتاجر بالأرواح ، ولم يستطع الأوربيون من بائعى السلاح الافلات من سوء مغبة تجارتهم ، وسقط منهم الكثير فى الثورات الافريقية • وظلت مستعمرات الجنوب تحاول الالتزام بالتقييد الداخلى على سكانها الافريقيين •

ومع هذا ظلت هذه المستعمرات خلال العقود الأولى من القرن الحالى تعانى من استمرار تهريب السلاح النارى الى الافريقيين فى أراضيها الداخلية •

(مكتبة البحث)

أولا ــ وثائق غير منشــورة :

(أ) وتشمل وثائق وزارة المستعمرات البريطانية التالية :

C.O. 107.

C.O. 417-91.

C.O. 879/14, 15, 17 and 31.

(ب) وثائق وزارة الخارجية البريطانية التالية :

F.O. 84/1759 and 1911.

F.O. 541/38.

F.O. 5732/73.

ثانيا ــ وثائق منشــورة :

وتشمل أوراق برلمانية بريطانية وهى :

1. C. 5918 (1889) Further Correspondence Respecting The Affairs of Bechuanaland and the Adjacent Territories.
2. C. 8547 (1897) Report by sir R.F.R. Martin on Native Administration of the British South Africa Company.

كما تشمل معاهدات منشورة فى :

Hertslet, E. The Map of Africa By Treaty, London 1909, (3, Volumes).

ثالثا ــ رسائل جامعية متخصصة (غير منشورة) باللغة الانجليزية :

1. Aldridge, J.A. : The langberg Revolution (1896-1897) : M.A. London University Thesis, 1961.
2. Beach, D.N. The Rising in South Western Mashonaland (1896-1897), P.H.D. London, University Thesis, 1971.

رسائل جامعية غير منشورة باللغة العربية :

١ — صبحى محمد نافع : تجارة الرقيق فى غرب افريقيا وآثارها الحالية ، رسالة دبلوم معهد الدراسات الافريقية ١٩٧٠ .

٢ — محيى الدين محمد مصيلحى — الاستعمار البريطانى فى روديسيا الجنوبية — رسالة دكتوراة غير منشورة — جامعة عين شمس — كلية الآداب ١٩٨٢ .

رابعا — دوريات علمية تصدر باللغة الانجليزية :

1. Anthony Atmore and others : Firearms in South Central Africa Journal of Africa History, Vol. 12, No. 4, 1971.
2. Anthony Atmore and peter Sanders : Sotho Arms and Ammunition, Journal of African History, Vol. 12 No. 4, 1971.
3. Beachey R.W. The Arms Trade in East Africa in the late 19th century, Journal of African History, Vol. 3, No. 3, 1962.
4. Guy, J. J. A Note on Firearms in the Zulu Kingdom, Journal of African History, Vol. 12 No. 4, 1971.
5. Marks, Shula and Anthony Atmore, Firearms in Southern Africa Journal of African History, Vol. 12, No. 4, 1971.
6. Miers, Sue, Note on the Arms Trade and Government Policy in southern Africa between 1870 and 1980, Journal of African History, Vol. 12, No. 4, 1971.
7. Smith, K.W. The Fall of Bapedi of the North Eastern Transvaal, Journal of African History, Vol. x. No. 2, 1969.

(ب) دوريات تصدر باللغة العربية :

سعد زغلول عبد ربه : تجارة الرقيق وآثارها على استعمار غرب افريقية ، المجلة المصرية للعلوم التاريخية ١٩٧٣ .

(جـ) مراجع أجنبية :

1. Alpert, paul, Economic History of Europe in the 20th century, New York, 1951.
2. Barlet, Vernon, Struggle for Africa, London, 1935.
3. Bennet, N. O. Leadership in East Africa, Boston, 1968
4. Bley, H. South West Africa Under German Rule, London, 1971.
5. Brookes, E. H., The History of Native Policy in South Africa, Pretoria, 1927.
6. Cary Robert, Chartered Royal, Salisbury, 1970.
7. Chanler, W. A. Through Jungle and Desert, London, 1876.
8. Evans, I, The British in Tropical Africa, Cambridge, 1929.
9. Galbraith J. S. Crown and Charter, London, 1974.
10. Glass S. The Matabele War, London, 1968.
11. Hamilton, Agra, The Native Policy of the Voortrekers, Capetown, 1928.
12. Hill, M. M. The Passing of Black kings, London, 1923.
13. Hole, M. Lobengula, London, 1929.
14. Hollub, Emile, Seven years in South Africa, London, 1938.
15. Kewiet, De The Imperial Factor in South Africa, London, 1937.
16. Palgrave W. E. A Mission to Damaraland and Nmaqualand, Capetown, 1877.

17. Range, T.O. Revolt in Southern Rhodesia, London, 1967.

18. Robinson, R. and Others, Africa and the Victorians, London, 1961.

19. Smith, Moore (ed.) The Autobiography of General Sir Harry Smith, London, 1903.

20. Wallis, J. P. R. The Matabele Journals of Robert Moffat, — London, 1945.

الجهود الدولية لالغــاء الرق
فى أفريقيـــــا

د٠ عبد الله عبــد الرازق ابراهيم

مدرس بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية
جامعة القاهرة

تعد تجارة الرقيق وصمة عار على الحضارة المسيحية عندما بدأت الدول الأوربيـــة عمليات استرقاق الجنس البشرى خاصة عندما بدأت كل من أسبانيا والبرتغال شحن الرقيق الى جزر الهند الغربية مع حلول القرن السادس عشر واستمرت هذه التجارة البشـــعة فى البشر طوال أربعة قرون من الزمان وشاركت بريطانيا فى هذه التجارة بشكل واضح خصوصا بعد أن صـــار الرق مصدر رخاء للتجار البريطانيين ولا ينسى التـــاريخ ماقام به الانجليز من جهود فى تجـــارة الرقيق منـــذ القرن الســـادس عشر حيث كان القرصـــان الانجليزى ســـير جـــون هوكنز (Sir John Hawkins) أول بريطانى يؤمن بجدوى تجارة الرقيق التى تحقق أرباحا تفوق أرباح الاتجـــار فى الذهب أو العـــاج وقـــد بدأ مغامراته فى هـــذا المجال عندما رسى فى سيراليون لأول مرة فى الثامن من مايو ١٥٦٢ وأسر ٤٠٠ أفريقى وباعهم للأســـبان فى العالم الجديد وذلك مقابل ٢٥ جنيها للأفريقى وتبعـــه فى هذا المضمار عدد آخر من التجار الانجليز [1] ٠

---

(1) Elias, T.O. : Ghana and Sierra Leon, London, 1962, p. 219.

وكانت الشركات البريطانية تعمل أولا فى ميدان تجـارة الذهب ولـكنها بدأت تتجه الى الرقيق ، وكانت أول دفعة من هذا الرقيق قد وصلت الى فرجينيـا (Virginia) فى عام ١٦٢٠ وبلغ عددهم عشرين الفا فقط (٢) .

ومنذ عام ١٦٤٠ بدأ الانجليز يصـدرون الرقيق الى مستعمراتهم ومستعمرات الدول الأخرى فى الأمريكتين ، ولمـا كانت هذه التجارة تدر أرباحا طائلة فقد تحول عدد كبير من الانجليز الى تجار رقيق حتى أن عدد الرقيق الذين حصل عليهم البريطانيون فى عام ١٧٠٠ حوالى ١٥٠٠٠ عبد نقلهم الانجليز عبر الأطلسى . وزاد هذا العدد الى ٤٠٠٠٠ فى عام ١٨٠٠ وبلغ عـدد السفن البريطانية التى كانت تعمل بنقـل الرقيق حوالى ١٩٢ سفينة يتبع ليفربول وحدها ١٠٧ سفينة ويتبع لندن ٥٨ سفينة وبرستول ٢٣ سفينة بالاضـافة الى أربعـة سـفن تخص لانكستر . وكانت سعة هذه السفن ٥٠٠٠ عبد وصارت منطقة سيراليون أهم المصـادر الرئيسية للرقيق فى القارة الأفريقية ، وكان تجار الرقيق يقيمون مخازن وحظـائر لحفظ الرقيق المخطوفين وكانت تلك المخـازن تقام داخل قلاع وصل عـددها فى عام ١٧٩١ حوالى ٤٠ قلعة . وكان يتبع الهولنديون وحـدهم ١٥ قلعـة وللانجليز ١٤ قلعـة ولـكل من البرتغاليين والدانماركيين أربع قلاع ، أما الفرنسيون فكانت لهم ثلاث قـلاع .

لقـد كان دخول الدول الجـديدة الى ميدان تجارة الرقيق وبالا على سكان أفريقيا (٣) اذ قامت هذه الدول مجتمعة بالعمل فى الرق الجمـاعى وأخذت بريطانيـا مكان القمة فى هذه التجارة حيث وصل عـدد الرقيق الذين أرسلوا الى الممتلكات البريطانية وحـدها فيما بين أعوام ١٦٨٠ ، ١٧٨٦ الى مليونين ومائة وثلاثين الفا . واذا قـدرنا أن

---

(٢) رياض زاهر : استعمار أفريقيا ص ٧٠ .

(٣) خلف الله ، عبد الغنى عبـد الله : مستقبل أفريقيـا السـياسى القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٢٩ .

ماوصل الى المستعمرات كان نصف ماخرج من أفريقيا لأدركنا أى خلل تعرضت له أفريقيا خلال القرن السابع عشر حيث قدر ماوصل الى المستعمرات الأوربية كلها حوالى أربعين مليونا وهذا يعنى أن قارة أفريقيا خسرت قرابة ثمانين مليونا [٤] .

وليس أدل على سوء المعاملة التى كانت يلقاها الرقيق من جانب الأوربيين من تعليق لهورس مان (Horace Maann) النائب عن ولاية ماسوشيتس الأمريكية فى مجلس العموم فى ٣٠ يونية عام ١٨٤٨ حيث جاء فيه (ان الانسان اذا ما أراد أن يصف الأفعال التى يخجل منها الأشرار فيمكنه القول أن بريطانيا العظمى كانت الأم بينما كانت مستعمراتها الأمريكية بنات لها ، وكانت الأم تلهث من أجل الحصول على الذهب وحتى يمكنها الحصول عليه فعقدت اتفاقا مع اللصوصية والموت وكانت وسائلها للحصول على أغراضها من هذه التجارة فى الرقيق هى القيود والسلاسل الحديدية والأسلحة النارية وغيرها لاصطياد الجنس البشرى وقد جعلت من أفريقيا مسرحا لصيدها ومن أهلها فريسة لها ومن مستعمراتها سوقا لها ، فقد اندفعت الى حيث يسكن السود كالذئب الى حظيرة الغنم فى منتصف الليل ، وأشعلت فى القارة الأفريقية النيران حتى تتمكن من الامساك بأهلها العزل وهم يهيمون على وجوههم من لهيب النيران وتركت الأطفال والشيوخ للهلاك أما الأقوياء من الرجال والنساء فقد ساقتهم فزعين مضطرين الى الشاطىء مقيدين ومغلغلين كالبضائع على مراكب ليس بها أية تهوية ومتلاصقين لدرجة لا تسمح حتى بمرور الهواء بينهم لتبدأ رحلتهم عبر المحيط وقد تفتح لهم فتحات المراكب مرة يوميا لامدادهم ببعض الطعام أو اخلاء الموتى .. حتى تصل المراكب الى الشاطىء فيكافىء الأوغاد من أهل الأرض الجديدة اللصوص بشراء ضحاياهم) [٥] .

---

(٤) الجمل ، شوقى : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، القاهرة ١٩٨٠ ص ١٤١ .

(5) Goodell, William Slavery and Anti-Slavery, New York, 1852, p. 9.

وأثناء هذه الرحلة فى التجارة المثلثة كانت تتبع أقسى الوسائل الوحشية التى كانت تؤدى فى معظم الأحيان الى هلاك عدد كبير من الرقيق ، وكان العبيد يجبرون على فتح أفواههم لبلع الطعام بواسطة قضبان حديدية محماه فى النار رغم شعورهم بالمرض ، كما كانوا يجبرون على الرقص والغناء وذلك بالقفز الى أعلى مع خبط ملابسهم بقوة لتحدث صوتا ومن يرفض يتم ضربه بالسياط كما كان الرقيق يربطون بالسلاسل والقيود الحديدية مع بعضهم أزواجا وهم عرايا تماما ويتم شحنهم فى المراكب فى مساحة لا تتجاوز للفرد ١٨ بوصة حتى لا يلتفت أى عبد وراءه أو على جانبه وحتى دون مراعاة لأى ناحية صحية وذلك حتى يمكن شحن أكبر عدد ممكن من الرقيق .

وهناك قصص كثيرة يصعب حصرها عن تلك المعاملة القاسية التى كان يواجهها الرقيق ونأخذ مثالا واحدا لتلك الأعمال غير الانسانية لسفينة انجليزية تدعى زونج (Zong) أبحرت عام ١٧٨١ فى رحلتها عبر الأطلنطى وهى محملة بكامل حمولتها من الرقيق ، وعندما اكتشف أن مياه الشرب غير كافية لهذا العدد الذى تحمله السفينة وخوفا من هلاك ركابها فقد تم الالقاء بحوالى ١٣٢ عبدا فى عرض البحر حتى يمكن استرداد قيمة الخسارة من شركة التأمين وبالفعل تم تعويض السفينة بواقع ٣٢ جنيها استرلينيا عن كل عبد وذلك على اعتبار أن هذا الرقيق عبارة عن ممتلكات أو متاع لولا التضحية به لفقدت كل الشحنة وأيدت المحاكم الأمريكية ذلك وقررت أنه لا تنطبق عليهم أية جريمة من جرائم القتل [٦] .

وظهرت الوحشية فى ممارسة هذه التجارة حيث شلت مظاهر الحياة الأفريقية وصارت الأرض التى نزلها الأوربيون أحلك بقاع العالم ظلاما وسوادا وعزلة ومن الحقائق التاريخية أن الأفريقيين أنفسهم لطخوا أيديهم بهذه الدماء فاشتركوا مع غيرهم من التجار

---

(6) Burns Alan : History of Nigeria, London 1955, p. 69.

الأوربيين بنصيب وافر فى هــذه التجارة • اذ لم يكن التاجر الأوربى يجرؤ على التوغل فى الداخل خوفا من فقدان حياته وكانت بعض القبائل الأفريقية التى عرفت بالقسوة والشجاعة معا توفر على التاجر الأوربى كل هذه المخــاطر ، فيسوقون بنى جنسهم بالألوف الى الشواطىء تحت لهيب السياط ، واستمر الرق ، والقارة تتعرض لحملات منظمة والتجار الأوربيون يشجعون استمرار هذه التجارة التى كانت تدر أرباحا طائلة حتى أواخر القرن الثامن عشر ووصــلت تجــارة الانجليز فى الرقيق ذروتها قبل حرب الاستقلال الأمريكية ، وكانت ليفربول أهم موانيهــا والى جانبها لندن وبرستول ولانكستر [٧] •

وأدرك الانجليز أن التاريخ لن يغفر لهم ما اقترفوه من آثام فى حق الجنس البشرى بممارستهم هــذه التجــارة فى الجنس البشرى ، فتكونت بعض الجمــاعات الانسانية لمــكافحة الرقيق ومن أبرز أعضاء هذه الجماعات توماس كلاركسون (Thomas Clarkson) الذى سافر الى برستول وليفربول لجمع البيــانات عن الرقيق ، واســتطاع أن يجمع العديد من المعلومات عن هذه التجارة وحمل معه عند عودته نماذج من قيود اليــدين وقيود القدمين ، ونزعات الأظافر وفاتحات الفم وأسياخ الحديد التى كانت تكوى بها أجسادهم عند كتابة أسماء أسيادهم على ظهورهم وكذلك الأطواق التى كانت تشد اليهــا رقابهم حتى لا يفرون الى الغابات [٨] •

كما نقل جون نيوتن (John Newton) أحد تجار الرقيق الذى صار قسيسا بكنيسة سان مارى بلنــدن صــور عن سفن العبيد أثناء الرحلة عبر الأطلسى الى العالم الجديد • ولعبت الــكنيسة دورا ملحوظــا فى الدعوة الى الغــاء تجارة الرقيق حيث أصــدر البابا ليو العاشر (شغل

---

(٧) رياض زاهر : مرجع سابق ص ٧٢ •

(٨) عطية ، أحمد محمد : دفاع عن الزنوج ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٤ •

منصب البابوية من ١٥١٣ ــ ١٥٢٢) قرارا ضد العبودية • كما أصدر الامبراطور شارل الخامس أمرا فى عام ١٥٤٢ يقضى بمنع الاتجار فى الرقيق وباطلاق جميع العبيد فى أمريكا الأسبانية ، كما وجهت الملكة اليزابيث لوما شديدا الى جون هوكنز الذى نقل العبيد فى عام ١٥٦٢ الى جزيرة هسبيانيولا وتحركت قوى أخرى تدفعها الشفقة والرحمة على أبناء الجنس البشرى ، فأصدرت جماعة الكويكرز (Quakers) قرارا فى عام ١٧٢٤ ضد تجارة الرقيق [٩] •

وفى عام ١٧٨٣ أسست هذه الجماعة أول جمعية لالغاء الرق فى بريطانيا وقامت بحملة واسعة من أجل القضاء على هذه التجارة وخاصة فى غرب أفريقيا وكانت هذه الجمعية أول واحدة من نوعها فى العالم وكان ذلك سببا لتحرك طوائف الكويكرز فى المستعمرات البريطانية فى أمريكا فطردت من بينها كل من يمتلك عبدا ورفض تحريره [١٠] •

وعندما ثارت المستعمرات البريطانية فى أمريكا ضد الحكومة وحاربت الانجليز وحصلتعلى استقلالها فى عام١٧٨٣ وعد البريطانيون أثناء الحرب العبيد هناك بمنحهم الحرية اذا ما تخلوا عن أسيادهم من الأمريكيين وقد هرب عدد كبير منهم وانضموا الى القوات البريطانية ورحل عدد منهم الى لندن بعد الحرب حيث صاروا أحرارا ولكنهم كانوا فقراء فاضطروا الى الاستجداء فى الشوارع وصاروا فيما بعد مصدر قلق فى المجتمع •

وتحركت بعض الشخصيات البارزة فى المجتمع تدافع عن تلك الفئات المنكوبة وأخذت هذه الشخصيات تقود حملة ضخمة لاقناع

---

(٩) يونس ، محمد عبد المنعم : أفريقيا بين الاسترقاق والتحرر . ص ٤٢ •

(١٠) رياض ، زاهر : مرجع سابق ، ص ٧٧ .

الشعب البريطانى بفظاعة هـذه التجارة ويطالبون بالغائهـا والقضـاء عليها ومن تلك الشخصـيات جرانفيل شـارب (Granville Sharp) الذى التقى بأحد العبيد ويدعى جوناتان سترونج (Jonatan Strong) الذى كان عبدا عند أحد المحامين فى جزيرة بربادوس وقد لقى هذا العبد معاملة قاسية من سيده انتهت بفقدان احدى عينيه (١١) .

قام شارب بطبع نشرة عن سـوء معاملة هذا العبد ووزعها على الأوساط القضـائية وتضمنت الدعوة الى مساواة العبـد فى الحقوق والواجبات بمجرد أن تطأ قدماه أرض انجلترا وفى تلك الفترة ظهر الى حيز الوجود قضية العبد جيمس سمرست (James Somerset)

جاء هذا العبد الى انجلترا فى صحبة سيده شارل ستيوارت وما أن وصل الى انجلترا حتى هرب من سيده لـكن أمكن القبض عليه مكبلا بالأغلال وأرسل الى جزيرة جامايكا وعرض الأمر على القضاء فقضت المحكمة فى ٢٢ يونيـة ١٧٧٢ بالحكم الذى أصـدره القـاضى اللورد مانسيفيلـد (Lord Mansfield) بأنه بمجرد أن تطأ قـدم أى عبد أى جزء من أرض بريطانيـا أو ممتلكاتها فانه يصبح حرا ، وكان هذا الحكم أول صفعة أصابت تجارة الرقيق والعاملين بهـا وضـاعف من الآمال المعقودة للقضاء عليها (١٢) .

وبعـد الحكم فى قضـية هـذا العبـد بدأ دعاة تحرير الرقيق يكثفون من نشاطهم فتألفت فى لندن فى عام ١٧٨٧ جمعيـة تتكون من

---

(١١) يدعى هذا المحامى ديفيد لزلى (Dovid Leslie) وكان قـد أساء معاملة العبد جوناتان سترونج وطالب باعتباره من ممتلكاته وقبض عليه وأودعه السجن لـكن جرانفيل شارب دافع عنه حتى حكم القاضى ببراءة سترونج واطلاق سراحه فورا لـكن المحامى قبض عليه ثانية الأمر الـذى دعى شارب الى دراسة الأمر بجدية .

(12) Coupland, R. : The British Anti Slavery Movement, London, 1933, p. 57.

اثنى عشر عضوا منهم ثمانية من جماعة الكويكرز وأخذت هذه الجمعية تطالب بالغاء تجارة الرقيق ، وتقابل معهم وليم ولبر فورس (William Wilberforce) الذى وعد بالتحدث بلسانهم فى البرلمان •

ووجد دعاة تحرير الرق فيه بطلا حيث كان عضوا فى البرلمان البريطانى عام ١٧٨١ ، وكان خطيبا مشهورا • وبدأ ولبر فورس يتبنى قضية تحرير الرقيق واستطاع اقناع صديقه وليم بت (William Pitt) بمحاربة هذه التجارة (١٣) •

ان الحملة الانسانية ضد الرقيق وتجارته قد أثرت بشكل عميق على السياسة البريطانية فى غرب أفريقيا ومن أبرز الأعمال الفعالة لهذه الحملة حكم اللورد مانسفلد عام ١٧٧٢ وقرارات البرلمان فى عامى ١٨٠٧ و١٨٣٣ وقد تضمن الأول والأخير التحرر فى انجلترا وفى الممتلكات البريطانية والخارج وعلى هذا الأساس خول قرار فى المجلس عام ١٨٠٨ الحق فى القبض على قوارب الرقيق ومن ثم بدأت الحملة البحرية فى الأطلسى وعلى الساحل • وفى عام ١٨١١ بدأت محاولة استخدام فرقة دفاعية وهى عبارة عن عدد محدود من الرجال والقوارب التى ترتكز فى مناطق محددة أو التى تقوم بعمليات الاستيلاء على الرقيق من السنغال الى الكونغو (١٤) •

واستمر الخلاف حول استراتيجية الوسائل البحرية الفعالة طوال الحملة وذلك عندما زاد عدد السفن الحربية من مجرد ست سفن الى أكثر من عشرين سفينة عام ١٨٤٠ •

---

(١٣) كان وليم بت عضوا فى البرلمان ثم صار رئيسا للوزارة البريطانية عام ١٧٨٣ واستقال عام ١٨٠١ وعاد الى الرئاسة مرة أخرى عام ١٨٠٤ •

(14) Newbury, C. W. : British Policy towards West Africa, London 1965, p. 132.

وسوف نعرض جهود بريطانيا فى القضاء على تجارة الرقيق فى أفريقيا وقد ظهر هذا عندما أرسل المندوبون الساميون فى البحرية البريطانية تعليمات الى القائد البحرى السير كولير (Collier) فى الثالث من نوفمبر ١٨١٩ وتضمنت الوثائق البريطانية فى مجال تحرير الرق ومنها قرارين للبرلمان بالموافقة على المعاهدات التى أبرمت مع البرتغال وأسبانيا من أجل القضاء على الاتجار فى الرق وبالاضافة الى الأوامر الأخرى التى تخول قواد السفن البريطانية البحث عن القوارب التى تحمل أعلام الدول الخاصة بالدولتين وكذلك المعاهدة التى وقعت مع ملك هولندا فى ٤ مايو ١٨٤٨ بشأن القبض على الرقيق (١٥) .

وفى مذكرة السير توماس فويل بوكستن T.F. Buxton الى جمعية التحضر الأفريقية فى أبريل ١٨٣٩ يقول ان المبدأ هو تخليص أفريقيا عن طريق تنمية مواردها ولكى يتم ذلك يجب القضاء على تجارة الرقيق والاهتمام بالتجارة وتثقيف الأفارقة ولهذا لابد من زيادة وتركيز الحملات التفتيشية وعقد المعاهدات مع رؤساء الساحل والداخل والحصول على أراضى للزراعة واحياء الثقافة الأفريقية وهذا يتطلب من الحكومة ارسال البعثات الدبلوماسية لعقد المعاهدات التى تتضمن ايقاف تجارة الرقيق ومنح الأراضى من استغلالها فى الزراعة وتأسيس الشركات التجارية واحياء المؤسسات الثقافية الأفريقية (١٦) .

---

(١٥) Parl. Popers XXIII (366), p. 84. ان المعاهدة مع البرتغال قد وقعت فى ٢٨ يولية ١٨١٧ وتم تبادل التصديقات فى ٢٧ نوفمبر ١٨١٧ وأما المعاهدة مع أسبانيا فقد وقعت فى مدريد فى ٢٢ نوفمبر ١٨١٧ وأما المعاهدة مع ملك هولندا فقد وقعت فى ٤ مايو ١٨١٨ وتم تبادل التصديقات فى ٢٥ مايو ١٨١٨ .

(16) Charles Buxton, Memoirs of Sir Fowall, Buxton Baronet with Selections from His Correspondence (London 1848), p. 448.

وقـــد أرسل اللورد بلمرستون الى المنـــدوبين الســامين فى سيراليون والى رؤساء السفن البرتغالية فى الثامن من نوفمبر ١٨٣٩ يفيد بأن الأوامر قـد صـدرت من جلالة الملـكة الى قواد البحرية البريطانية لمنع السفن التى تعمل فى الرقيـق وتحمل أعلام البرتغـال وكذلك منع السفن التى تعمل فى هذه التجارة ولا تحمل أية أعلام أو أى أوراق تثبت جنسيتها كذلك صدرت الأوامر لانشاء محاكم بريطانية من نواب البحـرية فى أى مكان داخـل مجـال النفـوذ البريطـانى والمستعمرات فى الخارج •

كما صـدرت الأوامر بأن تجـارة السـفن البرتغـالية التى تم احتجازها سوف ترسل الى موانى النفوذ البرتغـالى حيث يتم تسليمها الى السلطات البرتغالية •

وصدرت الأوامر أيضا بأن الزنوج الموجودين على هـذه السفن المحتجزة سوف يستقرون فى أقرب مستعمرة بريطانية أو ميناء بريطانى وسوف يكونون تحت اشراف الحاكم أو غيره من المسئولين فى المستعمرة وصدرت الأوامر أيضا الى حكام المستعمرات باتخاذ الاجراءات اللازمة لمساعدة الزنوج الذى يطلق سراحهم حسب هذه الأوامر [١٧] •

وفى عام ١٨٤١ أرسل اللورد راسيل Russell الى مندوبى جلالة الملكة على ساحل النيجر فى ٣٠ ينـاير ١٨٤١ يخبرهم باقامة علاقات طيبـة مع الرؤسـاء والاتفاق معهم على الغاء التجـارة فى الرق فى منـاطقه وابدال ذلك بالتجـارة المشروعة وتبـادل السلع التجـارية معهم [١٨] •

---

(17) Parl. Papers, 1839, Slave Trade (A.) Correspondence British Commissioners p. 7.

(18) Parl. Papers, 1843, X LVIII (472), pp. 6-15.

وفى السابع عشر من فبراير ١٨٤٤ عقدت بريطانيا معاهدة مع رؤساء بمبيا (Bimbia) فى الكاميرون ونصت فى مادتها الأولى على منع تصدير الرقيق الى الأبد فى المناطق التابعة لرؤساء بمبيا ويتعهد هؤلاء الرؤساء على اصدار التشريعات التى تمنع الاتجار فى الرق بين رعاياهم كما نصت المادة الثانية على عدم السماح لاقامة أى أوربى فى مناطق رؤساء بمبيا بغرض القيام بعمليات تجارة الرقيق كما أنه لا تقام أى منازل أو مخازن بهدف الاتجار فى الرقيق كما تعهدت ملكة بريطانيا اعطاء سلع لرؤساء بمبيا قيمتها حوالى ١٢٠٠ دولار [١٩] .

وفى ١٢ يونية ١٨٤٤ صدرت تعليمات الى رؤساء البعثات التى تتفاوض مع الزعماء الأفارقة تضمنت ضرورة حصولهم على المعلومات الدقيقة عن تجارة الرقيق ووضعها فى ذلك الوقت والهيئات التى تمارسها والدول التى تخضع لها والطرق تى يتم بها الاتجار فى الرق وأساليب استلام ثمن الرقيق والأماكن التى تورد الرق . وطالبت التعليمات بضرورة تزويد قواد البحرية بتقرير سنوى مفصل على وضع التجارة المشروعة ومدى القضاء على الرق [٢٠] .

الجهود البريطانية لالغاء الرق :

وحتى عام ١٨٠٤ لم تقم انجلترا بأى اجراء ايجابى لأجل مقاومة هذه التجارة بينما كانت الدنمارك قد سبقتها وأصدرت مرسوما ملكيا فى ١٦ مايو ١٧٩٢ بابطال تجارة الرقيق على رعاياها ولكنها جعلت عام ١٨٠٢ نهاية التجارة [٢١] .

---

(19) F.O. Confidential Print, 1845.

(20) Parl. Papers, 1844, Instructions for the Guidance of Her Mejesty's Naval officers employed.

(٢١) رياض زاهر ، مرجع سابق ، ص ٧٩ .

وأخيرا نجحت الحركة من جديد عندما أثارها لورد جرانفل عام ١٨٠٦ ونجح فى حمل المجلس على اصدار قرار بانهاء تجارة الرقيق من جميع الأراضى البريطانية ولكن لم يوافق مجلس اللوردات الا فى عام ١٨٠٧ (٢٢) •

وتوجت هذه الجهود عندما وافق البرلمان البريطانى فى عام ١٨٠٧ على الغاء تجارة الرقيق وتحولت مدينة فريتون (Freetown) فى سيراليون الى قاعدة للاسطول البريطانى لمراقبة تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسى وواصل دعاة تجارة الرق جهودهم حتى صدر القرار النهائى بالغاء الرق فى عام ١٨٣٣ فى جميع أنحاء الامبراطورية البريطانية •

وأخذت الحكومة البريطانية تسعى جاهدة لتنفيذ هذا القرار عن طريق دوريات سفن الأسطول البريطانى التى أخذت تجوب مياه غرب أفريقيا لمنع تصدير الرقيق أو نقله • وأصبح عدد السفن التى تعمل فى محافحة تجارة الرقيق حوالى عشرين سفينة حربية تقل أكثر من الف بحار مهمتهم البحث عن السفن التى تتاجرفى الرقيق • وكانت سيراليون هى القاعدة البريطانية الوحيدة التى تضم قاعدة لسفن دوريات مكافحة الرق ، وأنشئت بها محكمة لمحاكمة السفن التى يتم القبض عليها وهى تحمل الرقيق (٢٣) •

ونجح الأسطول البريطانى فى القبض على مئات السفن التى تعمل بهذه التجارة كما استطاع أن يحرر عشرات الألوف من العبيد وبالرغم من هذا فقد استمرت سفن الرقيق تحمل حوالى ١٢٥٠٠٠ عبد حتى عام ١٨٣٠ ورغم هذا استمرت بريطانيا فى مكافحتها لهذه التجارة وتبعتها دول أخرى حيث حرمت الدنمارك تجارة الرقيق فى ١٨٠٢

(٢٢) الجمل ، شوقى : مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

(23) Fage, J. D. : History of West Africa, p.101.

وحرمتها الولايات المتحدة فى عام ١٨٠٤ وحرمتها فرنسا فى عام ١٨١٨ الا أن اصـــدار هذه القوانين لايعنى القضـــاء على تجارة الرقيق ذلك لأن الدول الأوربيـــة لم تكن جادة فى وضـــع هـــذه القوانين موضـــع التنفيـــذ (٢٥) .

وكان مؤتمر فيينـــا الذى عقد فى عام ١٨١٥ لاعادة تنظيم خريطة أوربا بعـــد الحروب النابوليونية فرصـــة طيبـــة لمحاربة تجارة الرقيق لاسيما وان السفن التابعـــة لدول شمال أفريقيا كانت دائمـــة الاغارة على سفن الدول الأوربيـــة لنهبها واسترقاق ركابها فاتخذ المؤتمر قرارا بضرورة سحق هذه التجارة ومن أجل تنفيذ ذلك عقدت كل من انجلترا وفرنسا اتفاقا بالتعـــاون فى عـــدم ادخال الرقيق فى ممتلكاتهـــا على أن تتوقف هذه التجارة نهائيا فى أول يونية عام ١٨١٩ (٢٦) .

وفى عام ١٨١٧ سمحت أســـبانيا والبرتغـــال لســـفن الأسطول البريطانى بتفتيش السفن التابعـــة لهما وفى عام ١٨٣١ انضمت فرنسا الى هاتين الدولتين وقـــد اتخذت بريطانيا من هذه الأعمال ذريعة لفرض سيطرتهـــا البحـــرية . وكان رئيس الوزراء البريطـــانى بلمرســـتون (Palmerstone) قـــد بذل أقصى جهد يستطيع رجل أن يبذله فى سبيل تشجيع القضاء على هـــذه التجارة واتخذ خطوة ايجابية فى هذا المجال عندما شكل لجنـــة فى عام ١٨٧١ لبحث نشاط التجـــار على الشاطىء الأفريقى ثم دراسة بنود المعاهـــدات والاتفاقيات السابقة والبحث عن امكانيات الاستفادة منها فى وضع حد لتجارة الرقيق واتفق الرأى على وجوب زيادة سفن الرقابة فى المحيط الأطلسى وكان هذا الاجراء خطوة

---

(24) Lucas, C.P. : An Historical Geography of the British Colonies, vol. III West Africa, Oxford, 1913, p. 131.

(25) Blake, John : West Africa, 1445-1578, p. 30.

(٢٦) رياض ، زاهر : مرجع سابق ، ص ٨٢ .

لاستبدال المعاهدات القائمـة بمعاهـدات أخـرى تنص على تحـريم الرقيق نهائيا •

لـكن هذه الجهود البريطانية لم تحقق الآمال المعقودة عليها فى القضـاء على تجارة الرقيق لأن عدد العبيد المصدرين سنويا من غرب أفريقيا بلغ حوالى ١٣٥٠٠٠ عبـد فى عام ١٨٤٠ ويقـدر فيليب كرتن (Philip Curtin) ان عـدد الرقيـق الذين أخـذوا من أفريقيـا الى الأمريكتين قبل عام ١٦٠٠ كان حوالى ١٢٥٠٠٠ عبد ويمكن أن يضـاف اليهم ١٥٠٠٠٠ تم نقلهم الى أوربا ليصل المجموع الـكلى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر حوالى ٢٧٥٫٠٠٠ والمتوسط السنوى لهذه الفترة التى بلغت ١٥٠ عاما حوالى ١٨٠٠ عبد وفى القرن السابع عشر قـدر فيليب كيرتن عدد الأفارقة الذين رحلوا الى العالم الجديد حوالى ١٫٢٨٠٫٠٠٠ عبدا ويمكن أن يضـاف اليهم ٢٥٫٠٠٠ عبـد الى أوربا وجزر الأطلسى وبهذا يكون المتوسط السنوى للقرن السابع عشر حوالى ١٢٫٠٠٠ عبد سنويا كما قـدم فيليب كيرتن عرضـا سريعـا للرقيق المصدرين الى أوربا والأمريتين على النحو التالى : (٢٧)

	عدد المصدر الى أوربا وجزر الأطلسى	عدد المصدر الى أمريكا	المتوسط السنوى
حتى عام ١٥٠٠	٣٣٫٥٠٠	—	٦٧٠
من عام ١٥٠١ — ١٦٠٠	١١٦٫٤٠٠	١٢٥٫٠٠٠	٢٫٤٠٠
من عام ١٦٠١ — ١٧٠٠	٢٥٫١٠٠	١٫٢٨٠٫٠٠٠	١٣٫٠٠٠
من عام ١٧٠١ — ١٨١٠	—	٦٫٢٦٥٫٠٠٠	٥٧٫٠٠٠
بعد عام ١٨١٠	—	١٫٦٢٨٫٠٠٠	٢٧٫٠٠٠
الاجمـالى	١٧٥٫٠٠٠	٩٫٢٩٨٫٠٠٠	

---

(27) Curtin, Philip : The Atlantic Slave Trade : acensus, London 1969, pp. 100-120.

وتوضح هـذه الأقام أنه بالرغم من صـدور قرارات محـاربة الرق وموافقـة الدول الأوربيـة عليها الا أن تجارة الرقيق استمرت حتى القرن التاسع عشر وهو قرن مكافحة هذه التجـارة ، خاصة وأن قرارات الحظر قـد طبقت على أوربا ولـكنها استمرت الى الأمريكتين ومع هـذا لم تقف جمعيـات مناهضـة الرق مكتوفـة الأيـدى أمام استمرار ممارسة الاتجار فى الرقيق وواصل ولبر فورس جهوده فى سبيل القضـاء عليها نهائياً واختـار خليفة له من الشباب يدعى توماس فاول بكستون (Thomas Fozel Buxton) الذىتقدم الىالبرلمان باقتراح تعويض الملاك فى جزر الهند الغربيـة عن الغاء الرق ، ونجحت هـذه الجهود فى اصـدار قانون الرق فى ٢٧ يوليـة ١٨٣٣ ونص على أن تدفع الحكومة البريطانيـة عشرين مليونا من الجنيهات فى سبيل الغاء الرق تعويضاً لأصحاب العبيد فى جزر الهند الغربية وفى ٣١ يوليـة ١٨٣٤ كان قـد تم تحرير ٨٠٠ الف من الرقيق من جزر الهند الغربية. كل هـذا كان تتويجا لجهود ولبر فورس الذى يكفيه فخرا أنه حمل أمته على رؤية مافى تجارة الرقيق من خطأ ، ثم حملها على الايمان بعد ذلك بأن الرق نفسه عمل غير مشروع حتى أبدت استعدادها لاصـلاح هذا الخطأ مهما كلفها من أموال [٢٨] .

جهود افريقية لمقاومة الرق :

وفى الوقت الذى كانت بريطانيا توالى جهودها لمقـاومة الرق مع الدول الأوربية قامت بضغط مماثل مع الزعمـاء الأفارقة وعقدت معهم حوالى ١٥٠ معاهـدة صـداقة وسلام تتـازل الزعماء بمقتضاها عن أجزاء من بلادهم لبريطانيـا وتعهدوا فيها بالامتناع عن الاتجـار فى الرقيق ، وكان هـذا فى مقابل بعض الهـدايا من الأقمشة والطبـاق والخمور . وليس معنى عقـد هذه المعاهدات أن الزعماء الأفارقة لم يقوموا بعدل ايجابى من وحى أنفسهم ومن واقع المسئولية عليهم للقضاء

---

(٢٨) يونس ، محمد عبد المنعم : مرجع سابق ، ص ٥٠ .

على هــذه التجارة • فهنــاك بعض الجهود الأفريقية لمقاومة تجــارة الرقيق ، وبدأت تلك الجهود فى عام ١٥٢٦ عندما كتب الملك المشهور لدولة باكونجو (Bakongo) التابعــة للــكونغو (قرب مصب النهر) خطابا يحتج فيــه الى ملك البرتغــال أفونسو (Afonso) يشكو اليــه بأن تجارة الرقيق قد سببت أضرارا كثيرة لدولته [٢٩] •

وفى داهومى على ساحل أفريقيا الغربى أرسل الملك أجاجا (Agaja) جيشه للاستيلاء على مدينة اداره (Ardrah) فى عام ١٧٢٤ بقصد القضاء على تجارة الرقيق وأرسل خطابا الى الحكومة البريطانية يخبرها برغبته فى ايقاف تصــدير الرجال والنساء من شــعبه ، وشرح لهم الأضرار التى عادت على دولته من جراء هذه التجارة البشعة •

ومثال آخر أورده رحالة سويدى فى عام ١٧٨٩ عندما زار الامامة فى فوتاتورو فى شمال السنغال وقد كتب هذا الرحالة بأن الامامة فى فوتاتورو أصــدرت قانونا ينص على عدم أخــذ أى رقيق من فوتاتورو للبيع فى الخــارج ، ولقــد حاولت السفن الفرنسية ارغام الامام على انهــاء العمل بهــذا القانون ، ولــكنه رفض هــذا بالاضــافة الى عدة محاولات أخرى فى منطقــة بنين ولــكنها باءت بالفشل ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن تجارة الرقيق كانت جزءا أســاسيا من النظــام التجارى لغرب أفريقيا حتى الســنوات الأولى من القرن التاسع عشر وذلك للعمل فى المناطق الاستوائية الأمريكية [٣٠] •

وفى أوائل الســبعينات من القرن التــاسع عشر بــدأت حكومة الولايات المتحدة تبــذل جهودا جادة للقضاء على هذه التجــارة ولم يأت عام ١٨٦٥ حتى كانت تجــارة الرقيق عبر الأطلسى قــد انتهت وشهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر جهودا دولية أخرى للقضاء

---

(29) Davidson, Basil : A History of West Africa, p. 296.

(٣٠) رولاند أوليفر : موجز تاريخ أفريقية ، ص ١٣١ •

التام على هذه التجارة فى الجنس البشرى فقامت بريطانيا بعقد بعض المعاهدات مع الدول من أجل القضاء على الرق ، ومن أبرز تلك المعاهدات هذه المعاهدة مع سلطان زنجبار فى الخامس من يونية ١٨٧٣ ونصت على منع تصدير العبيد فى ممتلكات سلطان زنجبار واغلاق كل الأسواق العالمية التى تقوم فى مملكته بالتعامل فى الرقيق [٣١] .

كما عقدت بريطانيا معاهدة مع مصر فى الثالث من أغسطس ١٨٧٧ جاء فى مادتها الخامسة تعهد الحكومة المصرية بنشر أمر خصوصى يرفق بالمعاهدة ويكون من مقتضاه منع بيع الرقيق بالكلية فى أرض مصر ابتداء من تاريخ تجدد الأمر المشار اليه مع تخصيص نوع الجزاء الذى يترتب على من يخالف ذلك [٣٢] .

وعلى المستوى الدولى واصلت بريطانيا جهودها مع بقية الدول الأخرى على أن تتضمن كافة اللقاءات الدولية مايفيد الغاء الرق وتحريم الاتجار فيه ، جاء ذلك فى مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤/١٨٨٥ حيث نصت المادة التاسعة من نصوص المؤتمر « نظرا لأن تجارة الرقيق ممنوعة طبقا لمبادىء القانون الدولى الذى تعترف به القوى الموقعة على مرسوم المؤتمر ، ونظرا لأن عمليات نقل الرقيق برا وبحرا ممنوعة ؛ لذا فان القوى التى لها حقوق سيادة أو نفوذ فى المناطق التى تكون حوض الكونغو ، تعلن أن هذه المناطق لن تستخدم كسوق للرقيق وتلتزم كافة القوى باتخاذ كافة الوسائل لوضع حد لهذه التجارة ، ومعاقبة كل المشتغلين بها » [٣٣] .

---

(٣١) رياض ، زاهر : مرجع سابق ، ص ٩٠ .

(٣٢) أنظر نص المعاهدة فى : البراوى ، راشد : مجموعة الوثائق السياسية الجزء الأول المركز الدولى لمصر وقناة السويس ، الطبعة الأولى ١٩٥٢ صص ٩٧ — ٩٩ .

(37) Hertslet, M : Map of Africa by Treaty, Vol. 11, Art, 9. p. 474.

وفى مؤتمر بروكسل الذى عقد فى الثانى من يولية ١٨٩٠ لبحث مسألة الرقيق الأفريقى نلاحظ أن معظم مواد هـذا المؤتمر تدور حول القضاء على تجارة الرقيق ، وتنظيم عمليات القضاء عليها ، وقد أفاض المؤتمر كثيرا فى النقاط والبنود التى تتعلق بالقضاء على هذه التجارة. فلقد نصت المادة الثالثة على أن تتعهد القوى التى تمارس السيادة أو الحماية على مناطق فى أفريقيا أن تعمل على القضاء عليها بأى وسيلة فعالة من حق القوى التى تفوض مسئولياتها الى شركات ذات براءة فى كل المناطق الواقعة تحت سيادتها ، وتظل هذه القوى مسئولة بشكل مباشر عن تنفيذ هذه البنود (٣٤) .

ويقع هـذا المؤتمر فى سبعة فصول تضمنت مائة مادة تدور كلها حول تجارة الرقيق والأسلحة النارية وقد اشتمل الفصل الأول على مواد خاصة بالتنظيم الادارى والقضائى والدينى والعسكرى والعقوبات التى توقع ضد من يتاجر فى الرق كما تضمن هذا الفصل بنودا حول الرقيق المحرر وبناء المعسكرات ومحطات استقبال الرقيق المحرر ، ويتضمن الفصل الثانى بنودا خمسة تدور حول مراقبة طرق التجارة فى الرق وكذلك الوسائل الواجب اتخاذها لمنع الاتجار فى الرق وأيضا طرق تحرير الأفراد والأرقاء .

وجاء فى الفصل الثالث الذى تضمن حوالى اثنين وأربعين مادة عالجت وسائل القضاء على الرقيق بحرا وحق الرقيق فى استعادة حريتهم على ظهر السفن الوطنية وتضمن الفصل الرابع اثنى عشر مادة خاصة بالرقيق المحررين والهاربين والرقيق على متن السفن المحلية .

وجاء فى الفصل الخامس فى ست عشرة مادة عالجت وسائل حماية الرقيق المحررين ومعاقبة كل من يمارس العمل فى هذه التجارة .

---

(34) Hertslet, M. Map of Africa by Treaty, vol. 11. p. 492.

أما الفصل السادس فقد عالج فى ستمواد وسائل منع المشروبات الـكحولية والرسوم الخاصـة بها • وجاء فى الفصل الأخير النص على سريان مفعول هـذا المرسوم بعـد ستين يوما من ايداع المرسوم فى أرشيف الحكومة البلجيكية (٣٥) •

وقد تصدرت المادة الأولى من قرارات هذا المؤتمر اعلان القوى الموقعة على هذا المؤتمر اتخاذ الوسائل الآتية للقضاء على الرقيق :

١ — التنظيم المستمر للخدمات الادارية والقضائيـة والعسكرية للمنـاطق الأفريقيـة التى تدخل تحت حمـاية وسيادة الأمم المتحدة •

٢ — أن تقوم القوى المسئولة فى كل منطقة بانشاء محطات قوية بشكل تدريجى فى الداخل وتكون مهمتها اتخاذ الاجراءات الفعالة لكبح وحمـاية عمليـات صيد الرقيق فى المنـاطق التى دمرت بسبب هذه التجارة •

٣ — انشاء الطرق وخصوصا السكك الحديدية التى تربط هـذه المحطات المتقدمة بالساحل والسماح لسهولة الاتصال بالمياه الداخليـة والى مجارى الأنهار ومنابعها والتى تفصلها الشلالات والجنادل وذلك لاحلال وسـائل نقل سريعـة اقتصـادية بدلا من وسـائل الحمل عن طريق الرجال •

٤ — بنـاء القوارب التجـارية على المجـارى المائيـة الصالحة للملاحة وكذلك على البحيرات فى الـداخل بشرط أن تسـاندها مراكز محصنة على الشواطىء •

٥ — انشاء الخطوط التلغرافية التى تضمن اتصال هـذه المراكز والمحطات مع الساحل ومع المراكز الادارية •

---

(35) Hertslet, M : Map of Africa by Treaty, Vol. III, pp. 488-520.

٦ ـ تنظيم الحملات والطوابير المتحركة لاستمرار عملية اتصال المحطات مع بعضها البعض ومع الساحل بقصد مساندة الأعمال القمعية ولضمان سلامة طرق المواصلات •

٧ ـ الحد من استيراد الأسلحة النارية أو على الأقل الأنماط الحديثة وكذلك الذخائر فى كل المناطق التى تأثرت بتجارة الرقيق •

كما جاء فى المادة الثالثة أن تتعهد القوى التى تمارس حق السيادة أو الحماية فى أفريقيا بالعمل تدريجيا كلما سمحت الظروف لكى تؤكد وتدقق فى قراراتها السابقة وذلك بالوسائل السالف ذكرها أو أى وسيلة أخرى مناسبة تهدف الى القضاء على تجارة الرقيق داخل منطقتها الخاصة وتحت اشرافها وعندما تجد ذلك ممكنا فانها تمد يد العون الى القوى التى تعمل فى أفريقيا لنفس الغرض وبهدف انسانى محض •

كما نصت المادة الخامسة على أن تتعهد الدول الموقعة على مرسوم المؤتمر بتطبيق القوانين الواردة به وان تصدر التشريعات الخاصة بوضع عقوبات على الأشخاص الذين يشتركون فى القبض على الرقيق بالعنف، ونصت المادة السادسة على أن الرقيق المحررين نتيجة توقف أو مصادرة قوافل الرقيق داخل القارة سوف يعودون من جديد اذا سمحت الظروف من جديد الى مناطقهم الأصلية •

وجاء فى المادة السادسة : يتم ارسال الرقيق المحررين طبقا للتوقف أو تشتت السفن فى داخل القارة الى موطنهم الأصلى بقدر ماتسمح به الظروف واذا تعذر ذلك تقوم السلطات المحلية بمساعدتهم فى الحصول على وسائل الرزق اذا رغبوا فى الاقامة فى نفس المناطق [٣٦] •

وجاء فى المادة السابعة ان أى هارب يطلب من الدول الموقعة

---

(36) Ibid : p. 493.

على هذا المرسوم حمايته ، فعليها أن تلبى طلبه ، وأن تستقبله داخل المعسكرات أو المحطات التى أنشئت لهذا الغرض على ظهر السفن الحكومية التى تعمل فى الأنهار والبحيرات • ونصت المادة ١٨ على أن الدول الموقعة على هذا الاتفاق يجب أن تباشر مسئولياتها نحو حماية الرقيق المحررين ، وأن تكفل لهم سبل الحياة الكريمة •

وبدأت الدول الأوربية ابتداء من القرن التاسع عشر تضع مبادىء تحريم الرق موضع التنفيذ ففى عام ١٨١٦ تأسست جمعية الاستعمار الأمريكية ومنذ تأسيسها أخذت على عاتقها مسئولية نقل الرقيق المحررين الى ليبيريا ، ولم يكن الدافع الى ترحيل هؤلاء الرقيق انسانيا وانما كان الدافع الحقيقى هو أن كثيرا من الرقيق نالوا حريتهم بسبب موت أسيادهم فى الولايات المتحدة أوائل القرن التاسع عشر وكان ملاك الرقيق يكرهون أن يجدوا فى أرضهم رقيقا يتجولون وهم أحرار من كل سلطان فيحرضون بنى جنسهم من الرقيق على التطلع الى الحرية وهو شىء لا يتفق مع مصالح أصحاب المزارع الواسعة [٣٧] •

وفى عام ١٨١٩ قررت الحكومة الأمريكية اعطاء البحرية الأمريكية حق تفتيش السفن فى البحار بحثا عن الرقيق وأن تطلق سراحهم وتعيدهم الى أفريقيا مرة أخرى •

ونسقت جمعية الاستعمار الأمريكية جهودها مع الحكومة ، وأرسلت بعثة لاستكشاف مدى صلاحية شواطىء ليبيريا للتعمير • وحصلت الجمعية فى عام ١٨١٩ على مرسوم حكومى بانشاء مستعمرة ليبيريا على مثال سيراليون البريطانية لكن الحرب الأمريكية التى استمرت أربع سنوات من عام ١٨٦١ — ١٨٦٥ هددت تحرير الرقيق بسبب ارتباط الجنوبيين بالرقيق وتجارته • ولكن رغم ذلك فقد استطاع أعضاء البعثة شراء قطعة من الأرض فى ليبيريا وأخذته

(٣٧) خلف الله ، عبد الغنى عبد الله : مرجع سابق ، ص ٣٥٥ .

السفن تجلب الرقيق المحرر الى هذه المنطقة • وأخذت ليبيريا تستقبل جموع الرقيق المحررين وقامت جمعية الاستعمار بادارة شئون هـذه الدولة النـاشئة حتى منتصف القرن التاسع عشر • ففى عام ١٨٤٧ انسحبت الجمعيـة من هذه المهمة ، وأصبحت ليبيريا جمهورية زنجية مستقلة ، وصـار جوزيف جنكر روبرت أول رئيس لها • وفى عـام ١٨٥٧ انضمت اليهـا ولاية ماريلاند ، وهى أقصى مقاطعـات ليبيريا جنوبا وفى عام ١٨٦٠ اعترفت الولايات المتحدة بها رسميا [٣٨] •

أما الرقيق المحررون فى بريطانيـا وممتلكاتها فقد أنشئت لهم أول مستوطنة أفريقية فى سيراليون وهى مستوطنـة ترتبط ارتباطـا وثيقا بقصة الرق فى بريطانيـا حيث ترتب على حكم القاضى مانسفيلد فى عام ١٧٧٢ ان عدداكبيرا من الخدم الزنوج تجاوز أربعة عشر الفا هاموا على وجوههم فى طرقات وشـوارع لندن دون عمل ، مما ترتب عليه بطالة وجوع ومرض ، وبذلك ظهرت مشكلة تحتاج الى حل ، وهنا أحس جرانفل شارب بمسئوليته ، فسارع بالانضمام الى لجنة تكونت بعد ذلك من رجال الأعمال فى لندن عام ١٧٨٦ وعرفت هذه اللجنة باسم لجنة اغاثة السود The Committee for Relieving the Black Poor. ونشرت نداء فى الصحف لجمع التبرعات لتحسين أحوال السود ونجم عن هذا النداء جمع مبلغ ثمانمائة جنيه فى شهور قلائل [٣٩] •

وفى عام ١٧٨٦ تقدم دكتور هنرى سميثمان (Henry Smeathman) بمشروع لاقامة مستوطنة فى شبه جزيرة سيراليون لايواء الزنوج فى بريطانيا واقتنعت لجنـة السود بهذا الاقتراح وعرضـته على وزارة الخزانة البريطانيـة التى وافقت عليه ، وتكلفت بدفع الأموال اللازمة

---

(38) Donnan, E. : Documents Illustrative of the History of the Slave Trade to Ammerica, p. 76.

(٣٩) يونس محمد عبد المنعم : مرجع سابق ، ص ٥٩ .

لنقل الرقيق الى سيراليون • وبالفعل تم جمع كل العبيد المتسولين من الطرقات والشوارع وأمكن شحن سفينتين ، وقد وصلت القافلة الى تناريف (Teneriffe) احدى جزر كناريا فى العاشر من مايو ١٧٨٧ وبعد أسبوع قضته هناك واصلت سيرها الى خليج فرنشمانز (Frenchman's Bay) عند مصب سيراليون (٤٠) •

وفى عام ١٧٩٠ نجح جرانفل شارب وزملاؤه فى تأسيس شركة عرفت باسم رابطة خليج سان جورج The St. George's Bay Association) بهدف تشجيع وتنشيط التجارة المشروعة مع ساحل غرب أفريقيا وفى ١٧٩١ زاد عدد مؤسسى الجمعية حتى بلغوا مائة عضوا وطالبوا البرلمان باصدار قرار تأسيس الشركة وعرض المشروع على مجلس العموم ، وصدر القانون بتأسيس شركة سيراليون فى السادس من يونية ١٧٩١ وحلت محل الشركة السابقة وفى ١٥ يناير ١٧٩٢ حملت السفن المهاجرين تباعا فى الفترة من ٢٨ فبراير الى ١٩ مارس ١٧٩٢ وبلغت جملة المهاجرين حوالى ١١٣١ فردا ومات أثناء الرحلة ٥٦ رجلا (٤١) •

واستمرت الشركة تباشر عملها ولكن بسبب الخسائر الفادحة بدأت المحاولات فى عام ١٨٠٣ لاقناع الحكومة بتولى أمور سيراليون وأرسلت لجنة برلمانية للتحقيق فى خسائر الشركة وأوصت هذه اللجنة بنقل ادارة المستوطنة الى الحكومة ووافق البرلمان بالفعل على صرف المبالغ اللازمة لاقامة المزيد من التحصينات وفى أوائل عام ١٨٠٧ صدر قانون بتحويل المستوطنة الى مستعمرة للتاج وحلت شركة سيراليون ، وتم بالفعل النقل الرسمى فى أول ينساير ١٨٠٨ وأنزل علم الشركة ورفع العلم البريطانى ، وهكذا صارت سيراليون مستعمرة بريطانية

(40) Fyfe, C. : A Short History of Sierra Leone, London, 1965, p. 7.

(٤١) يونس محمد عبد المنعم : مرجع سابق ، ص ٦٩ •

وانتهت قصة الرق داخل بريطانيا بعد صدور قرار الغاء هذه التجارة فى الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار ، وصار امتلاك العبد محرما فى أى جزء من الممتلكات البريطانية فى عام ١٨٣٣ (٤٢) .

والسؤال الآن :

لماذا أقدمت بريطانيا على الغاء تجارة الرقيق ؟

لعل سر اقدام بريطانيا على محاربة الرقيق لم يكن حبا فى الانسانية ولا ادعاء بالسعى نحو فعل الخير لبنى البشر ، ولكن بريطانيا أقدمت على هذا العمل بناء على أسس تجارية صرفة اذ لم يكن من المستطاع البدء فى أى نشاط تجارى عادى بين أوربا وأفريقيا قبل القضاء على تجارة الرقيق لأنها كانت أسهل وأوفر ربما من التجارة العادية ولذا كان من الضرورى أن تتكاتف الجهود بين كل الدول وعلى رأسها بريطانيا للقضاء على الرق حتى ينفسح المجال للتجارة العادية. كما أن بريطانيا اتخذت من عملية محاربة الرق وسيلة لتفتيش سفن الدول الأخرى ، وفرض زعامتها على البحار ، وتحت الرق ومحاربة هذه التجارة البشعة استطاع الانجليز التوغل فى الأنهار الأفريقية وعقدوا المعاهدات مع الزعماء والرؤساء المحليين ، كما فرضوا حمايتهم على مناطق أخرى من غرب أفريقيا تحت ستار القضاء على الرقيق . ويكفى للتدليل على ذلك التدخل فى شئون الأقطار الأفريقية بحجة ضمان تنفيذ قوانين الغاء الرق والنخاسة (٤٣) .

وهناك عوامل أخرى ساعدت على ضرورة الحد من هذه التجارة بل والسعى للقضاء عليها ومن هذه العوامل النقص الخطير فى عدد سكان غرب أفريقيا بسبب مافقدته من اعداد ضخمة أثناء عملية

---

(٤٢) الجمل ، شوقى : مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

(٤٣) الجمل ، شوقى : تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الثانى، ص ٢٣٢ .

صيد الرقيق ، وأثنـاء شن الغارات على الأهالى وكذلك بسبب عـدم الحاجة الى هؤلاء الرقيق بسبب الاختراعات الحديثة والنهضة الصناعية فى أوربا واستخدام الآلات التى تحل محل الأيدى العاملة . وبسبب استقلال الولايات المتحـدة الأمريكية وضـياع المستعمرات الأوربيـة هناك ، وسعى الدول الأوربية لاستغلال الموارد الأفريقية داخل افريقيا نفسها ، كذلك كان للأفـكار والحركات الانسانية التى أخذت تنـادى بالغـاء الرق واتفاق هذه المصالح الاقتصـادية التى يمكن أن تتحقق بالسيطرة التـامة على المنطقـة واستغلالها واتخـاذ شـعار محاربة الرقيق وسيلة لتحقيق تلك السيطرة ، وكانت بريطانيـا أول الدول التى استفادت من هذه الأفـكار بسبب امتلاكها لأسطول ضخم سـاعدها على تبنى وتزعم فـكرة حركة مكافحة تجارة الرقيق [٤٤] .

ومن أكبر سخريات التـاريخ الأفريقى ان ذلك الاتصال البحرى الذى أنهى عزلة أفريقيا وجعلها على اتصال بأجزاء العالم المختلفة قـد أدى فى النهاية الى وضع جعل أهم صادرات أفريقيا هو سكانهـا . ولقد أدى ممارسة العمل فى هـذه التجـارة الى القضـاء على بعض الجماعات البشرية القليلة العدد ، كما عانت جمـاعات أخرى فترة من الزمان وبدأت القـلاقل والاضطرابات بين الجماعات الأفريقية لعـدة سنين [٤٥] .

لقد كانت تجارة الرقيق سيئة على سكان أفريقيا واختلف هـذا السوء من مكان لآخر ، وازداد السوء على الضحايا أنفسهم حيث كانوا يوضعون فى الأغلال وفى مخازن عديمة التهوية ، ويعبرون الأطلسى

---

(٤٤) صبحى محمد نافع : تجارة الرقيق فى غـرب أفريقيـا وآثارها الحالية ــ رسالة دبلوم ، غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية عام ١٩٧٠ ، ص ٥٩ .

(45) Curtin, Philip : African History, p. 247.

فى رحلة الموت حيث كان يموت واحد من بين كل ستة أنفس من الأسرى .
وقد أثرت تجارة الرقيق على الانتاج الأفريقى فى مجالين (٤٦) .

المجال الأول انها أجبرت غرب أفريقيا على تصدير أغلى مواردها الخام وأعنى بذلك الأيدى العاملة البشرية ، حيث نقل الملايين من الفلاحين والحرفيين للعمل فى المزارع والمناجم الأمريكية ، وحققوا بذلك أرباحا طائلة وثروات ضخمة ليس لوطنهم ولا أنفسهم بل لدول أوربا وأمريكا .

والمجال الثانى هو أن أفريقيا مقابل تصدير أغلى شبابها كانت تحصل على سلع مصنعة فى أوربا ، وهذا ماساعد على تدمير ثروات أفريقيا (٤٧) .

وترتب على تجارة الرقيق فى أفريقيا آثار أكثر خطورة فى المجال السياسى فلقد نجم عن استيراد كميات ضخمة من البنادق والبارود ، وكان المقابل لهذه الأسلحة هو الرقيق ، وقد ساعد ادخال الأسلحة النارية على احداث ثورة فى مجال القنص والقبض على الرقيق ذلك لأن الأسلحة النارية كانت أكثر فاعلية من السيوف والحراب . وعلى هذا فان الطلب على الأسرى من الرقيق كان يسير جنبا الى جنب مع الطلب على الأسلحة النارية ، وقد ساعد هذا الأزدواج على انتشار الحروب والصراع بين القبائل الأفريقية فأحدث دمارا فى الانتاج وفتكا بالقوى البشرية وتشتيتا للسكان ، كما أثار الفزع والخوف فى نفوس الناس . وعندما بدأ التكالب على غرب أفريقيا كغيره من المناطق الأخرى ، كان الانقسام والتشتت هو طابع الجماعات البشرية فى أفريقيا مما سهل على

(45) Groves, C.P. : The Planting of Christianity in Africa, Vol. 1 p. 61 .

(47) Davidson, Basil : Op. Cit., p. 293.

الغزاة الأوربيين مهمتهم فى السيطرة على أجزاء القارة المختلفة ، وكان هذا من أسوأ الآثار التى نجمت عن تجارة الرقيق [٤٨] .

وهكذا شهدت أفريقيا بعد الكشوف الجغرافية قيام تجارة الرقيق فى أثمن شىء بها ألا وهو سكانها طوال ثلاثة قرون ونصف وبعدها تصدر القوانين لالغاء الرق وبداية الاستعمار الكامل لأجزاء القارة بما فيها سكانها . أى أن الغاء الرق من أفريقيا كان المقدمة الطبيعية لاستعمار أفريقيا والسيطرة على كل مواردها وثرواتها ، ولكن هذه التجارة تركت آثارها على المنطقة .

الآثار التى ترتبت على تجارة الرقيق :

من المعروف أن منطقة غرب أفريقيا قد شهدت استقرارا سكانيا بعد حدوث اختلاط بين قبائل الشمال الأفريقى من البربر ومنطقة غرب أفريقيا ، وتوفر لدى شعوب المنطقة كل مقومات التطور والنمو السكانى داخل وحدات قبلية أو سياسية وكان نظام الرق بها اقتصاديا حيث استخدم الرقيق لاستغلال موارد المنطقة وثرواتها فى المجال الزراعى والتجارى . ولكن مع قدوم الأوربيين حدثت عملية تدمير سكانية حيث تم القضاء على قبائل بأكملها فى نطاق الممالك والامبراطوريات فى اقليم الغابات [٤٩] .

ومع قدوم الأوربيين الى غرب أفريقيا منذ القرن الخامس عشر حدثت تطورات هامة فى غرب أفريقيا حيث كانت تجارة الرقيق ورواجها بمثابة عامل جديد برز ليؤثر على شكل الحياة فى المنطقة وليمثل عامل هدم سكانى فيها فى الوقت الذى كان يشهد فيه السكان

(48) Johnston, H. H. : A History of the Colonisation of Africa, p. 121.

(٤٩) صبحى محمد نافع : مرجع سابق ، ص ٣٥ .

تطورا فى نواحى حيـاتهم المختلفة ، فلقد ترتب على تجـارة الرقيق ورواجها نقص خطير فى عـدد السكان أدى الى تدمير الهيكل السكانى بعد نقل عدد كبير من الجنسين الى العـالم الجـديد ، وكانت الآثار الديمغرافيـة أخطر مما يمكن تصوره بسبب النقص الخطير فى عدد سكان المنطقة من ناحية وبسبب الأساليب التى اتبعت فى جلب الرقيق نفسه ، وحرق القرى وتدمير مساحات واسعة فى أنحاء المنطقة من جهة أخرى يضـاف الى ذلك الأمراض التى انتشرت بين السكان نتيجة لذلك أو لمـا نقله الأوربيون أنفسهم من أمراض لم تكن تعرفهـا المنطقة قبل وصولهم اليها ٠

ولعل من أهم الآثار التى أحدثتهـا تجارة الرقيق هى تلك الفوضى والحروب بين السكان أنفسهم بسبب الأسلحة النـارية التى استخدمت فى عمليات القنص وتعقب الرقيـق ، وما أعقب ذلك من خـلافات بين الزعماء الوطنيين وشن الحروب ضد بعضهم البعض وحرق القرى لأتفه الأسباب ٠ ومحاربة بعضهم بعضاً للقبض على أكبر عدد من الرقيـق لارسالهم الى العـالم الجديد وقد أدى هـذا الى تدمير السكان من الداخـل والقضـاء على مجتمعهم القبلى وبالطبع ترتب على كل هـذا وجود حالة من القلق والفوضى وعدم الاطمئنـان بين سـكان هـذه المجتمعات ٠

وعلى العموم فقـد ارتبط بالتواجد الأوربى فى غرب أفريقيـا تغيير فى توزيع السكان بعد تغيير اتجـاه التجارة الى الواجهة البحرية للمنطقـة حيث استلزم انشاء النقـاط التجـارية على السواحل الى عملية تكثيف جـديد للسكان فى منـاطق جـديدة مثل سـانت لويس وداكار واكرا ٠ كما أدى مجىء الأوربيين الى المنطقـة الى ظهور مدن أخرى كثيرة نتيجة النظم السياسية الجديدة وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أن مدينة كادونا وابدجان قـد ظهرتا بفضـل نظام الادارة القائم على المراكز والأقسام ٠

ويتضح من هذا العرض أن تجارة الرقيق فى غرب أفريقيا قد تركت آثارها على كل منحى من مناحى الحياة ، ولمعرفة هذه الآثار بشيء من التفصيل فان الأمر يتطلب دراسة لكل أثر على حده .

أولا الآثار الاقتصادية :

لمعرفة آثار الرق على النواحى الاقتصادية يجدر بنا أن نلقى نظرة على الأحوال الزراعية والصناعية قبل قدوم الأوربيين حتى يظهر الأثر الذى أحدثه هذا التواجد الأوربى ومن المعروف أن شعوب منطقة غرب أفريقيا قد عرفت الزراعة منذ أمد بعيد ، وانتشرت الزراعة عبر السافانا وقامت زراعات الدخن والذرة والكسافا والموز واليام وساعد اشتغال السكان بالزراعة على توفر عامل الاستقرار السكانى فى المنطقة وادخال عدد من المحاصيل التجارية بعد اعتناق السكان للدين الاسلامى فى نطاق السفانا فى شمال نيجيريا ومالى والسنغال وكانت الزراعة بدائية يمارسها السكان من الولوف والماندينجو والسنغاى والهوسا وشعوب الأيبو واليوروبا والأشانتى وكان الرق يستخدم فى الزراعة من أجل استغلال ثروات المنطقة لصالح سكانها (٥٠) .

أما فى المجال الصناعى والحرف التعدينية فنجد أن المنطقة قد شهدت صناعات يدوية متمثلة فى صناعة النسيج والفخار والأدوات النحاسية والبرونزية وقامت حضارات قديمة فى ايفى وبنين فى الأطراف الشمالية من الغابة ، كما قامت حرف تعدين وصياغة الذهب فى ممالك غانا ومالى وصنغى ، وقامت صناعة الملح والقصدير . ويحدثنا بارث عندما زار كانو عام ١٨٥١ أنه وجد رواج المنتجات

---

(٥٠) محمد رياض : الاقتصاد الأفريقى : ص ٢٢٦ .

(51) Kirk Green, A.H.M. Barth's Travels in Nigeria, London, 1962, p. 116 .

الوطنيـــة كالأقمشة القطنيـــة المنسوجة كما وجد أن المنتجات الجلدية تحتل مكانة بارزة بين الصناعات الوطنية (٥١) •

وباختصار فان تجـارة الرقيق ان كانت قــد وجدت فى غــرب أفريقيا قبل وصول الأوربيين اليها لم تكن ذات أثر على الثروة البشرية هنــاك ولــكن مع قــدوم الأوربيين بدأت تظهر الآثار الاقتصــادية السيئة حيث أدت هذه التجارة الى تدمير وهــدم القوى البشرية فى المنطقـــة وهى أهم عامل فى القوى الانتاجيـــة يضاف الى ذلك عمليات التــدمير والهــدم بسبب تجارة الرقيق وما أعقبها من نقص خطير فى عدد السكان والقوى العاملة فى المنطقـــة هذا فضلا عما لحق بالأرض الزراعية من تدمير لمساحات واسعة وحرق وتدمير القرى بسبب غارات الرقيق ، وقــد ترتب على هذه العمليات الهــدمية العجز الــكامل عن مزاولة أى نشــاط اقتصــادى ايجابى سواء من الناحية الزراعية أو الصناعية أو التجارية (٥٢) •

لقد حطمت تجــارة الرقيق القرى والمراعى وهجر الناس مناطق استقرارهم الى منــاطق أخرى أكثر أمنا وطمأنينـــة وقــد أدى هذا التشتت الذى لحق بالشعوب الأفريقية الى نقص فى القدرة الانتاجية بسبب اصطياد عدد كبير من الرقيق أو بسبب تدمير المنــاطق الشاسعة الصالحة للزراعة أو الرعى ، وترتب على هــذا الدمار اتجاه النشـــاط الاقتصادى الى انتاج الحد الأدنى للطعام والذى لا يغطى الاستهلاك المحلى أو المشــاركة فى الحروب ضــد القبــائل الأخرى لصيد أكبر عدد من الرقيق •

وفى المجال الصـــناعى نجد أن الاضراب الذى صــحب عمليات قنص الرقيق قــد أدى الى عــدم وجود دوافع لدى الأفراد للعمــل فى المجــال الصــناعى لأن الأسواق فقــدت المستهلكين وتحول عــدد

---

(٥٢) صبحى محمد نافع : مرجع سابق ، ص ٥٦ .

كبير منهم الى العمل بالرق والبحث عن وسـائل لشن الحروب والاغارة على القبـائل الأخرى وقـد أثر هـذا على الصناعات المحلية كالنسيج والأقمشة والأحـذية والودع والصناعات الفخارية كما انصرف الناس الى شراء المصـنوعات الأوربيـة البديلة على كل هذا انحسار النشاط الصـناعى فى بعض المنـاطق الشماليـة من غرب أفريقيـا والمثـال الواضح لذلك هو مدينـة كانو فى شمال نيجيريا التى زارها بارث عام ١٨٥١ ووجد بها نشاطا صناعيا وتجاريا هاما [٥٣] •

ولقد كان لرواج تجـارة الرقيـق على أيدى الأوربيين أثره فى نهب ثروات المنطقة الاقتصـادية والقضـاء على أى مظهر من مظاهر النشاط الاقتصـادى فيها ، ولم يتوقف الأمر عند حد استمرار ضياع القوة العـاملة أو الطاقة التى كان من الممكن الاستفادة بها فى العملية الانتاجيـة أو عند حد استمرار تـدمير الثروة الطبيعيـة نفسها من أراض ومحاصيل ومراع ومراكز تجـارية بل امتد الأثر الى احـداث حالة خطيرة من الفوضى والقلق وعـدم الاطمئنان يصعب معها انتـاج أدنى حد من الطعام سواء للاستهلاك المحلى أو للتصدير •

والخلاصة أن تجارة الرقيق ورواجها من منطقـة غرب أفريقيـا عبر الأطلنطى قـد أدت الى عملية استغلال منظم لثروات المنطقـة لصـالح القوى الأوربيـة والتى تمثلت فى استغلال الثروة البشرية كرقيق ثم نقلها الى العالم الجديد ، وتبع ذلك عمليات استغلال مستمرة ومنتظمة للثروات والمواد الخـام الأخرى بالمنطقـة بعـد استعمارها واعادة تشكيل أوضاعها الاقتصادية بما يتلاءم مع الظروف والأوضاع الجـديدة وذلك من أجل نهب أكبر قـدر من هـذه الثروات بأدنى التكاليف • ولقـد كان لهـذا الاستقلال أثره بعد استقلال دول غرب أفريقيا التى لازالت تعانى من اقتصاد متخلف حيث يعتمد اقتصـادها

---

(53) Fage, J. D. : An Introduction to the History of West Africa, p. 86.

أساسا على تصدير المواد الخام الى الدول الأوربية الغربية ، وبقاء المنطقة فى عداد الدول المستهلكة للمنتجات والصناعات الأوربية وبالتالى اعتبارها سوقا لها ، وهذا الوضع لايساعد بأى حال من الأحوال على قيام صناعات حديثة بسبب المنافسة العالمية أو عدم وجود رأس المال اللازم أن بسبب عدم وجود الخبرة الفنية ، وبالتالى صارت تجارة الرقيق من العوامل التى أثرت فى اقتصاديات دول غرب أفريقيا حتى بعد القضاء عليها .

وكانت آثار تجارة الرقيق سيئة على المجتمعات الأفريقية حيث أن انحطاط الزنوج فى داخل القارة انما يرجع الى تعامل الأوربيين فى هذه التجارة البشعة وكان لتعاملهم فيها الأثر الأكبر فى انتشار الفوضى والخراب وتحطيم القبائل وتشريد مجتمعات بشرية بأكملها، ولم يهلك الرقيق فقط من سوء المعاملة البدنية بل من اليأس والأسى والانتحار (٥٤) .

كما كان لفقد أفريقيا للأيدى العاملة النشطة التى كان من الممكن استغلالها فى عمل انتاجى مثمر ، أثره فى ايجاد حالة من الشك والريبة بين السكان الذين لم يشعروا فى ظل هذه التجارة بالأمان والاطمئنان وبذلك صار السكان يعيشون ليومهم ولا يفكرون فى غدهم أو فى مستقبلهم ، وهذا الشعور يجعل من الصعب البحث عن وسائل لتحسين الانتاج بل ترتب على هذه الحالة من الفوضى وعدم الاستقرار الى هروب عدد كبير من السكان من أوطانهم الى أماكن تتوفر فيها الحماية وكانت هذه العمليات تتم بشكل جماعى وصار هدف السكان هو البحث عن وسائل للدفاع عن أنفسهم وليس البحث عن الاستقرار أو تشييد المدن (٥٥) .

---

(٥٤) د. عبد الملك عوده : السياسة والحكم فى أفريقيا ، ص ٧٧ .
(٥٥) د. سعد زغلول عبد ربه تجارة الرقيق وأثرها على استعمار غرب أفريقيا بحث منشور بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد العشرون لعام ١٩٧٣ .

ثانيا الآثار السياسية :

من أبرز الآثار السياسية التى ترتبت على تجارة الرقيق هو استغلال الدول الأوربية لعملية القضاء على هذه التجارة بمحاولة جديدة هدفها السيطرة وبسط النفوذ على القارة الأفريقية لأجل الاستغلال الاقتصادى المباشر للمنطقة وشعوبها • ولتحقيق هذا الهدف اتخذت الدول الأوربية من محاربة الرق شكلا ومظهرا انسانيا يبرر سيطرة هذه الدول على أجزاء من القارة الأفريقية وصحيح أن محاربة الرق قد اتخذ شكلا انسانيا هدفه النهوض بشعوب المنطقة والأخذ بيدهم الى سلم الحضارة والتقدم وأخذت الجماعات الانسانية تبذل قصارى جهدها من أجل القضاء على هذه التجارة غير المشروعة وتزعمت انجلترا هذا الدور البطولى حتى صدر قانون الغاء الرق عام ١٨٠٧ والغى الرقيق فى بريطانيا ومستعمراتها فى عام ١٨٣٣ • ولم يكن هدف بريطانيا انسانيا فى حد ذاته ولكنه ارتبط أساسا بما يحققه لبريطانيا من سيادة على البحار وامتلاك وتكوين قواعد جديدة على السواحل الأفريقية تضمن لها الاحتكار التجارى والوصول الى مستعمراتها فى آسيا وقد ساعدها على ذلك احتكارها للصناعة وعدم وجود منافسين لها فى هذا المجال (٥٦) •

لقد اتخذت الدول الأوربية وخاصة انجلترا وفرنسا من عملية القضاء على الرقيق وسيلة لبسط السيطرة والنفوذ على مناطق غرب أفريقيا ومن الملاحظ أن بريطانيا تمكنت من تكوين أربع مستعمرات لها فى غرب أفريقيا ونافستها فرنسا والمانيا وايطاليا والبرتغال وأخذت كل دولة تدفع بالمغامرين والتجار لاثبات ملكية بلادهم فى المناطق التى يستطيعون الوصول اليها بحجة محاربة تجارة الرقيق وبدأت مرحلة جديدة من مراحل التنافس الدولى وتقسيم غرب أفريقيا

---

(٥٦) صبحى محمد نافع : مرجع سابق ، ص ٧٠ .

بين هذه الدول الأوربيـــة ومع اشتداد المنـــافسة بين القوى الأوربية كان لابد لهـــذه القوى أن تتفق فيما بينهـــا على أسلوب لتقسيم هـــذه الممتلكات وكان هذا سببا فى عقد مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤/١٨٨٥ الذى وافق على ادعاءات الدول الأوربية وأضفى صفة شرعيـــة وقانونية على ماتم الاستيلاء عليه من أجزاء القارة الأفريقية ٠

وبعد استتباب الأمر للاستعمار والسيطرة الأوربيـــة على منطقة غرب أفريقيا وتقسيمها فيما بينها بدأت عمليـــات الاســـتغلال المنظم لمواردها الاقتصادية ٠

وباختصار يمكننا أن نقرر أنه فى حين كانت التجارة الأوربية فى الرقيق من منطقـــة غرب أفريقيـــا والوسائل التى اتبعوها ســـواء فى استرقاق الأهالى أنفسهم أو التجـــارة فيهم ، بمثابة هدم وتدمير لـــكل مظهر من مظاهر الحيـــاة البشرية للمجتمعات الأفريقيـــة فقـــد كانت بالنسبة للأوربيين دعامة هامة من دعائم بنـــاء الاقتصاديات الأوربيـــة والأمريكية مما جعلها تصل الى مرتبـــة الانطلاق الاقتصادى الهـــائل ولولا الرقيق الأفريقى والثروات الهائلة التى حققها الأوربيون من جراء هذه التجارة فى الانسان الأفـــريقى لمـــا قامت لأوربا أو لأمريكا مثل هذه القوة الهـــائلة فى تلك الفترة الوجيزة نسبيا ، ومن الممكن أن نقول ان الرقيق الأفريقى كان بمثابة الهشيم الذى احترق ليـــولد الطاقـــة اللازمة لتحريك ودفع محركات المجتمعـــات الأوربية والأمريكية لبنـــاء اقتصادياتها وتقدمها الحاضر ٠

الآثار الاجتماعية والخلقيـــة :

لقد تعرضت القـــارة الأفريقية لعملية استنزاف بشرى لم يسبق له مثيل ، فلقد ترتب على عمليـــات البيع للرقيق نقص شديد فى عدد سكان القرى حتى أن بعضها قـــد أزيل تماما وفى أوج صادرات الرقيق الأطلنطية فى النصـــف الثـــانى من القرن التاسع عشر بلغت فى عام

أو عامين حوالى مائة الف نسمة حتى أصبحت المستعمرات الأوربية فى العالم الجديد تضم حوالى أربعين مليونا من الرقيق ، ولعل النقص الشديد فى عدد السكان الذى ظهر بعد رواج هذه التجارة انما يعود الى طريقة معاملة السكان فى فترة الرق والى نقل عدد كبير منهم الى العالم الجديد بالقوة الغاشمة وبدون رحمة أو هوادة (٥٧) .

وكانت الرحلة التى يقطعها الرقيق من داخل القارة الى محطات الشحن تمر بمراحل شاقة حيث كان الرقيق يلقون الوانا من العذاب يتمثل فى قيدهم من أعناقهم بالأغلال واذا فكر أحدهم فى المقاومة أو الاحتجاج شدوا أعناقهم على عود ثقيل من الخشب وبعد ذلك يلقون فى السفن بطريقة لا انسانية (٥٨) .

وخسرت أفريقيا الكثير من سكانها بسبب نقص الخدمات الطبية وارتفاع نسبة الوفيات بسبب انتشار الأمراض التى لم تكن تعرفها المنطقة من قبل وبسبب نقل عدد كبير من القوى البشرية الى الخارج حيث كان متوسط ماينقل من العبيد الى أمريكا سنويا أكثر من مائة الف عبد (٥٩) . ويقدر عدد السكان الذين فقدتهم منطقة غرب أفريقيا مابين ١٨ و٤٠ مليونا ، وعلى الرغم من اختلاف الأرقام حول ماخسرته القارة الأفريقية من ثروتها البشرية الا أنه من المؤكد أن أفريقيا خسرت أكثر من مائة مليون شخص معظمهم من الشباب ولم يبق بالقارة سوى العجزة والشيوخ غير القادرين على العمل والانتاج ، ولقد كان لهذا أثره فى احداث خلل فى السكان ، كما عانت منطقة غرب أفريقيا من فراغ سكانى .

---

(٥٧) كلارك جون هنريك : تجارة الرق والرقيق ، ترجمة مصطفى الشهابى ١٩٨٢ ، ص ٣٥ .

(٥٨) عنبر محمد عبد الرحيم : التمييز العنصرى فى افريقيا ، ص٣٠ .

(٥٩) الصقار فؤاد أحمد : التفرقة العنصرية فى أفريقيا . القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٥ .

وترتب على الحروب التى قامت بين الجماعات القبلية أكبر فائدة للأوربيين الذين استفادوا منها لصالحهم ، حيث نتج عن الأسلحة النارية والخمور فوضى وحروب بين الأفارقة الذين استغلوا وجود تلك الأسلحة بين أيديهم لتصفية الخلافات والمنازعات القبلية ولم يتوقف دور الأوربيين عند هذا الحد بل تدخلوا فى هذه الخلافات وشجعوا فريقا ضد الآخر لتوسيع هوة الخلاف وشن الحروب وحرق القرى ، وكان الهدف من كل هذا هو القبض على أكبر عدد من الوطنيين واسترقاقهم (٦٠) .

وعلى هذا فانه بسبب تجارة الرقيق تجردت المجتمعات الأفريقية من بعض الصفات الانسانية وتركت هذه التجارة أثرها فى سلوك الأفارقة الذين ظهرت عليهم علامات الشك والريبة والحذر والعداء للأوربيين اعتقادا منهم أن هذه التجارة كانت السبب المباشر فى ذلك التأخر الشديد الذى انحدر اليه قومهم بعد أن كانت لهم ممالك وحضارات مزدهرة قبل قدوم الأوربيين (٦١) .

---

(٦٠) انظر سعد زغلول عبد ربه : مرجع سابق .

(٦١) شكرى ربحى شكرى التاجى : مكافحة بريطانيا لتجارة الرقيق فى غرب أفريقيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، رسالة ماجستير عام ١٩٧٤ ــ كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ص ٢٩٥ .

مصـــــادر البحث

أولا رسائل علمية :

١ — شكرى ربحى شكرى التاجى : مكافحة بريطانيـــا لتجارة الرقيق فى غرب أفريقيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر رسالة ماجستير عام ١٩٧٤ — كلية الآداب جامعة عين شمس ٠

٢ — صبحى محمد نافع : تجارة الرقيـــق فى غرب أفريقيـــا وآثارها الحالية — رسالة دبلوم غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية عام ١٩٧٠ ٠

ثانيا — دوريات علمية :

د٠ سعد زغلول عبد ربه : تجارة الرقيق وآثارها على اســـتعمار غرب أفريقيا ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد العشرون لعام ١٩٧٣ ٠

ثالثا — وثائق أصلية باللغة الانجليزية :

1. Parliamentary Papers XXIII, (366).
2. Parliamentary Papers, 1839.
3. Parliamentary Papers 1843, XLVIII (472).
4. F.O. Cofidental Print, 1845.

رابعا — مراجع عربيـــة :

١ — البراوى راشـــد : مجموعـــة الوثائق الأساسية ، الجزء الأول ، المركز الدولى لمصر وقنـــــاة الســـويس ، الطبعـــــة الأولى — القاهرة ١٩٥٢ ٠

٢ ـ الصقار ، فؤاد أحمد : التفرقة العنصرية فى أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٢ •

٣ ـ الجمل ، شوقى : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها : القاهرة ١٩٨٠ •

تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الثانى •

٤ ـ خلف الله ، عبد الغنى عبد الله : مستقبل أفريقيا السياسى ، القاهرة ١٩٦١ •

٥ ـ رياض ، زاهر : استعمار أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٥ •

٦ ـ رياض ، محمد : الاقتصاد الأفريقى •

٧ ـ فيج جون : ورولاند أوليفر : موجز تاريخ أفريقيا ، ترجمة دولت أحمد صادق ومراجعة د• محمد السيد غلاب ـ القاهرة ١٩٦٥ •

٨ ـ كلارك جون هنريك : تجارة الرق والرقيق ، ترجمة مصطفى الشهابى ١٩٨٢ •

٩ ـ عطية ، أحمد محمد : دفاع عن الزنوج ، القاهرة ١٩٦٥ •

١٠ـ عوده ، عبد الملك ، السياسة والحكم فى أفريقيا ـ القاهرة ١٩٦٢ •

١١ـ منير ، محمد عبد الرحيم : التمييز العنصرى فى أفريقيا •

١٢ـ يونس ، محمد عبد المنعم : أفريقيا بين الاسترقاق والتحرر ـ القاهرة ١٩٨١ •

خامسا – مراجع أجنبيـــة :

1. Blake, John : West Africa, 1445-1578, London, 1977.
2. Burns Alan : History of Nigeria London 1955.
3. Coupland, R. : The Britich Anti — Slavery Movement, London, 1933.
4. Curtin Philip : The Atlantic Slave Trade, a census London, 1969.
5. Curtin Philop and others : African History, London, 1978.
6. Davidson, Basil : A History of West Africa, U.S.A., 1966.
7. Donnan, E. : Documents illustrative of the history of the Slave Trade to America, 4 vols. Washington 1930-5, vol. 1.
8. Elias, T. O. : Ghana and Sierra Leone, London, 1962.
9. Fage, J.D. : A History of Africa, London, 1978.
10. Fyfe, C. : A Short History of Serra Leone, London, 1965.
11. Good ell, William : Slavery and Anti Slavery, New York, 1852.
12. Groves, C.P. : The Planting of Christianity in Africa, Vol. 1 London 1955.
13. Hertslet, M. : Map of Africa by Treaty, 3 vol. London, 1906.
14. Johnston, H. H. : A History of the Colonization of Africa Cambridge, 1913.
15. Kirk Green, A.H.M. : Barth's Travels in Nigeria, London, 1962.
16. Lucas, C.P. : An Historical Geography of the British Colonies, vol. III, West Africa, Oxford, 1913.
17. Newbury, C. W. : British Policy towards West Africa, London, 1965.

« فــؤاد لطيف الحجازى »

صــفحة مجهولة من

الحركة الوطنية المصرية

بقلم : الدكتور

يواقيم رزق مرقص

المشرف بمركز

وثائق وتاريخ مصر المعاصر

عندما قام الزعيم مصطفى كامل ينفث الوطنية فى جســد الأمة المصرية بعد أن احتلتها انجلترا عام ١٨٨٢ ، كان وراءه نفر من الشباب ، آمنوا بحقوق مصر ، فدعموا موقفه ماديا ووطنيا ، مما كان سببا فى استمراره فى عمله الوطنى ، ومن هؤلاء الذين أزكوا معه شعلة الوطنية « فؤاد لطيف ، سليم الحجازى » .

ولقــد كان لفؤاد هذا دوره فى داخل مصر وفى خارجها ، مــع مصطفى كامل ، ومع خلفه محمد فريد ، بل ومع الخديو عباس حلمى الثانى نفسه ، ولذا سنتعرض له بهذه الدراسة منذ نشأته ، ثم أدواره مع كل من هؤلاء حتى نهايته فى يونيو عام ١٩٤١ .

نشــأته وحياته :

ولد فؤاد لطيف فى الرابع من شــهر مايو عام ١٨٧٥ فى أسرة انحدرت من حكام مملكة القبارديين بشمال القوقاز لأكثر من ألف عام [١]،

---

(١) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية من مصطفى كامل القاهرة ١٩٦٩ ص ٦٥ .

من أب هو لطيف سليم [٢] ، الذى كان له جهده الوطنى الملحوظ فى مصر فى المطالبة بحقوق مصر والمصريين عن كل غبن كان يقع عليهم ، فكان ممن تزعموا حركة الضباط المفصولين فى فبراير عام ١٨٧٩ [٣] ، حيث تقدم مظاهرتهم التى شاركهم فيها أفراد الشعب وذهب الى نظارة المالية ، وتقابلوا مع نوبار باشا ، الذى أظهر تجاههم الغلظة والكبرياء ، فكان نصيبه هو والسير ريفرز ويلسون الانجليزى ورياض باشا وزير الداخلية ، الحبس فى احدى غرف النظارة ، ولم يخرجهم من كربهم هذا الا وصول الخديو اسماعيل ، الذى ناله شىء من الاهانة أيضا ، الا أنه امتص غضب الضباط الثائرين ، بوعده لهم بصرف مرتباتهم [٤] .

والى جانب الروح الوطنية التى كان يتمتع بها هذا الوالد وورثها ابنه المترجم ، كانت هناك مائدة أدبية وعلمية قدمها له أيضا ، اذ كان قصره بشارع سوق السلاح بالقلعة صالونا أدبيا وسياسيا ، أمه كثير من أصحاب الرأى وأرباب القلم ، ممن تأثروا بفكر جمال الدين الأفغانى

---

(٢) تخرج لطيف سليم فى المدرسة الحربية ، وكانت له ثقافته العلمية الواسعة بجانب ثقافته العسكرية ، وتولى التدريس فى المدرسة الحربية ، ثم عين مفتشا بنظارة المعارف ، ثم مديرا للفيوم فرئيسا فخريا للمحكمة المختلطة (عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل زعيم الحركة الوطنية القاهرة ١٩٦٢ ص ٣٨٣) .

(٣) وترجع أسباب هذه الثورة الى اهمال النظارة دفع رواتب الضباط وفصل ٢٥٠٠ منهم وكانت ترهبهم عندما رأت فيهم العقبة التى تحول دون التدخل الأجنبى ، وطلبت منهم تسليم أسلحتهم ، فتجمعوا ووجدوا فيها فرصتهم للتعبير عن هذا الغبن ، ويشير بعض الدارسين لهذه الواقعة الى أن الخديو استغل قبول الضباط له فى تحسين موقفه الداخلى للاطاحة بوزارة نوبار بحجة أن تصرفه كان مسئولا عن وقوع هذا الشغب (للمزيد يمكن الرجوع الى الرافعى : عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٧٠ ، يونان لبيب : تاريخ الوزارات المصرية ، القاهرة ١٩٧٥ ص ٦٠ وما بعدها) .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج ٢ ص ١٧٠ .

وغيره ، أمثال أحمد الصوفانى وحسن عبد الرازق وصادق رمضان [٥] ، فضلا عن الشيخ على الليثى (١٨٢١ — ١٨٩٦) واسماعيل صبرى (١٨٥٤ — ١٩٢٣) ومحمود سالم واسماعيل الشيمى (المتوفى عام ١٩١٢) ، هؤلاء الذين كانت لهم مواقفهم ضد الاحتلال البريطانى [٦] .

وفى هذا الصالون أيضا التقى مصطفى كامل بهذا الوالد ، حيث نبتت فكرة انشاء الحزب الوطنى .

ولم تكن هذه البيئة الوطنية التى نشأ فيها فؤاد تبدأ من أبيه ، وانما كانت ممتدة من جده « سليم الحجازى » أحد قواد محمد على تحت امرة ابراهيم فى زحفه على تركيا [٧] .

•• ومن هنا كانت تغلب على هذه البيئة الصبغة العسكرية ، فأراد لطيف أن يسلك ابنه مسلكه فى سلك الجندية ، وكان دائما يبث فيه هذه الروح حتى أسماه (الولد الشجاع) ، ولكن كان فؤاد له اتجاهه الخاص ، فقد أنهى دراسته الابتدائية ، ودخل مدرسة الفرير حيث نال منها شهادة البكالوريا ، التى دخل بعدها مدرسة الحقوق الأميرية ، ومنها انتقل الى مدرسة الحقوق الفرنسية بباريس ، وحصل منها على اجازة الحقوق فى عام ١٨٩٦ [٨] .

وحدث فى عام ١٨٩٨ أن اصطحبه والده فى زيارة لتركيا ، حيث زار السلطان العثمانى ، وعرفه عليه ، وهنا يبدو أن صيت والده قد وصل

---

(٥) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية ص ١٧ .

(6) Holt, P. M.: Political and social Change in Modern Egypt, London 1968, p. 311. The Egyptian Nationalist Party 1892-1919.

(٧) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ١٩٥١ ص٢٧٧ ولمزيد من المعلومات عن سليم الحجازى يمكن الرجوع الى (عبد العزيز حافظ دنيا : سليم الحجازى القاهرة ١٩٦٣ .

(٨) الرافعى : مصطفى كامل ، ص ٣٤ .

الى مسامع الباب العالى ، الذى قبل زيارته فأنعم على الأب (لطيف) برتبة الباشوية كما أنعم على الابن (فؤاد) برتبة البكوية •

وبعد أن عادا تزوج فؤاد بك لطيف من كريمة محمد شكيب باشا ، أحد قواد الجيش المصرى آنذاك ، وممن تولوا قومندانية القلعة ، ومدير عام الدواوين (٩) •

ظهر نشاط فؤاد الحجازى السياسى منذ شبابه المبكر ، نتيجة هذه النشأة فضلا عن تزامنه مع نشاط مصطفى كامل وعلاقته به التى سيأتى الحديث عنها فيما بعد •

واستطرادا للحديث عن حياة هذا الرجل ، أنه عاش فى مصر حتى نهاية العقد الأول من هذا القرن ، ساهم فى الأحداث السياسية والوطنية ، وشهد مواقف الخديو من الوطنيين ، وارتمائه فى أحضان الاحتلال بعد أن لمس فيه القوة الأعظم ، فهاجر فؤاد الى تركيا ، ولمع نجمه هناك ، فلم يمض على وجوده فيها زمن طويل حتى عينه السلطان قنصلا للدولة العلية فى سلانيك فى نوفمبر عام ١٩١٢ •

وعندما سيرت تركيا حملتها على مصر فى عام ١٩١٥ كان فؤاد لطيف بك أحد ضباطها برتبة أميرالاى ، ولما فشل الغزو أصدر الصدر الأعظم (الأمير حليم) قرارا بتعيين فؤاد بك سفيرا لتركيا فى سويسرا ، وكم آثار تعيينه فى هذا المنصب من سخط بين الأتراك أنفسهم ، اذ كيف يحصل مصرى — من احدى ولايات الدولة العثمانية على هذا المنصب المرموق دون الأتراك أصحاب الشأن فى البلاد !! •

ولكن عندما ترامت الى سمع الصدر الأعظم هذه الأقوال ، اجتمع بأصحابها وبين لهم أنه انما عين فؤاد بك الحجازى لكفاءته « اننى لم

---

(٩) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية ص ٦٥ .

أعين فؤاد بك فى هذا المنصب الا لكفاءته ، ومعرفته للغات كثيرة ، وهى لا غنى عنها لكل من يتولى المناصب الدبلوماسية ، ولو كنت رأيت فى أحدكم من يفوقه كفاءة ما ترددت فى تعيينه بدلا منه » (١٠) .

وبقدر ما لاحقته عأون الحاسدين عند تعيينه ، لاحقه لسان محمد فريد الذى كان فى ذلك الوقت هاربا فى سويسرا ، وظن أن الصدر الأعظم عينه ليكون عينا له عليهم يتجسس لحسابهم ، وكان الود قد عاد بين فريد وبين الخديو عباس الذى كان موجودا هناك آنئذ بعد أن خلع من العرش فى مصر عام ١٩١٥ (١١) .

وفى نفس العام (١٩١٥) أثناء الحرب العالمية الأولى فشلت انجلترا فى حربها فى الدردنيل ، فلجأت الى اخراج تركيا من الحرب تخفيفا من الضغط عليها ، ولجأت فى ذلك الى لطيف بك فى سويسرا ، ليكون واسطة لها عندها فى ذلك لقربه من قلب الصدر الأعظم ، ولكن فؤاد بك رفض هذا التوسط ، فعرضت عليه مبلغ ثلاثة ملايين جنيه (هدية) يأخذ منها ما يشاء لنفسه ، ويعطى للصدر الأعظم ما يراه ، ويوزع الباقى على زعماء البلاد الموالين لتركيا ، ولكنه رفض كل هذا ولما رأت منه انجلترا هذا اجابته بالحكم عليه بالاعدام ومصادرة أملاكه وأمواله فى مصر ، فلم يبال بكل هذا ، وظل يضيق الخناق على أتباعها فى الخارج ومنهم الخديو عباس .

ولما خسرت تركيا الحرب ، وبدأ الحديث عن الصلح ، لم تقبل انجلترا أن يكون فؤاد بك الحجازى مندوبا رسميا لتركيا فى هذا الشأن ، وضغطت عليها لاعفائه من منصبه ، مما اضطرت تركيا معه الى أن تنصحه بالاستقالة فوافق ، وقدم استقالته ، وسرعان ما قبلتها

---

(١٠) المصدر السابق ص ٦٦ .

(١١) مذكرات محمد فريد ك ٣ ص ١٠١ .

الحكومة التركية ، وأرسلت اليه الموافقة فى شكل خطاب شكر ، وأنعمت عليه بالنيشان المجيدى •

وبهذا ترك فؤاد منصبه فى أواخر عام ١٩١٨ ، ولكنه ظل يعيش فى سويسرا ، لأن الحكم عليه بالاعدام ومصادرة أمواله فى مصر كان لا يزال ساريا •

ولما تطورت الأمور والصراعات السياسية وصدر تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ وسمح للمصريين المبعدين فى الخارج بالعودة الى بلادهم ، سعى فؤاد بك ضمن من سعوا للعودة ، ولكن السلطات الفعلية فى البلاد رفضته فى أول الأمر ، لولا تدخل الملك فيصل ملك العراق وعدلى يكن باشا ، حتى صرح له بالعودة الى مصر ، وردت اليه أملاكه ، ولعل فى ذلك كانت ترضية للأصوا تالوطنية فى ذلك الجو الملتهب •

بدأ فؤاد بعد ذلك يدخل فى زمرة الملك فؤاد الأول ، عندما بـدأ يستميل اليه أعداء عباس ، كما قدر فيه خبرته السابقة واطلاعه الواسع ، وثقافته والمامه باللغات الأجنبية ، فأمر بتعيينه مديرا فى وزارة الخارجية فى بداية عملها ، الا أنه عاد فاختلف معه عندما كان الملك يعين الوزراء المفوضين بشكل مخالف للدستور ، واستقال من منصبه •

ولما مات الملك فؤاد الأول ، أنعم مجلس الوصـاية على فؤاد بك الحجازى برتبة الباشوية •

وظل فؤاد باشا فى مصر الى أن غادرها فى منتصف عام ١٩٣٩ الى سويسرا للاستشفاء ، وقد قامت الحرب العالمية الثانية ومنعته من العودة الى مصر ، فمات فى سويسرا فى ٦ يونية عام ١٩٤١ ، ونقلت رفاته بعد ذلك الى مصر حيث دفن فى مقابر الأسرة فى جوار مسـجد الامام الشافعى بالقاهرة [١٢] •

---

(١٢) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية صص ٦٨ ، ٦٩ •

تلك كانت حياة فؤاد لطيف الحجازى بشكل عام ، الا أنه فى خلالها كانت له أدوار سياسية ووطنية نعرفها فى علاقاته :

أولا : مصطفى كامل :

ثانيا : محمد فريد :

ثلاثا : مع الخديو عباس حلمى الثانى :

أولا : علاقته بمصطفى كامل :

بدأت علاقته بمصطفى كامل أثناء دراستهما للحقوق بمدرسة الحقوق الخديوية بالقاهرة ، فتآلفا لدرجة أن كان مصطفى كامل كثيرا ما يتردد عليه فى منزله ، وهناك تقابل مع والده « لطيف سليم الحجازى» الذى أحس فيه الوطنية فأنس اليه لدرجة ان كان يقول لابنه عنه : « انه الشعلة الوطنية المنتظرة » (١٣) .

وقد حدث يوما أثناء دراستهما (مصطفى وفؤاد) أن حدثت بينهما مشادة واحتد كل منهما على الآخر ، ولما وصل الأمر الى اسماع المسئولين فى مدرسة الحقوق صدر أمر المسئولين فيها بحرمانهما من الدراسة فيها لمدة أسبوع ، فكان لهذا القرار وقعه السىء على علاقتهما ، اذ رفض فؤاد العودة الى هذه المدرسة ، والتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية التى كانت قد تأسست وقتذاك ، أما مصطفى فعاد الى المدرسة ، واستمر فى دراسته حتى انتهى من السنة الأولى فيها .

ظلت العلاقات منقطعة بينهما حتى عام ١٨٩٢ حين التقيا مصادفة فى الاسكندرية ، عندما سافر مصطفى اليها لمقابلة « بشارة بك تقلا » صاحب جريدة الأهرام ، وأشار فؤاد عليه بالالتحاق بمدرسة الحقوق الفرنسية التى يدرس فيها ، فوافقه مصطفى على ذلك حتى يكونا سويا

---

(١٣) الرافعى : مصطفى كامل ص ٣٨٣ .

من ناحية وليلم باللغة الفرنسية من ناحية أخرى ليفيد منها فى الدفاع عن قضية الوطن [١٤] ، وعادت صلتهما بعضهما ببعض •

وقد أفاد مصطفى كامل كثيرا من تردده على بيت فؤاد ، حيث اتصل بالأوساط الأدبية والسياسية من خلال الصالون الأدبى الذى كان ينعقد هناك ، حتى قدمه الشيخ على الليثى الى الخديو عباس حلمى الثانى فى مارس ١٨٩٢ [١٥] •

بل كان من أثر هذه الزيارات أيضا أن فكر لطيف سليم (الأب) فى تكوين حزب سياسى للدفاع عن القضية المصرية فى المحافل الأوربية بشكل عام وفى فرنسا بشكل خاص ، وفكر فعلا فى عام ١٨٩٣ فى تكوين هذا الحزب باسم (الحزب الوطنى) أو (حزب الاستقلال) وكان يضم نخبة من المستشارين والكتاب والصحفيين والأعيان وأعضاء مجلس الشورى ومصطفى كامل ، الا أن الخوف والضعف تسربا الى أعضائه فعجز عن الاستمرار فانفرط عقده ، ولكن بقيت فكرته مضغة فى ضمير مصطفى كامل وفكره •

وبهذا يمكن القول بأن علاقة فؤاد بمصطفى كامل كانت سببا فى تنمية فكرة الوطنية بشكل منظم لدى الزعيم مصطفى كامل •

كان بيت فؤاد الحجازى خير دافع لمصطفى كامل للجهر بدعواه الوطنية أمام المحافل الدولية فى الخارج ، ففيه أعد العدة للسفر ، ومنه استمد العون الأدبى والمالى ، وفيه اتفق مع فؤاد على الجهاد سويا كل فى موقعه ، فعندما سافر مصطفى كامل الى أوروبا لأول مرة فى عام ١٨٩٥ اتفق معه على المراسلة ، ولعلمهما بنوايا الاستعمار

---

(١٤) المرجع نفسه ص ٣٤ ، أحمد رشاد : مصطفى كامل ، القاهرة ص ٣٨ •

(١٥) أحمد رشاد : المصدر السابق ص ٣٨ .

ومراقبته لتحركاتهما اتفقا على الكتابة بشكل شفرة ترك مفتاحها لديه قبل سفره [١٦] ، وبلغ من ايمان فؤاد الحجازى بجهد مصطفى كامل أن نشر فى جريدة المؤيد « ... بارح القطــر المصرى فى أول مايو الماضى قاصدا أوربا نائيا عن أهله وأحبابه مضحيا بنفسه فى ســبيل خدمة وطنه ، فان كان صغر السن كل ما يؤخذ عليه ، فليس ذنبه ، وان لم يكن من الطبقة الأولى فى مصــائب الأمــة فانما نهضته تشرفــه ويخلف العار على غيره » [١٧] .

وهو فى هذا يدافع عنه ضــد ما كانت تكتبه الصحافة الموالية للاستعمار من أنه « غض وغ يرناجح ، وأنه فى مستوى اجتماعى دون أن يقف مدافعا عن مصر » [١٨] .

وكان مصطفى كامل شديد القلق بفؤاد الحجازى وأبيه مما تعكســه مراسلاته التى كان يبعث بها من الخارج اليه .

فأول ما تعكســه هذه المراسلات : مــدى الود بينهما عندما كان مصطفى كامل يســتهلها (بفؤاد) مجــردة ، أو (فؤادى العزيز) أو (عزيزى وفؤادى الكريم) الى غير ذلك .

ثانيا : أن علاقة كل منهما بالآخر تعدت حدود الزمالة والصداقة الى التزاور العائلى ، فيقول مصطفى كامل فى احدى رسائله (... اذا زرت المنزل فبلغ العائلة عاطر تحياتى وطمنهم على فانى باحسن حال ..) [١٩] وأنه كان يطلب أشياء خاصة من والد فؤاد بكثير من الود ، بل والحاح

---

(١٦) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية ص٢٠ ، شوقى الجمل : مراسلات مصطفى كامل القاهرة ١٩٨٢ ص ٧٩ .

(١٧) المؤيد فى ٣١ يوليو ١٨٩٥ .

(١٨) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية ص ٢٠ .

(١٩) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٧٤ .

فى بعض الأحيان ، كالحاجه فى أكثر من خطاب فى طلب « شـاهيتين جميلتين » ، كما كان يرسل اليه هدايا لتقديمها الى الصحفيين والساسة فى فرنسا ليتمكن من نشر ما يكتبه فى صحفهم دعاية للقضية المصرية [٢٠]

ثالثا : أن الاتفاق بينهما ضم اخبار كل منهما الآخر بما كان يدور فى الأوساط السياسية والصحفية حول مصر وقضيتها ، فكان فؤاد يرسل اليه ما كان يكتب عنه فى الصحف المعادية والمتعاونة ليكون على علم بما يدور فى الساحة فى مصر ، أما مصطفى كامل فكان يرسل اليه ما كان يعزم عليه ما كان يعزم عليه من ردود أو زيارات أو رحلات [٢١] ، فقد أرسل اليه اربعين صورة من اللوحة التى صممها وطبعها ووزعها عـلى مجلس النواب الفرنسى ليوزعها على الوطنيين فى مصر ويدرس احساس الرأى العام بالنسبة لها [٢٢] .

وكانت علاقته بمصطفى كامل مفيدة للحركة الوطنية التى تزعمها ، اذ كان أبوه (لطيف باشا سليم الحجازى) بجانب ايمانه بموقفه الوطنى أحد الذين أسهموا بمالهم فى تمويل مشروعات مصطفى كامل الوطنية من تنقلات ونشرات ومطبوعات واقامة فى خارج البلاد ، وكان يطلب المزيد كلما حكمته الظروف .

وهذه مراسلات مصطفى كامل لخير دليل على ذلك ، (بلغ والدك باسم الوطن المقدس ، وليس باسم الصداقة ، ألتمس منه هو وحـده أن يرسل لى مبلغ ١٥٠ جنيها هذا الشهر لهذه السنة كلها ، ولن أطلب منه شيئا بعد ذلك ، وفى السنة المقبلة سوف أدبر أمرى ، فوالدك يدفع ١٥٠ جنيها والهلباوى ١٥٠ جنيهاً ، ومحمود سالم ١٠٠ جنيه ، ٤٠٠ جنيها من هؤلاء الوطنيين الثلاثة ستكون قيمة كبيرة عندى أكبر من نقـود

(٢٠) المرجع نفسه صص ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٩ .
(٢١) المرجع نفسه ص ٧٦ .
(٢٢) المرجع نفسه ص ٧٠ .

العباس — منتظر منك جواب مستعجل اما بنعم مع المبلغ واما لا » [٢٣].

وكم وقف الاحتلال فى وجه هذه الجولة الوطنية فحاول كرومر الضغط على الخديو فتردد كثيرا فى ارسال العون المالى اليه ، وهو ما أشار اليه فى هذا الخطاب ، وردده فى خطابات أخرى ، ولكن فؤاد سليم هو الذى كان ظهيرا له فى هذه التجربة [٢٤] ، « ... اننى فى ضيق شديد لأن الخديوى لم يرسل لى من المال ما يكفيننى للسفر الى مصر ، اذ أن مقدار ما بعثه لى يكفى فقط لأسدد به نفقات الفندق ... ولقد قررت ألا أعود الى مصر الا اذا يئست من معاونة الوطنيين ، وأنى الآن يائس من واحد وهو الخديوى ، ولكن أليس فى استطاعة والدك والهلباوى ومحمود سالم أن يرسلوا لى سنويا ٤٠٠ جنيها ما داموا يعتبرون أنفسهم وطنيين ويقدرون جهودى الوطنية » [٢٥] .

ومن هذا يظهر مدى مساندة أسرة الحجازى للعمل الوطنى ممثلا فى شخص مصطفى كامل ، ولذلك كانت صدمته بموته شديدة لدرجة أن أورثته الفراش مريضا فى غربته ، ووصف شعوره فى خطابه الى مدام جولييت آدم فى ٧ يناير ١٩٠٨ فقال : « انى مريض جدا منذ السابع عشر من شهر نوفمبر ، وقد بذلت مجهودا فوق الطاقة لالقاء خطبتى فى الجمعية العمومية للحزب الوطنى ... أما صحتى فهى بين اليأس والرجاء والسبب فى انتكاسى بعد خطبتى راجع الى مفاجأة المنون صديقا لى حميما كان من أشد وأكبر نصرائى وهو المرحوم لطيف سليم باشا » [٢٦] ، ثم نعاه مصطفى كامل بقوله « أخانا رحمه الله ... فكان

---

(٢٣) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٨٩ .

(٢٤) عبد المنعم الجميعى : الخديو عباس حلمى الثانى والحزب الوطنى ، القاهرة ١٩٨٢ ص ١٣١ .

(٢٥) شوقى الجمل : المرجع السابق خطاب رقم ١١ ص ٩٥ .

(٢٦) المرجع نفسه خطاب رقم ١٠٧ مجموعة جولييت آدم ص ٢٦٥ . وكانت وفاته فى ٢٨ ديسمبر ١٩٠٧ .

أخا رؤوفا وصديقا حميما ، ومواطنا محبا لبلاده حبا لا قدرة لكاتب أن يصفه » [٢٧] .

دور فؤاد لطيف فى الحزب الوطنى :

شهد فؤاد سليم مولد فكرة انشاء حزب سياسى ينتظم العناصر الوطنية فى مصر ، لمناوأة الاحتلال ، وكان ذلك أيام والده لطيف سليم — كما سبق — وشهد فشل الفكرة نتيجة ضعف بعض العناصر التى كانت قد التأمت حولها ، الا أن تمسك مصطفى كامل بمبدئه ، ومواصلة المسيرة وظهور من عاضدوه مالا وفكرا ، وجعله يؤمن باستمرار المسيرة واستمرار فكرة تكوين حزب وطنى يكون مصطفى كامل واجهته والوطنيون من ورائه صفا لا يأتيه الاحتلال من بين يديه ولا من خلفه .

من أجل هذا كان فؤاد لطيف ضمن الجماعة التى وضعت يدها فى يد الخديو عباس حلمى الثانى فى خريف عام ١٩٠٦ متناسية ما كان بينها وبينه بسبب مساعدته للشيخ على يوسف فى قضية زواجه ، فنجد محمد فريد ومصطفى كامل والدكتور صادق رمضان ولطيف سليم وفؤاد لطيف يجمعون فى عزبة الخديو بمسطرد ليلا بشكل سرى ، واتفقوا على تأسيس الحزب الوطنى وصحفه الأجنبية ، لتندار اجبسيان والاجبشيان ستناندرد [٢٨] .

الا أن نشاط فؤاد لطيف لم يظهر فى مجال الحزب الا بعد أن أعلن عنه فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ بعد خطبة مصطفى كامل الشهيرة ، والتى أعلن فيها مبادىء الحزب الوطنى ، ودعا المصريين للاشتراك فيه ، فهو الذى تلا لائحة الحزب مادة مادة ، ورتب المناقشات حولها بين الحاضرين،

---

(٢٧) الرافعى : مصطفى كامل ص ٣٨٤ .

(٢٨) مذكرات محمد فريد ك ١ صص ١ ، ٢ أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ القاهرة ١٩٣٦ ص ١٠٣ .

وتلقى التصديق العام عليها ، وأعلن الموافقة الاجماعية عليها ، وقام الحزب بعدها برئاسة مصطفى كامل ، وشكلت لجنته التنفيذية من مصطفى كامل رئيسا ومحمد فريد وكيلا ، أما فؤاد لطيف فكان سكرتير الحزب وعمر سلطان أمينا للصندوق (٢٩) .

فكان ذا رأى وقلم ، اشترك فى قيادة الحياة الحزبية من داخل بناء الحزب الوطنى ، كما كان أحد محررى صحيفة (اللواء) (٣٠) ، وتناول فى مقالاته حقوق الشعب ، بعكس ما كان يتوقع منه كرجل تربى تربية أرستقراطية (٣١) . كما كان على خلاف مع مصطفى كامل نفسه — فى مجال الصحافة — حول عدم الخوض فى أخطاء عرابى ، وأن يحقق رأى عبد الله النديم فى هذا ، وأن يكون حذرا فى اعتماده على الرأى العام المصرى ، والا يتكل على الجيش المصرى فى أى دور من أدوار نضاله (٣٢) .

كما اشترك فؤاد لطيف فى لجنة تعديل قانون الحزب الوطنى ، عندما اقترح محمد فريد (الرئيس الجديد بعد وفاة مصطفى كامل) فى ديسمبر ١٩٠٨ تنقيح قانون الحزب ، وأعد مشروعا لذلك ، واقترح المؤتمر العام للحزب بعد قبوله هذه المقترحات لجنة لذلك من عشرين عضوا منهم عشرة من أعضاء اللجنة الادارية للحزب ، وعشرة من أعضاء المؤتمر ، وضمت اللجنة الادارية حسن حارس باشا وعلى فهمى بك ، وعبد الحميد عمار بك واسماعيل لبيب بك وأحمد لطفى بك وفؤاد لطيف ومحمود بك رستم ومحمود بك فهمى حسين (٣٣) .

---

(٢٩) جولد شميث (الابن) : الحزب الوطنى المصرى : ترجمه فؤاد دواره ، القاهرة ١٩٨٢ ص ١٣٢ ، الرافعى : مصطفى كامل ، ص ٢٦٦ .

(٣٠) الرافعى : مصطفى كامل ، ص ١٤٦ .

(٣١) اللواء ١٥ أبريل ١٩٠٨ (خطاب مفتوح الى عطوفة ناظر الداخلية)

(32) Holt : Op. Cit., p. 312.

(٣٣) الرافعى : محمد فريد رمز التضحية القاهرة ١٩٥١ ص ٩٢ .

تلك كانت علاقة فؤاد لطيف بالحزب الوطني ودوره فيه ، أما علاقته بمصطفى كامل فقد ظلت راسخة حتى قضى مصطفى ورثاه فؤاد بقصيدة جاء فيها :

أأرثيك أم أرثى الحقيقـــة والجـــدى
وأبكيك أم أبكى الفضيلة والهدى (٣٤)

علاقة فؤاد لطيف بمحمد فريد :

بدأت علاقة فؤاد لطيف بمحمد فريد بشكل طبيعى ، فقد استطاع أن يعبر أحداث استخلاف فريد فى رئاسة الحزب دون تدخل ، ولم تشر المراجع الى مواقف اتخذها قبله ، بل تشير الى أنه كان من المخلصين لفريد ضد السلطة ، وهو أمر شهد به فريد نفسه فى مذكراته ، فبعد أن ألقى خطابه السنوى فى ٢٢ مارس ١٩١٢ استدعته النيابة العامة لاستجوابه وأحس بنية السلطة فى القبض عليه ، طرح الموضوع على أقرب الأقربين فى اللجنة الخصوصية بالحزب الوطنى ، والتى كان فريد قد شكلها للمداولة فى مسائل الحزب الهامة جدا قبل عرضها على اللجنة الادارية للحزب .

وكانت هذه اللجنة تضم : صادق رمضان وفؤاد لطيف الحجازى ومحمود فهمى واسماعيل لبيب واسماعيل حافظ ، فكان أن اقترح عليه فؤاد لطيف أن يغادر البلاد فورا وسرا ، ودبر له أمر اخفائه وسفره ، وأتم له السفر فعلا فى اليوم التالى ، حتى أن زوجته لم تعلم به الا بعد أن أصبح فى عرض البحر .

ولما وصلته رسالة من النيابة العامة فى اليوم التالى ليمثل أمام وكيلها يوم ٢٥ مارس عام ١٩١٢ أعيدت بأنه غير موجود ، وبهذا نجحت الخطة ونجا محمد فريد من القبض عليه (٣٥) .

(٣٤) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية ص ٦٥ .
(٣٥) مذكرات محمد فريد ك ١ ص ١٤ .

ومثالا آخر نسوقه على حسن التعاون والثقة بين محمد فريد وفؤاد لطيف وهو لجوؤه اليه ليمنع تدخل مدام روتشبرون كوسيطة لاصلاح ذات البين بين فريد والخديو فى عام ١٩١٢ ، وأرسل فريد اسماعيل حافظ اليه ليوقف سفرها بعد أن علم بأنها ستبدأ رحلتها الى مصر من أجل هذا الغرض ، وكانت العلاقة فى تلك الفترة سيئة للغاية بين الخديو وبين مجلس ادارة الحزب الوطنى فى القاهرة [٣٦] .

الا أن العلاقة بدأت تتغير الى العكس بعد ذلك ، حيث حلت الكراهية والحذر محل الحب والثقة .

فبدأ فريد يتهمه بالتنكر لمصريته ، وترجيح كفة الدولة العثمانية على كفة بلاده ، وذلك عندما غادر جمال باشا البلاد فى ديسمبر ١٩١٢ الى تركيا واصطحب معه كلا من فؤاد لطيف وأحمد فؤاد والشيخ جاويش ، ووصفهم فريد بأنهم « ممن قادهم شدة حبهم للدولة والاسلام الى نسيان مصر ومصالحها ، فأصبحوا يقولون أن مصر للمسلمين لا للمصريين ، أخذهم معه لترويج هذه الفكرة فى مصر » [٣٧] .

وعزز قوله هذا بسابقة طلب الشيخ جاويش منه عدم ارتداء الدبوس المدون عليه مصر للمصريين بحجة أنه يثير الأتراك [٣٨] .

وهكذا ثار الشجار باحتدام بينهما فى الخارج (فى تركيا) ، فى الوقت الذى كان فيه الحزب الوطنى فى مصر منقسما على نفسه أيضا ، اذ أن اللجنة الادارية للحزب انقسمت الى فريقين (المعتدلين) الذين رأوا أن فى مجاملة القصر وتخفيف التوتر بينه وبين الحزب استمرار لعملهم . حتى ولو ضحوا فى ذلك بزعيمهم نفسه ، وكانت هذه الفئة هى الأكثر ثراء أمثال : عبد الحميد عمار وعبد اللطيف الصوفانى وحافظ

---

(٣٦) المرجع نفسه ص ٦٢ .
(٣٧) المرجع نفسه ك ٤ ص ١٠٦ .
(٣٨) المرجع نفسه والصفحة .

رمضان وعلى علوبة ومحمد أحمد الشريف وعلى المنزلاوى ، و (المتطرفين) الذين ظلوا على موقفهم ومبادئهم منذ مصطفى كامل وكانوا يزورون كل متعاون مع الاحتلال ، وكان من هذه المجموعة : اسماعيل حافظ (شقيق زوجة محمد فريد) وعبد الملك حمزة وعبد الله الرافعى ومصطفى الشوربجى ، أما على فهمى كامل فكان بين بين ، بل كان يميل الى المعتدلين [٣٩] •

وبهذا وجد الخديوى منفذا داخل لجان الحزب ذاتها •

وفى هذا الجو المفعم بالانقسام بين زعامات الحزب الوطنى نشر على المنزلاوى فى صحيفة (الأهالى) طعنا فى ذمة محمد فريد [٤٠] ، مما أصاب لجان الحزب بهزة قوية دفعها الى طلب أطراف النزاع فى غيبة محمد فريد — حيث كان فى سويسرا — الى جلسة حددتها اللجنة الادارية للحزب لبحث الموضوع وردع المعتدين وأخذهم بالشدة على أعمالهم ، الا أن جانب المنزلاوى لم يصدع للأمر ولم يحضر هذه الجلسة فقرر الحاضرون استبعادهم من الحزب واعتبارهم منشقين رسميا عليه ، وشطبت أسماؤهم من قوائمه ، ونشروا هذه الاجراء فى الصحف •

ولما كان محمد فريد قد أرسل استقالته من رئاسة الحزب ، فأرسل اليه المجتمعون فى هذه اللجنة أيضا الدكتور أحمد طاهر لسحب استقالته ووعدته بتأييد كفاحه وخططه ضد الخديو عباس بعد أن أبعدوا أعوانه من الحزب ومن لجانه •

انتهت المعركة بهزيمة الخديوى وفريقه ، الا أن طبيعته أبت عليه

---

(٣٩) جولد شميث : المرجع السابق ص ٢٤٥ •

(٤٠) كان للمنزلاوى موقفه من فريد نتيجة اتهامه له بتحقيق أرباح طائلة من جريدة العلم ، وكان قد تقدم بطلب للجنة الادارية للحزب حول هذا الموضوع ، ولما لم يتخذ بشأنه أى اجراء استقال منها فى اكتوبر ١٩١٢ (جولد شميت المرجع نفسه ص ٢٤٥) •

قبول هــذا الخذلان ، فبعث من سويسرا — حيث كان يقيم — علــى الشمسى ومحمد فهمى الى القاهرة لمقابلة سكرتير الحزب ولجانه لابلاغهم اصراره على الاستقالة للله الرئاسة ، وأن يطلبوا منهم كذلك ترشــيح من يروه لرئاسة الحــزب الوطنى ، الا أن أعضاء الحزب أمام هــذه الصدمه غير المتوقعه فى توقيت حرج جعلوا يتعللون — كسبا للوقت — بأنه يجب على فريد أن يرسل رغبته كتابة ومسببة وليس بهذا الطريق الشفهى ٠

ويبدو أن كلا من على الشمسى ومحمد فهمى قد أحسا بتحرج الموقف ازاء اصرار فريد وتعلل سكرتارية الحزب ، أو أنهم أحسوا فى مباحثاتهم مع أعضاء الحزب فى مصر بفتور العلاقات بينهم وبين زعيمهم البعيد ، فنجدهما بدآ يبحثان فعلا عن زعيم جديد للحزب الوطنى ملحين فى ذلك ٠

الا أن فؤاد لطيف رفض ذلك فرجعا الى مصر فى جولة مشاورات أخرى ، وعادا الى فؤاد مرة أخرى وأخبراه بأن الخديو يلح فى رجائه قبول الرئاسة ، فثارت ثائرته لدرجة أنه انتهرهما قائلا : « اننى لا أقبل رئاسة أى حزب خصوصا بعد أن بلغ من المهانة والسقوط لدرجة تجعله آلة فى يد الخديو وأمثاله من الدساسين » [٤١] ٠

ومن هذا تتضح شخصية فؤاد سليم المستقلة الواضحة ، وتفهمه لموقف الحزب والمزايدين به ، وأنه — أى فؤاد — لم يرد بأسلوب فريد الذى اتهمه به — كما أوردنا — وانما كان رده موجها بالدرجة الأولى للخديو الذى ركب الموجة وانتهز الفرصة ليدس أنفه فى ادارة الحزب والتسلط عليه ، ثم الى العابثين بمقدرات حزب قام أساسا على الوطنية التى رعاها مصطفى كامل ، ولكن فريدا لم ينسى له هذا الموقف ، فقد

---

(٤١) محمد أنيس : صفحات مجهولة من التاريخ المصرى ، القــاهرة ١٩٧٣ ص‌ص ١٨ ، ١٩ ٠

أصبح ندا له يرشـــح لرئاسة الحزب ثم يرفض واصــفا الحزب بهذه الأوصــاف •

ثم جاءت مرحلة انفجر فيها الحذر الذى شاب العلاقة بين محمد فريد وفؤاد الى احساس محمد فريد بأن فؤاد أصبح جاسوسا عليه من قبل السلطان العثمانى بل وعلى كل المصريين فى أوربا الذين لهم يد فى العمل السياسى الوطنى المصرى • بل واعتبر أن الدولة العثمانية قــد اختارته بالذات لهذه المهمة نظرا لأنه كان من العاملين فى الحزب الوطنى الذى أقض مضجع أعداء البلاد وأحرج الدولة العثمانية ذاتها • وأنه كان من القسم الذى أصر على مبادئه الأصيلة فى غير انحياز لقوى الخديو أو الدولة العثمانية فكان ممن سموا (بالمتطرفين) •

وأن الدولة العثمانية — فى نظر فريد — قــد كافأته على هــذا التجسس بتعيينه سفيرا لها فى برن ، حيث تجمع القوى الوطنية المصرية، وللعجب أنه ظن هذه الظنون فى فترة الائتلاف بينه وبين الخديو عباس بعد ابعاد الأخير عن العرش ، ووجوده معه فى أوروبا ، واعترافه بأنه أصبح من « أعوانه » (٤٢) •

بل واعتبر فريد أيضا أن تعيين فؤاد لطيف فى هذا المنصب فى تلك الفترة بالذات شرطا من الصدر الأعظم نصبه ليس فقط ليقع فيه لطيف بل وكان لآخرين أيضا ، فقد وصف الشيخ جاويش بأنه كان ومن تبعوه من طلاب الوظائف « والذين زاد طمعهم فى نوالها بعد تعيين فؤاد بك سليم سفيرا للدولة فى برن بسويسرا ليكون مراقبا ومعاكسا لنا ولأعمالنا فى هذه البلاد الحرة (٤٣) •

يأتى تصوير فريد لفؤاد لطيف بهذا الشكل ، وكأن الخلاف بينهما

---

(٤٢) مذكرات محمد فريد ك ٧ ص ١٨٠ •

(٤٣) نفس المصدر •

كان كبيرا لدرجة « المعاكسة » والمضايقة والتجسس ، فى حين أنه فى حديث لأحد المسئولين متضررا من المراقبة التى فرضت عليه من الدولة تارة بشكل رسمى وتارة أخرى من (المتطوعين للتجسس) ، ويفهمه هذا المسئول أبسط من هذا وأن من يظنهم جواسيسا عليه لا يقصدونه « الا لأنهم يجدون لديه قبولا حسنا » .

أما ما نسبه الى فؤاد لطيف من التجسس عليه لمصلحة الدولة فهو أمر لا يعدو أن يكون أحد واجباته كسفير للدولة ، عليه أن يخبرها بمن لهم موقف منها ، وأنه لم يقدم « فعلا » عنه سوى تقريرا واحدا ملخصه (انى حضرت الى جنيف فى ديسمبر وعقدت مؤتمر الطلبة وتحصلت منهم على القرار القائل بأنى الممثل الوحيد لمصر)[٤٤] .

ورغم هذا الحديث الذى كان المفروض أن يشيع فى نفسه الاطمئنان لفؤاد لطيف الا أنه بعد قليل يعود الى تأكيد هذا التجسس ويصف جنيف بأنها مفعمة بالجواسيس أتراك ومصريين تحت زعامة الدكتور بهجت وهو أخ عماد الدين بك وكيل الصدر الأعظم وعبد الملك حمزة ، « وابتدأ هذا واخوانه فى مقاطعتى علنا ، وكذلك قنصل تركيا لأنه قابلنى فى اليوم التالى لمجيىء بالبنك فسلم على من بعيد برفع البرنيطة وهذا على الأقل بأمر فؤاد ، وأصبحت دار هذا القنصل مجتمع عبد الملك حمزة واخوانه المنشقين علينا لتدبير طرق التجسس علينا »[٤٥] .

وتظهر من ذلك أن علاقته السيئة بفؤاد هى التى نسجت له هذا الوهم الذى يظهر فى تعبيره (وهذا على الأقل بأمر فؤاد) .

وقد بلغ الأمر بفريد أنه أصبح يطعن فى فؤاد لطيف علنا وبشكل رسمى فيذكر هو نفسه فى مذكراته أنه فى حديث رسمى مع الدكتور رجب

---

(٤٤) مذكرات محمد فريد ك ٧ ص ١٩٥ .

(٤٥) نفس المصدر ص ١٩٩ .

تركى المغربى والذى كان يعمل موظفا فى نفس السفارة فى برن — محل عمل فؤاد — ردا على سؤاله المباشر عن مدى العلاقة بينهما فأجاب بقوله « لا أنا كنت صديق لشخص اسمه فؤاد سليم بك ، مصرى •• أن هذا الشاب توفى فى مصر من نحو خمس سنوات ودفن بها ، أما فؤاد سفير الدولة فلا أعرفه ولا أريد أن يكون لى معه علاقة » ولما تعجب السائل من قوله هذا عاد وسـأله ، كيف ذلك وأنتما أصـدقاء ، انى احترمك واحترم فؤاد ولا أرضى بمثل هذا التقاطع جـ — لا تقاطع ولا شىء ، فؤاد صاحبنا مات ثم بعث بشكل جديد فأنكرناه وهذا يحصل كثيرا فى السياسة [٤٦] •

ففى تحديده لفترة الخمس سنوات يشير الى سنة ١٩١٢ ، حيث كان حديثه هذا فى عام ١٩١٧ ، وأن عام ١٩١٢ هو العام الذى كانت العلاقة بينهما فيه طيبة وكان ظهيرا له ضـد السـلطة فى مصر أيام محاكماته ، ودبر له أمر الفرار من وجهها ، ثم بدأت مرحلة الكراهية لسفر كل منهما الى أوربا ، وبداية علاقة فؤاد بالدولة العثمانية ، وهى أيضا بداية الوساوس والظنون التى سيطرت على فريد •

استمر الخلاف محتدما بينهما الى نهاية حياة فريد ، والملاحظ أن فريد هو الذى كان يتابعه بالنقد فى كلامه وتصريحاته وتصرفاته ، من هذا نقده لتصريح له كسفير للدولة العلية لصحيفة برلنيرتا جبلاط حول وضع قناة السويس تحت رقابة دولية اذا ما وافقت انجلترا على ذلك وفسر فريد (بأنه جعل قناة السويس فى صف جبل طارق أى أنه اعتبر قنال السويس الذى يمر فى أرض مصر كأنه قطعة من أملاك انجلترا)[٤٧] •

وقـد بلغ من تأثر فريد وانفعاله أن ذهب لمقابلة فؤاد لطيف فى السـفارة فى برن ، الا أنه لم يجـده وترك احتجاجه لدى أدهم بك

---

(٤٦) نفس المصدر ص ٢٠١ •
(٤٧) مذكرات فريد ك ٩ ص ٢٤٤ •

مستشار السفارة آنئذ بعد أن أطلعه على الصحيفة ، فعلل الموقف بأنه خطأ التبس على المحرر •

ووصل الأمر بفريد الى مقابلة وزير الخارجية التركى ، وعرض عليه الأمر وأطلعه على الصحيفة ، وهنا أجاب الوزير باستنكار متسائلا عن علاقته بفؤاد لطيف فأعترف فريد أنه من رجال الحزب الوطنى وأنه ينتقده لهذا السبب ، وأن مثل هذا التصريح لا يؤثر على مجرى الأحداث [٤٨] •

وهكذا تظهر متابعة فريد له وليس العكس ، ثم أن مواقف فؤاد كانت تشكل كيدا وقلقا لفريد ، فهو بعد سنوات من اعتباره غير موجود يعود فيعترف به عضوا فى الحزب وأن انتقاده له كان على هذا الأساس•

ثم يظهر أخيرا سبب آخر (نفسى) ففريد ظل يعتبر نفسه زعيما له ثقله عند الجميع مهما كانت مراكزهم ، وتصور أن كل تجمع ينادى باســـم مصر لابد أن يخرج من داخل عباءته ، ونسى أن المجتمع فى الخارج يختلف عنه فى مصر ، بل أن فى مصر نفسها تغير المجتمع خلال فترة غربته فى أوربا التى امتدت سنين عددا ، فعلى ســبيل المثال ، حاول أتباع فريد وهم : محمد فهمى وعلى الشمسى واسماعيل لبيب الذين تواجدوا فى سويسرا ١٩١١ وسعوا فى تشكيل لجنة سرية فرعية للحزب الوطنى من الشباب المصرى هناك ، تحت رعاية فريد فرفض الشباب ذلك قائلين بأنهم «لا يريدون أن يكونوا تابعين لأحد ، بل يبغون البقاء مستقلين ليمكنهم المناداة بأستقلال مصر استقلالا تاما ، وفى احدى هذه الاجتماعات ورد اسم فؤاد سليم فشددت النكير عليه لعدم زيارته لى فى برلين وتكبره وعجرفته وقلت بشدة وحدة ، ان كان يرى نفسه فأنا أرى نفسى أكبر منه ، وانى لا أخدمه ولا أزد رده فى برن رغما من مركزه الرسمى ما لم يقم نحوى بالاحترام اللائق » [٤٩] •

---

(٤٨) نفس المصدر ص ٢٤٦ •

(٤٩) المصدر نفسه ك ١١ ص ٣١٣ •

ومما يؤيد قولنا هذا هو تردد الحاضرين فى تلك الجلسة فى قبول حديثه ، واختلفوا معه فى هذا الرأى رغم اخلاصهم له ، أما هو فقد وصل به الأمر الى وصف فؤاد والشيخ جاويش بأنهما (كانوا عصبة برئاسة الشيخ جاويش وفؤاد سليم يسعون ضد شخصى لقتل اسـمى ونفوذى بكل وسيلة) (٥٠) .

وانتهى فريد فى آخر حياته الى استعداء عناصر أخرى على فؤاد لطيف : هو الخديو عباس حلمى الثانى نفسه ، عندما كانت الحـرب مستمرة بينه وبين البرنس حليم عام ١٩١٩ ، فنجده يذكر أنهما ـ أى فؤاد وجاويش ـ يكونان جماعة تسعى لتوصيل حليم الى عرش مصر ، وهـذا ضـد رأيه لأنه كـان فى ذلك الوقت فى مرحلة الدفـاع مـع الخديوى (٥١) :

فؤاد لطيف والخديو عباس حلمى الثانى :

بدأت علاقة فؤاد لطيف بالخديوى عباس حلمى الثانى بنفس درجة علاقة مصطفى كامل به ا نظرا لتزامنهما وتلازمهما ، بالاضافة الى العلاقة التى كانت بين أبيه وبينه ، كرجل بارز فى الساحة السياسية المصرية فىذلك الوقت ، الا أن رأيه فيه لم يكن الا من خلال رأىأبيه ـ لطيف ـ فيه ، وهذا ما ظهر بعد وفاة أبيه .

فقد بدأت نظراته الحذرة منه ، وعدم ثقته فيه ، بعد وفاة أبيه تأسيسا على رأى أبيه فيه ، وهذا الخط هو الذى حكم العلاقات بينهما فيما بعد ، وكان فى نظره (رجل أنانى يفضل منفعته الشخصية على الصالح العام) (٥٢) .

---

(٥٠) المصدر نفسه ك ١٠ ص ٢٩٢ .
(٥١) المصدر نفسه ك ١١ ص ٣١٣ .
(٥٢) المصدر نفسه ك ١ ص ٢٠ .

وكم كان يحضر مع أبيه اجتماعاته ويسمع ضمن الأحاديث ما كان يقوله الخديوى فى مناوراته مع كل الأطراف « هذه كلها قناطر مررنا عليها فوجدناها غير موصلة للطريق » [٥٣] وكان ذلك أثناء اجتماعهم السرى فى عزبة مسطرد عند تأسيس الحزب الوطنى ، ولم يتنازل فؤاد عن فكرته هذه عن الخديو لأنه كان يرى كل فترة دليلا جديدا على ألاعيبه وعدم صدق نواياه ، منها ادخاله الاخلاصى للحزب الوطنى فى روع محمد فريد عندما ضعف موقفه فى آخر أيام حكمه ثم خلعه من العرش واعلانه أنه أصبح — آنئذ فقط — معضدا للحزب الوطنى [٥٤] ، واصداره منشورا بعنوان « أبناء مصر والسودان الأعزاء » يعلن فيه منح المصريين الدستور والغاء القوانين المنافية للحرية واعادة الضمانات لاستقلال القضاء [٥٥] ، فكان فؤاد يرفض الاشتراك معه فى هذه الأمور أولا : لعدم ثقته فيه ثانيا : لأنه لا يريد أن يدخل فى قضية خاسرة مع الدولة العثمانية وقد أصبح أحد موظفيها .

كان عام ١٩١٤ عام النهاية بالنسبة لحكم عباس لمصر ، فمنذ صيف هذا العام بدأت رياح التغيير تهب على العرش ، عندما سافر الى تركيا وأثناء وجوده اندلعت الحرب العالمية الأولى وانتهزت انجلترا الفرصة وحالت دون رجوعه الى مصر ، فجعل يبحث عن سند له فى موقفه فلم يجد سوى محمد فريد ، فبثه شكواه تأسيسا على ادعائه حسن النية من قبل [٥٦] .

وأصبح هو وفريد وبعض أعضاء الحزب الوطنى فى الآستانة فى ناحية يقابلهم سعيد حليم باشا (الصدر الأعظم) فى ناحية أخرى ، وكان سعيد حليم يجمع حوله بعض المصريين المخلصين للدولة العثمانية

---

(٥٣) المصدر نفسه ك ١ ص ٢ .

(٥٤) رسائل تاريخية ص ٦٦ .

(٥٥) مذكرات محمد فريد ك ١ ص ٩٧ .

(٥٦) رسائل تاريخية ص ٦٨ .

فى ذلك الوقت منهم : الشيخ جاويش وفؤاد لطيف ، من أجل أن يكون حزبا بأسم (مصر العثمانية) ، هدفه استعادة وضع مصر فى صف الولايات العثمانية الأخرى ، ولعل فؤاد لطيف قد وجد فى هذا الوضع منفذا لها (أى مصر) للخروج من تحت جناح انجلترا التى سادتها ، وكانت على وشك اعلان الحماية عليها لأن هذا حدث فى نوفمبر ١٩١٤ .

فى حين أن عباس جعل يلوم محمد فريد على تقاعسه عن محاولة جذب هؤلاء المصريين الى صفه وليس الى صف الصدر الأعظم [٥٧] .

وبهذا كان فؤاد لطيف أبعد نظرا من مجموعة الخديو ، فهو يحاول العبور بمصر أولا من متاهة الأحتلال البريطانى الى شرعية ولاية الدولة العثمانية عليها ، ثم يصبح الأمر بعد ذلك سهلا فى الخروج بها من تبعية الدولـة العثمانية وهو ما كان يخططه الحـزب الوطنى والمعتدلون من الأحزاب من قبل ، بينما كان عباس يسعى الى العرش ولو تحت ظلال الاحتلال .

ومصداقا لهذا فان الدولة العثمانية فى سبيل استعادة مصر الى حظيرتها خططت لعمل عسكرى من شأنه اثبات وجودها أمام قوى الاحتلال البريطانى فى مصر ، خاصة وأنها كانت خليفة لألمانيا ، وكان هذا العمل العسكرى فى شكل حملة عثمانية على شمال شرق مصر لزعزعة البريطانيين فى منطقة القناة الاستراتيجية وتهديد طريقها الى الهند ، وأسند الأشراف على هذه الحملة الى جماعة حزب مصر دون الرجوع الى الخديو ، بل أشركوا فؤاد سليم فى قيادتها أيضا وهو سعى منه لهذا ، احساسا منه بالانتماء وحب مصر ، فى الوقت الذى فتح عباس أبواب دعايته ضدهم لما علم بهذه الحملة ، خصوصا وأنه كان ضمن لجنة الاشراف على هذه الحملة الدكتور أحمد فؤاد المشتبه فى اشتراكه مع مظهر أفندى الذى

---

(٥٧) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ص ٣٦٦ .

اتهم بالاعتداء على الخديو فى الآستانة من قبل ، ووصفهم بالعمل ضد مصر وضد انجلترا فى آن واحد ، فكان رد فؤاد الحجازى موضوعيا عندما استصدر بيانا من الباب العالى يوضح فيه نية العثمانيين من وراء هذه الحملة جاء فيه « ... اننا لعدم ثقتنا تمام الثقة بعهود رجال الدولة الذين ربما كانت لهم أغراض خفية لا تظهر الا بعد احتلالهم البلاد ، فان أفندينا عزم على ارسال من يعتمد عليه للسفر الى ألمانيا والنمسا وايطاليا للتحقق من تنفيذ وعود سفير ألمانيا لسموه بأن تبقى مصر مستقلة فى ادارتها بدون تدخل الدولة ، كما كانت وليس كالدائر على الألسنة أنه بمجرد دخول الجيش العثمانى تعلن الأحكام العرفية .. » [٥٨] .

ويقصد البيان برجال الدولة الذين لهم أغراض خفية هو الخديو الذى بدأ فى تلك الفترة يفكر فى الارتماء فى أحضان الاحتلال حتى يحتفظ بعرشه ، لدرجة أنه عشية اعلان الحرب الأولى وبسط الحماية البريطانية على مصر ، كان عباس فى حالة عداء شديد للعثمانيين ، وينظر نظرة سوداء الى مستقبل مصر تحت ادارة الترك « وتكلم عن عدم كفاءتهم للحكم » وأبدى تخوفه الشديد من أعمالهم فى مصر ، ليس فقط فى التخريب المادى بل والفكرى أيضا ، وكان دائماً يقول : « ان الأتراك بمجرد دخولهم ينشئون فى طول البلاد وعرضها جمعيات للاتحاد والترقى ، فيقسمون الشعب أقساما غير مفيدة للبلد ، وكذلك يستعمل القائد جمال باشا سلطته ويمتص دم المصريين ، ويجلس أحد المصريين المعادين لنا على بابه كتشريفاتى ليدخل العمد والأعيان فيأتون بالمال والعقار » ، ثم أشار فى صراحة الى أن فؤاد لطيف سيدخل مصر على رأس حزبه الذى تكون فى تركيا ليكون هو الادارة التى أشار اليها بالتشريفاتى [٥٩] الذى سيجلس على الباب ، فبهذا بدأ عباس بالاهانة والعدوان لرجل قريب من قلب الباب العالى وكان يمكن أن يستغله .

---

(٥٨) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ص ٣٩٨ .
(٥٩) أحمد شفيق : المرجع نفسه ٤١٣ .

ولكن فؤاد لطيف لم يفقد صوابه ، ولم يتصرف بذات الأسلوب ، ولذلك سنجد الخديو سيعود اليه بعد افاقته فيجد فيه رحابه الصدر والوفاء له وللمصريين .

ففى ديسمبر ١٩١٤ خلع عباس وفى أعقاب ذلك أرسلت الدولة العثمانية الحملة ، وكان ضمن قيادتها فؤاد بك سليم ، وكان برتبة أميرالاى أحد أركان حربها ، ولكنها فشلت ولم تحقق أهدافها ، ولكن لتمسك الدولة به أصدر الصدر الأعظم قرارا بتعيينه سفيرا للدولة العثمانية فى سويسرا ، كما أسلفنا [٦٠] .

ويهمنا هنا أسلوب تعامله مع الخديو والمصريين يبين منه كيف كان يحافظ على سمعة مصر والمصريين ، وأنه كان يعمل كمصرى قبل كل شىء وليس تحرك مصرى ظاهرى كما كان يعمل الخديو من أجل منفعته الذاتية .

فقد صدر قرار من الدولة العلية فى ٢٤ يناير سنة ١٩١٦ بعودة جميع المصريين المقيمين فى أوربا الى الآستانة والا توقفت الدولة عن دفع مرتباتهم ، وكان الغرض من هذا القرار هو فك التكتل الذى حاول عباس عمله حوله ضد الدولة العلية ، وفعلا بدأت السفارات التركية فى أوربا فى تنفيذ القرار بكثير من العنت والقسوة خاصة مع من ثبتت علاقتهم بالخديو عباس ، فتدخل أحمد شفيق لدى فؤاد لطيف فى برن واستجاب فؤاد لرجائه ورجاء الخديو الذى كان يحمله له شفيق — رغم سوء العلاقات — وسهل أمر ترحيلهم وعدم الغرض لهم ، ولم يقم لسوء العلاقات وزنا عندما أحس أن المغرضين لسوء المعاملة مصريين من بنى جلدته [٦١] .

---

(٦٠) عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية ص ٦٦ .

(٦١) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ص ٣ ص ٩٠ .

اسدائه النصح للخديوى فى مسألة تنازله عن العرش :

حاول الخديو كثيرا فى سبيل عودته للعرش ولكنه فشل ، وكانت انجلترا تجهز على موقفه سيما وأنها كانت فى ظروف سياسية حرجة ، فبدأت تقدم اليه عروضا مالية وتسهيلات مقابل تركه العرش ، واكملت الحلقة من حوله بتوسط سفراء بعض الدول المتعاونة معها فتحرج موقف الخديو ، وهنا أشار عليه أحمد شفيق باللجوء الى فؤاد لطيف لأنه ثبت اخلاصه أكثر منهم جميعا ، ولذلك تلقف الخديو عباس الخيط وأرسل شفيقا فورا اليه طالبا مقابلته فى برن ، ولحق به عندما سمح له بذلك ، فوجد أن فؤادا قد عقد لقاءات واجتماعات مع السفراء فى برن ، أولئك الذين يتعاطفون مع القضية المصرية ، وأثارهم ضد موقف الانجليز ، انتهوا فيها الى نصح الخديوى بعدم الامتثال للانجليز حيث صرح « ان السفير يقول لى تلميحا أن أترك المساعى التى أبذلها لدى الانجليز لضمانة أملاكى ، والحصول على مرتبات سنوية ، ولعله — أى فؤاد — هو وسفير ألمانيا وسفير النمسا عالمون بهذه المساعى ، ويخافون أن تتوج بالنجاح وأن أتنازل للانجليز عن الأريكة فيقوى مركزهم ويضعف مركز الدولة العلية ولهذا يعدوننى بالتعويضات والمخصصات » [٦٢] .

وعندما أسدى فؤاد له النصح كان صريحا وواضحا ، فيروى أحمد شفيق هذه النصيحة بنصها عندما ينقل قول فؤاد سليم : « ان الانجليز يودون أن يرغموه على النزول عن العرش ويمنونه فى مقابل ذلك بألا يمسوا أملاكه وأن يرتبوا له مخصصات سنوية ، ولكن هذا شىء طفيف بالنسبة لعرش مصر ، ثم أن سموه لا يليق به أن يمد يده الى أعدائه ويتناول منهم مرتبا .. » « أن ما يطلبه السفير (يقصد السفير الانجلزى) هو سلاحك والانجليز الذين يخشونك به يريدون نزعه منك ، فلو تنازلت عنه أغفلوا شأنك » [٦٣] .

---

(٦٢) أحمد شفيق : المرجع السابق ص ١٠١ .
(٦٣) أحمد شفيق : المرجع نفسه ص ١٠٣ .

وكان فؤاد فى كل هذا مخلصا فى القول متأكدا من التصرف حيث أعلن موقفه فى قوله « وأنا أيضا مبدئى أن أرى الدولة العلية قوية وأن تكون مصر مستقلة فى داخليتها » [٦٤] ومن هنا تغيرت العلاقات بينهما الى الأحسن .

ولكم كان عظيما فى موقفه تجاه الخديو الذى كان يعتبره جاسوسا عليه ونصب لمضايقته فى أوربا هو ومحمد فريد ، لدرجة أنهما أحسا بعقدة الذنب قبالته بعد ذلك .

فقد أسس الخديوى فى عام ١٩١٦ جمعية لمواساة المسلمين المحاربين فى جيوش الأعداء ، واعترف محمد فريد أنه لم يكن خالص النية فى تأسيسها ، وانما كان مقصده هن تمكين بعض عملائه من التحرك فرنسا وانجلترا لمفاوضة الأطراف فى قضية للوصول الى حل يرضيه ، وتنبهت السلطات لهذا ، فوضعت الجمعية تحت المراقبة الدقيقة حيث ظهر « أن القصد منها بعض المقاصد السياسية أو الوطنية أو بعض الدول المتحاربة » .

وحدث أن قامت الشرطة فى لوزان بضبط مقرها ومصادرة ما كان فيه من أوراق ، والقبض على محمد باشا يكن الذى كان مسئولا عن هذا الفرع وذلك فى ٢٣ أكتوبر عام ١٩١٦ [٦٥] .

وازاء هذا ساد الفزع جميع المصريين والأتراك هناك ، بعد أن توالت البلاغات ضدهم من بعض المسلمين المعارضين ، حتى تحددت اقامة الكثير منهم [٦٦] ، وكان يمكن لفؤاد لطيف أن يتشفى فيهم ، أو على الأقل يأخذ موقفا سلبيا منهم ، بل كان على العكس ويشهد بذلك محمد فريد وأحمد شفيق حتى الخديوى عباس نفسه ، فعندما علم فؤاد بما حدث احتج

---

(٦٤) أحمد شفيق : المرجع نفسه ص ١٠٣ .

(٦٥) مذكرات محمد فريد ك ٨ ص ٢١٦ .

(٦٦) أحمد شفيق : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٢٣ .

رسميا على الحكومة ضد ما اتخذته من اجراءات لأنها اعتبرت اجراءات ضد شخص الخديو ، وقد اندهش محمد فريد من هذا التصرف وقال : « ولكنى لم أصدق هذا الخبر لأن مأمورية فؤاد سليم مضايقة الخديو لا مساعدته على الخلاص من مثل هذه الورطة ، وأنه يريد بهذا الخبر التعمية » (٦٧) ، وفى عبارته الأخيرة يقف موقف المتشكك من فؤاد الا أنه يعود فيعرض نتائج جهود سليم « بلغنا أن يكن باشا أخرج كذلك من السجن ، وأن الحكومة السـويسرية اعترفت بأن شخص الخديو ورجاله وسـكنه محترمين طبقا للقانون الدولى العام وذلك بناء عـلى واحتجاج سفير الدولة العلية فؤاد سليم (٦٨) .

ويروى أحمد شفيق تفاصيل الموقف واجراءات القبض على محمد باشا يكن يوم ٢٣ أكتوبر ١٩١٦ وضبط ما وجد لديه من أوراق تدل على أن يكن باشا استخدم وسائل شتى للحصول على معلومات لصالح مصر والخديو ، وأن هـذه الأعمال والاجراءات تعدت الحدود السـويسرية وخالفت القانون المطبق هناك . كما ثبت أنه أوفـد الى فرنسـا بعض السويسريين للحصول على أخبار منها وتوصيلها الى الألمان وقد تم ضبط اثنين منهم .

وقد تفرغ التحقيق الى أمور مسـت أخلاقيات الخديو اذ تبين أنه كان على علاقة غير شريفة بامرأة ساقطة فى سويسرا ، وكان يغدق عليها الهدايا ، ويذكر أحمد شفيق أنه برغم ما نال الخديو فى سمعته وتصرفاته ، وكان على فؤاد لطيف صاحب المركز الحساس كسفير لم يتخل عنه أو عن أتباعه ، فكان على اتصال مستمر بسلطات التحقيق ، ليس من أجل أن يوافى ادارته بتقارير ، وانما من أجل التوسط تارة والاحتجاج تارة أخرى بل وكان يتابع المحامين فى القضية ويسهل لهم الحصـول على

---

(٦٧) المرجع نفسه والصفحة .

(٦٨) المرجع نفسه والصفحة .

الأوراق اللازمة للدفاع عن المتهمين ، ووصل به الأمر الى أن استصدر أمرا من السلطات بالافراج عن معظم الأوراق التى تم ضبطها •

وللعجب أنه بعد أن قام بهذا الجهد ذهب الظن السىء المسـيطر على الخديو عباس أن فؤادا سيضع الأوراق تحت يده ليهدده بها فى الوقت الذى كانت فى طريقها اليه ، فوجه الحاضرون ومنهم أحمد شفيق اليه لوما شديدا [69] •

وهـذا موقف آخر يدل على خلق الرجل واخلاصـه لمصر ، ففى ديسمبر عام ١٩١٦ عاد الخديو ليسعى لدى الانجليز للأخذ بيده فى مسألة مطالبته بالعرش وتسوية موقفه المالى فى مصر ، وأنه فى ذلك وسط معتمد البلجيك فى فيينا ، فالقموه حلا وهميا هو أن يخصص له مبلغ ٢٥ ألف جنيه سنويا ، ويرفع الحجز على أملاكه فى مصر ، وضمان أملاكه فى تركيا مقابل تنازله نهائيا عن العرش [70] •

ويبدو من العرض بعد ذلك أن الخديو قارب الموافقة ولكنه عاد الى فكر سليم هداه الى الرجوع الى فؤاد لطيف ، ولعل فى هذا تقييم لنوع العلاقات بينهما ، ومدى ثقته فيه وأن هذه الثقة تولدت من واقع عاشه معه وليس من فراغ واستوضح منه أيضا رأى الدولة العلية ، وهل تضمن له ذلك ؟! •

فأحسن له النصح ووجهه كيف يتعامل مع الانجليز ، ولام على بقية الموجودين فى أوربا من اعفاء الحزب الوطنى تصرفاتهم غير الوطنية والتى تسبب فى توسيع الخلاف بين مصر وتركيا •

---

(٦٩) أحمد شفيق : المرجع السابق صص ١٢٥ — ١٣١ •

(٧٠) أحمد شفيق : المرجع السابق صص ١٣٨ — ١٤٠ •

خـــاتمة

نشأ فؤاد لطيف فى بيئة وطنية فخدم مصر بنية صادقة رغم كل الضغوط الخارجية والداخلية المتمثلة فى انجلترا واستصدارها حكما عليه بالاعدام والمصادرة لأملاكه ، ثم ضغط فريد والخديو الا أن مقومات شـــخصيته وتكوينه كانتا ســـببا فى تخطيه كل هذه العقبات : كعلمه وكسياسته فى التعامل مع المسئولين فى الدولة العلية والدول الأجنبية •

أثبت قوميته وحبه لمصر بعيدا عن الأضواء ، فحافظ على ســـمعة مصر من خلال محافظته على سمعته هو ، التى جعلته محل تقدير لدى الدولة والدول الأجنبية التى تعامل معها ، واستغل هذا فى حفاظه على سمعة المصريين فى الخارج عندما قدم لهم خدمات فى أحرج الظروف رغم حساسية مركزه كســـفير ، ولم يجعل لمقولات فريد أو الخـــديو ضده وزنا ، بل أثبت لهم أنه أكبر من هذه المقولات ، حتى عادوا واعترفوا به سندا لهم فى غربتهم ومشكلاتهم •

مما جعله محل تقدير حتى لدى عودته الى مصر ليعين فى السلك الدبلوماسى المصرى ، فهو بحق صفحة مجهولة فى تاريخ الحركة القومية فى مصر •

مصـــادر الدراســـة

(أ) مذكرات :

مذكرات محمد فريد

أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ــ القاهرة ١٩٢٤ •

(ب) مراجع باللغة العربية :

أحمد رشاد : مصطفى كامل ــ القاهرة ١٩

جولد شميث الابن : الحزب الوطنى المصرى ، ترجمة فؤاد دوارة القاهرة ١٩٨٢ •

شـــوقى الجمل (دكتور) : أوراق مصطفى كامل ، المراســـلات القاهرة ١٩٨٢ •

عبد المنعم الجميعى (دكتور) : الخديو عباس حلمى الثانى والحزب الوطنى — القاهرة ١٩٨٢ •

عبد العزيز حافظ دنيا : رسائل تاريخية — القاهرة ١٩٦٩ •

عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل باعث الوطنية — القاهرة ١٩٦٢
محمد فريد رمز الوطنية — القاهرة ١٩٤٨ •

عصر اسماعيل جـ ٢ — القاهرة ١٩٤٨ •

عصر محمد على — القاهرة ١٩٥١ •

محمد أنيس (دكتور) : صفحات مجهولة من التاريخ المصرى — القاهرة ١٩٧٣ •

يونان لبيب رزق (دكتور) : تاريخ الوزارات المصرية — القاهرة ١٩٧٥ •

(جـ) مراجع باللغة الانجليزية :

Holt, P.M. : Political and s ocial change in Modern Egypt, London, 1968.

(د) الدوريـــات :

المؤيـــد

اللـــواء

قضـــية الاستقلال
بين حزبى الشـــعب والوطنى
فى البرلمان المصرى
١٩٣١ — ١٩٣٤

د. عاصم محروس عبد المطلب
مدرس التاريخ الحديث المعاصر
بكلية التربية — دمنهور
جامعـــة الاسكندرية

أسفرت انتخابات مجلس النواب ، التى أجرتهـــا حكومة اسماعيل صـــدقى عام ١٩٣١ عن فوز حزب الشعب بـــ ٨٤ مقعـــدا ، وحـــزب الاتحاد بـــ ٤٠ مقعـــدا ، والحزب الوطنى بـــ ٨ والمستقلين بـــ ١٤ .. ولم يدخل هذه الانتخابات حزبا الوفد والأحرار الدستوريون [١] .

وكانت هذه الهيئـــة التشريعية مكونة من عدد كبير من كبار الملاك، فقد بلغ عددهم بمجلس النواب ٥٨ عضوا ، بنسبة ٣٨٫٢٪ كما بلغت النسبة بمجلس الشيوخ حوالى ٥١٪ [٢] .

ولطبيعة تـــكوين حزب الشعب بعد ممارسة الحيـــاة النيابيـــة ، وتشكيل الأحزاب بأكثر من ستة سنوات .. كان من الطبيعى أن ينضم الى هـــذا الحزب ، كبار المـــلاك من الأحزاب الأخـــرى ، سعيا وراء مصالحهم لاسيما من حزب الأحرار الدستوريين .. ولقد حدث فعـــلا انشقاق داخل هـــذا الحزب بعد انضمامه الى الوفد ، كجبهة معارضة

---

(١) على الدين هلال : السياســـة والحكم فى مصر قبـــل ١٩٥٢ ، ص ١٣١ .

(٢) عاصم الدسوقى : كبار ملاك الأراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى ١٩١٤ — ١٩٥٢ ، ص ٤٠ .

لحكومة صــدقى •• فمعظم أغنيــاء الحزب قد انضموا الى صــدقى باشــا [٣] •

فلقد انضم لحزب صــدقى من الأحرار ، سلطان محمد السعدى، وهيب دوس ، توفيق دوس ، ابراهيم عبد العال المليجى ، سيف النصر موسى ، عبد المنعم رسلان ، على المنزلاوى ، عيسوى زايــد ، محمــد أبو الفتوح كما انضم لشيوخ الحزب على فهمى ، حسن على أبوجازية حبيــب دوس وجميعهم من نواب الأحــرار فى مارس ١٩٢٥ •• أما عبد العزيز سيف النصر ، فقد انتقل من حزب الاتحاد الى الأحرار عام ١٩٢٦ م الى الوفد عام ١٩٣٠ ، الى نواب حزب الشعب عام ١٩٣١ [٤]• كما انضم لنواب صــدقى من كان من نواب الوفد عام ١٩٢٥ مثل أحمد رمزى ، عبد الرازق وهبة القاضى ، مصطفى المنياوى •• وكــذلك من شيوخ الوفد لنفس العام محمد راغب [٥] •

واذا كنا سنتعرض لبعض القضــايا الهــامة ، التى نوقشت فى البرلمان المصرى ، بين أعضــاء حزب الشعب والمعارضة ، أى الحزب الوطنى فمن الواضح من تتبع مناقشات البرلمان المصرى فى تلك الفترة، أن موقف حزب الشعب ، هو تعبير عن الموقف الحكومى والدفاع عنه، وان تميز بعدم الانضباط الى حد ما ، بعد استقالة صدقى باشا ، وتحيز بعض الأعضاء تجاه صدقى وضد الحكومة •• أما الحزب الوطنى الذى كان اشتراكه فى هذه الانتخابات ، تعبيرا عن الاعتراف بنظام صــدقى وتعديلاته الدستورية •• وان أنــكر ذلك فان موقفــه يتميز بصــفة عامة ، بعدم الوضوح الى حد ما ، فتشهد قاعة المجلس عدم الوضوح والتنــاقض بين أعضــائه ، ازاء حكومة صــدقى كما أنه فى القضايا

---

(3) Zayyid, M. Y. : Egypt's struggle for independence, p. 139.

(٤) عاصم الدسوقى : المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٥) المرجع نفسه والصفحة .

السياسية كقضية الاستقلال الوطنى .. احتفظ الحزب الوطنى ، بمعارضة مبدأ التفاوض ، دون أن يقدم البديل ، ولم يدرك أن طبيعة النظام الذى سانده ، كانت هى العقبة فى اتمام المفاوضات ، وهى السبيل الوحيد أمام نظام صدقى وقتذاك ، فى الوصول الى حل للقضية المصرية ... وسنحاول فى دراستنا لقضية الاستقلال أن نوضح ذلك .

أولا ـ قضية الاستقلال :

من أولى القضايا السياسية ، التى فشل نظام صدقى فى أن يتقدم بها خطوة واحدة ، هى قضية الاستقلال ، أو محاولة الوصول الى اتفاق سليم مع بريطانيا .

ومن الطبيعى أن تثار هذه القضية ، ويدور حولها النقاش ، فى خطب العرش المتعددة .. ولقد عجزت حكومة صدقى ، أن تخطو بهذه القضية خطوة واحدة ولو لفظيا ، فتكاد العبارات التى ذكرتها فى هذا الصدد ، واحدة فى معانيها ، وهو ما تتأولته المعارضة كمأخذ على الحكومة ، ففى أول خطاب للعرش للحكومة فى ٢٠ يونيو سنة ١٩٣١ وهو اليوم الأول لافتتاح البرلمان .. كان تناول هذه القضية .. فجاء فى هذا الخطاب « وانى لمغتبط بأن علاقتنا بالدول الأجنبية، وبالأخص ببريطانيا العظمى ، على خير حال من المودة والصفاء ، وستجعل حكومتى نصب عينيها ، أنه خير ما تؤكده به علاقاتنا ببريطانيا العظمى ، وتزداد به المودة بين الأمتين الانجليزية والمصرية ، اتفاق شريف بين البلدين ، يصون حقوق البلاد ، وتستكمل به أسباب استقلالها ، ويؤمن الحكومة الانجليزية على استمرار ما بيننا من الصداقة والثقة المتبادلة » .

ونص خطاب العرش فى ١٧ ديسمبر ١٩٣١ :

« يسرنى أن أنوه بما تحرص عليه حكومتى ، من استبقاء علاقات

مصر بالدول الأجنبية — وبالأخص بريطانيا العظمى — على خير حال — من المودة والصفاء ، وأرجو أن يحين قريبا ، الوقت الذى تحل فيه المسائل المعلقة ، بيننا وبين الحكومة الانجليزية ، حلا شريفا تتوثق به عرى المودة والصداقة بين الشعبين المصرى والانجليزى ، وتستكمل به مصر أسباب استقلالها » •

وجاء بخطاب العرش سنة ١٩٣٢ :

« وانى لمغتبط جد الاغتباط ، بأن علاقاتنا بالدول الأجنبية ، وبالأخص بريطانيا العظمى ، لم تزل على خير حال من المودة والصفاء، ويسرنى أن حكومتى متفقة فى ذلك مع الحكومة البريطانية ، تستطيع أن تعالج قريبا ، وفى الوقت المناسب ، استئناف المفاوضات لحل المسائل المعلقة بين البلدين ، حلا تستكمل به مصر أسباب استقلالها، ويؤكد الى ذلك مابين البلدين من روابط الصداقة » •

ولم يتغير هذا المضمون فى خطاب العرش سنة ١٩٣٣ حيث قال « ومن أحب دواعى السرور الى ، أن علاقات مصر بالدول الأجنبية وعلى الأخص بالدولة البريطانية ، على خير حال من المودة والصفاء ، وان يحين قريباً الوقت ، الذى تحل فيه المسائل المعلقة بيننا وبين بريطانيا العظمى ، حلاً تستكمل به آثار استقلالنا ، ونوثق به عرى المودة والصداقة بين الشعبين المصرى والانجليزى » [٦] •

ومن ناحية أخرى ، فالردود على خطبة العرش ، تكاد تكون واحدة هى الأخرى •• فيؤكد مقرر لجنة الرد على خطبة العرش ، فى الدورة الأولى للمجلس ، وهيب دوس (شعبى) مارددته الحكومة، فالمجلس « سعيد بأن يشاطر حكومة جلالتكم ، شعور الغبطة ، بأن

---

(٦) مضابط مجلس النواب .. الجلسة الحادية عشر ١١ يناير ١٩٣٤ ص ٩٧ •

علاقات مصر بالدول الأجنبية ، تسودها المودة ويظلها الصفاء ، ويؤيدها أعظم التأييد ، فيما ترتئيه من أن خير مايؤكد علاقات المودة، بين بريطانيا العظمى ومصر ، ويوثق روابط الصداقة والتفاهم ، بين الشعبين الانجليزى والمصرى ، اتفاق شريف وطيد ، يحقق لمصر استقلالها كاملا ، ويضمن حقوقها فى السودان غير منقوصة » [٧] .

وفى يناير ١٩٣٢ — وكان وهيب دوس أيضا ، مقرر لجنة الرد على خطاب العرش — يتردد نفس المضمون فى الرد على خطبة العرش، اذ جاء فيه « ان المجلس ليقدر لحكومة جلالتكم ، حسن سياستها باستدامة علاقات مصر بالدول الأجنبية — وبالأخص بريطانيا العظمى — تسودها روح المودة والصفاء ، ويرجو معها أن تتاح الفرصة قريبا ، لحل المسائل المعلقة بين مصر والحكومة الانجليزية ، حلا وطيدا عادلا ، يؤكد روابط الصداقة بين الشعبين الانجليزى والمصرى ، ويضمن الاستقلال التام لمصر ، والاحتفاظ بحقوقها كاملة فى السودان » [٨] .

وبعد خروج صدقى مؤسس النظام من الحكم ، كان مشروع الرد على خطبة العرش ، كان مقررها دسوقى أباظة .. لا يختلف عن مشاركع الرد على خطب العرش السابقة .. فقد جاء فيه « ان من أكبر دواعى اغتباط المجلس ، أن تسود المودة علاقات مصر بالدول الأجنبية ، وعلى الأخص بريطانيا العظمى ، وتنتظر أن تتوج روابط صداقتنا ، بحل المسائل المعلقة ، حلاً يضمن الاستقلال التام لمصر ، والاحتفاظ بحقوقها كاملة فى السودان » [٩] .

---

(٧) المصدر نفسه .. الجلسة الخامسة أول يوليو ١٩٣١ ، ص ٤٢ .

(٨) المصدر نفسه .. الجلسة الخامسة ٤ يناير ١٩٣٢ ، ص ٤٣ .

(٩) المصدر نفسه .. الجلسة الثامنة ٩ يناير ١٩٣٤ ، ص ٨١ .

فلم يكن هنـــاك اختلاف جوهـــرى ، بين الخطوط العـــامة التى تضمنتها خطب العرش ، فى ظل هـــذا النظام ، فى هذه القضية ، وبين ماجاء فى الردود على هـــذه الخطب ، وهو رأى السلطة التشريعية أى نواب الحزب •

ولم تذكر خطب العرش الحقوق المصرية فى السودان ، بل تضمنها الردود على هذه الخطب ، وربما كان ذلك تحت ضغط الحزب الوطنى ، ولقـــد أشار محمد حافظ رمضان ، زعيم الحزب والمعارضة فى مجلس النواب ، الى ضرورة ذكر السودان فى خطب العرش ، وانه يجب أن لانفتر عن المطالبة به « فالفاتيكان مثلا ، يطالب الى الآن فى تقاريره السنوية ، بمقاطعـــات فصلت عنه من مئات السنين ، وكذلك فرنســـا كانت تطالب بالالزاس ، وظلت تطالب بهـــا نصـــف قرن ، حتى جاء الوقت المناسب وأعيـــدت اليها •• اننى أريد أن أجعل السودان الزاسا لمصر •• » [١٠] •

ويؤكد عبد الحميد سعيد ، (وطنى) من أن السودان ، يجب أن يذكر فى مقـــدمة خطبـــة العرش ، لاسيما بعد الادعاءات التى ادعتها انجلترا ، على لسان ساستها وخطبـــائها ، والتى ترمى الى جعل مصر جزءا من الامبراطورية الانجليزية ، لتصل من وراء ذلك ، الى فصـــل الســـودان عن مصر ، فان «الســـودان من مصر ، بمثـــابة الرأس من الجسد ، وان القابض على حبل المشنقة ، ينفذ فينـــا حكم الاعدام فى أى وقت أراد •• » [١١] •

كما ينتقد ما جاء فى مشروع الرد على خطاب العرش ، من عبارة « وتنتظر أن تتوج روابط صـــداقتنا ، بحل المسائل المعلقة ، حلا يضمن

---

(١٠) المصدر نفسه .. الجلســـة الخامســـة أول يوليو ١٩٣١ ، ص ٤٥ •

(١١) المصـــدر نفسه ، ص ٤٧ •

الاستقلال التام لمصر ، والاحتفاظ بحقوقها كاملة فى السودان » ..
ويتساءل لم قيل الاستقلال التام لمصر ، ثم عقب ذلك بحقوقنا الكاملة فى السودان ؟.. فهذا تفريق بين جزئين متصلين لن ينفصلا أبدا ، وانه كان يجب أن يقال ، الاستقلال التام لمصر والسودان ، فالسودان جزء لايتجزأ من مصر ، وانه ملك لأبناء وادى النيل .. وأشار الى التصرفات البريطانية فى السودان ، وعدم علم الحكومة المصرية شيئا عن قوة السودان رغم مايدرج فى الميزانية المصرية ، لمساعدة قوة الدفاع عن السودان .. وان السودان قد مثل فى معارض خاصة بالمستعمرات الانجليزية ، بل ومثل فى مؤتمر دولى ، دون علم مصر .. وان اغفال السودان فى خطاب العرش ، وفى كل مناسبة « يجعلنا آثمين مجرمين فى الواجب مستسلمين للغاصب .. » (١٢) .

وتناول نائب الحزب الوطنى ، كذلك بالنقد عبارة « حقوق مصر فى السودان » فهى عبارة مطاطة المعنى ، غير محددة ، فلقد فسرتها بريطانيا ، بأنها تنحصر فى « قسمة مياه النيل لا أكثر ولا أقل ».. ويرد وهيب دوس ، مقرر لجنة الرد على خطاب العرش ، بأن التعبير « قد يتسع لكافة حقوقنا فى السودان ، حتى الملكية المطلقة ، وقد تضيق ، فلا يشمل الا حق مصر فى جزء من مياه النيل » (١٣) ، ولكن المخرج أو مربط الفرس ، هو قدرة الحكومة التى أوليناها الثقة ، فى المحافظة على هذه الحقوق ، بأكثر مما نطلبه منها فى هذا السبيل.. وعلى كل حال فانها لن تبرم فى الأمر شيئا ، الا بعد أن تعرض المسألة على المجلس ، فمرجع الأمور الى حضراتكم أولا وأخيرا » (١٣).

ويؤكد عبد العزيز الصوفانى ، قطب الحزب الوطنى ، هذه السياسة ، وان التعلل بأن حق مصر فى السودان ، سواء ذكر فى خطبة

---

(١٢) المصدر نفسه .. الجلسة التاسعة ٩ يناير ١٩٣٤ ، ص٨٣ .

(١٣) المصدر نفسه .. الجلسة الخامسة أول يوليو ١٩٣١ ص ٤٧ ، ٥٦ .

العرش » أو لم يذكر فهذا « مالا يمكن أن يقبله العقل ، وأرى كما سبق أن قلت ، انه مادام الحق ثابتا ، فلا ضير من تكراره فى كل وقت من الأوقات ، زيادة فى تثبيته » (١٤) •

وهاجم نواب الحزب الوطنى أسلوب التفاوض ، التى تنوى الحكومة اتباعه • •ولقد حاول هؤلاء النواب ، فى الدورات البرلمانية لهذا المجلس ، ابراز فساد أسلوب المفاوضة ، وهو مايرفضونه •• دون أن يقدموا البديل •

فأكد رئيس الحزب والمعارضة ، فشل هذه السياسة ، فقد ذهب « كل رؤساء الحكومات الى لندن ، ولم يعودوا الينا بالاستقلال المزعوم ، فلا يوجد صك للاستقلال ، يأخذ المغتصب حقه به من المغتصب ، ففى المفاوضات تحولت المصالح البريطانية الى تحفظات للاستقلال ، ومن تحفظات الى حقوق •• والنتيجة لا شىء ، فانحدرت قضيتنا فى منحدر ، الله وحده يعلم من الذى يستطيع أن يرفعنا منه » • فيوضح محمد حافظ رمضان ، منطق الحزب الوطنى فى هذه القضية ، وهو بعيد عن الواقعية ، الى درجة مثالية خيالية كبيرة، فيقول « أنبئونى : اذا كانت بريطانيا ، ترى ان بقاء احتلالها ، أصبح غير مرغوب فيه ، اذا كانت على زعمها ، لاتريد الا المحافظة على قناة السويس ، اذا كانت تريد أن تجلو عن بلادنا ، فما الذى منعها ، من أن تنقل جنودها الى القناة ، من تلقاء نفسها ؟ لم تطلب منا توقيعا ؟ لم تطلب منا صكا ؟•• هناك جواب واحد ، هو انها تريد أن يصبح مركزها غير الشرعى شرعيا •• » (١٥) •

ويدافع عن مبادىء الحزب الوطنى فى هذا الصدد ، ويدفع عنها تهمة الجمود ، بل ويصل الى أن الاصرار ، على اتباع أسلوب

---

(١٤) المصدر نفسه .. الجلسة التاسعة ٩ يناير ١٩٣٤ ص ٨٩ •

(١٥) نفس المصدر الجلسة الخامسة أول يوليو ١٩٣١ ، ص ٤٦ •

التفاوض غير المجدى ، هو الجمود ذاته ، فلقد « تعاقبت الحكومات فى مصر ، واتفقت جميعاً على اتباع هذا الطريق ، رغم أن التجارب أثبتت ، والحوادث نطقت بأنها طريق غير مجدية ، ولا موصلة للاستقلال ، ومع ذلك يقولون ، ان خطط الحزب الوطنى جامدة صامدة ، فهل يكون الجمود فى خطط الحزب الوطنى ، أم فى خطط تلك الحكومات المتعاقبة ؟ » (١٦) .

ويبين مصطفى الشوربجى أساسيات التفاوض ونتائجه .. فالمفاوضة لا تأتى بالاستقلال ، بل ينتج عنها الانقسام والتحزب والتشيع ، وأنها لا توصل الى الاتفاق السليم ، لأن الاتفاق لايكون الا بين طرفين متقاربين ، فى آرائهما وأغراضهما ، فأى « اتفاق تريدونه ، وانجلترا تود استعبادنا وابتلاع حقوقنا ؟ بينما نريد نحن كما تقولون الاستقلال التام لمصر والسودان . أن الفرق كبير ، بين ماتريد هى وبين مانريده نحن ، وليس من الخطط العملية فى شىء ، أن نسعى الى الاتفاق بيننا وبين الانجليز ، مادام الفرق بيننا وبينهم فى الغرض ، كالفرق بين السماء والأرض .. » (١٧) .

ويحاول النواب الشعبيون ، تفنيد آراء الحزب الوطنى ، فيشير النائب محمد عزيز أباظه ، الى أن فشل المفاوضة فى الماضى ، لم يكن راجعا الى فساد الخطة فى ذاتها ، ولكن السبب راجع ، الى أن الذين كانوا يقومون بتلك المفاوضة ، لم تمكنهم كفايتهم ، أو استعدادهم ، من الوصول الى حل حاسم لاستخلاص حقوق البلاد .. ولكن المفاوضة التى ستجرى على يد الحكومة القائمة ، فستتم على القواعد « التى بينها لنا حضرة صاحب الدولة فى العام الماضى ، وهى قواعد قابلها المجلس كله ، بالحفاوة والاستحسان » (١٨) .

---

(١٦) نفس المصدر الجلسة الخامسة ٤ يناير ١٩٣٢ ، ص ٤٦ .
(١٧) نفس المصدر الجلسة الخامسة أول يوليو ١٩٣١ ، ص ٥٢، ٥٣
(١٨) المصدر نفسه : الجلسة الخامسة ٤ يناير ١٩٣٢ ، ص ٤٩ .

ويوضح وهيب دوس .. سلامة أسلوب المفاوضة ، ويستشهد بأن محاولة المفاوض المصرى ، الوصول الى الاتفاق ، المرة بعد المرة، وعودته بدون أن يتفق « لدليل قاطع ، على أنه فى كل الأدوار ، لم يرى فى المفاوضة ، سببا للانتقاص من حقوق البلاد ، بل دليل على أنه كان يسعى الى الحق كاملاً ، ولما لم يصل اليه ، عاد الينا وهذا ماحدث بين سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٣٠ » .. وأن المفاوضة ، هى الوسيلة الوحيدة للتفاهم ، ولا يستطيع أحد أن ينكر فضلها ، فالحماية التى فرضت قسرا فى عام ١٩١٤ ، قد رفعت ولو شكلا ، وزالت نتائجها القانونية ، اثر المفاوضات الشاقة التى قام بها ثروت باشا ، فلا سبيل لانكار فائدة المفاوضة ، لأن « كل مفاوضة كانت تنقلنا خطوات الى الأمام ، وكانت تأتى بنتيجة تزيد على سابقتها ، وكان كل مفاوض يسترشد بالمفاوضة السابقة ، فلم هذا الخوف من خطة المفاوضة ؟ » ، واستفسر من المعارضة ، عن ماهية السبيل الى استخلاص حقوق البلاد « اذا كنتم تتنكبون طريق المفاوضة ؟ » (١٩) ويتعرض اسماعيل صدقى ، للرد على رفض الحزب الوطنى لأسلوب المفاوضة للحصول على اتفاق ... فان أحوال العالم بعد الحرب العالمية الأولى ، مبنية كلها على التفاهم ، وان حل المنازعات بين الدول ، وفى كل مكان ، لايتم بحد السيف بل بالاقناع والتفاهم ، « وهذه أصبحت سنة الدول جميعا ، فلا يمكننا ونحن الضعفاء ، أن نشذ عن هذه السنة ، التى يستفيد منها الضعيف أكثر مما يستفيد منها القوى ، تلك هى سنة الاقناع والتسلح بالحق .. » (٢٠) .

والمهم أنه رغم ملاحظات رئيس الحزب الوطنى ونوابه ، فى جلسة أول يوليو ١٩٣١ ، على مشروع الرد على خطاب العرش .. فقد تمت الموافقة عليه بالاجماع والثقة بالوزارة (٢١) .

---

(١٩) المصدر نفسه : الجلسة الخامسة أول يوليو ١٩٣١ ، ص٥٥ .
(٢٠) المصدر نفسه : ص ٥٨ .
(٢١) المصدر نفسه : ص ٥٨ .

ومما سبق نؤكد على عـــدة أمور :

أولا •• انه لم يحدث تطور حتى فى العبـــارات التى صـــاغتها الحكومة ، أو مجلس النواب ، فى الرد على خطبة العرش ، وذلك بالنسبة للقضية المصرية ، ولقـــد استمر هـــذا النظام حوالى أربع سنوات ••• وهى فترة توقفت فيهـــا محاولة الوصول الى اتفاق مع بريطانيـــا •• وهو أمر لم يحدث منذ تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ •

ثانيا •• ان ماذكر فى خطب العرش ، والرد عليها ، من تحسن وصفاء العـــلاقات المصرية مع البلاد الأجنبية ، لاسيما بريطانيا •• لم يستخدم فى القضـــايا السياسية الهامة المعلقـــة ، وكمـــا يقول ممثل المعارضـــة فى مجلس الشيوخ « جميل أن تكون حالة المودة والصفاء بين مصر والدول ، ولـــكن أجمل من ذلك ، أن نقف على أثر لحســـن المودة والصـــفاء هذه » • فلم تعمل الوزارة على الاستفادة من حالة الصفاء كما جاء فى بيانها » وهى على أحسن مايكون من المودة والصفاء مع الدول « لحل بعض المشاكل القـــائمة ، بين مصر وهـــذه الدول ، واستغلال هذه الحالة ، لمحاولة التخلص من قيود الامتيازات الأجنبية ، أو دخول عصبة الأمم » [٢٢] •

ثالثا •• ان الحزب الوطنى فى معارضـــته لأسلوب المفاوضة ، لم يقـــدم البديل بل ان ماعرضـــه محمد حافظ رمضان عند تســـاءله « اذا كانت تريد أن تجلوا عن بلادنا فمـــا الذى منعهـــا •• » ليس منهجاً ، بل هو أمر بعيـــد عن المنطق والواقع ، ورغم هذه المعارضـــة فيوافق الحزب على خطبـــة العرش ، والرد عليهـــا والمتضمن المفاوضة أسلوبا للاتفـــاق ، بين بريطانيـــا ومصر ــ كما حدث فى مجلس النواب فى الجلسة الخامسة أول يوليو ١٩٣١ ! [٢٣] •

---

(٢٢) مضابط مجلس الشيوخ جلسة ٦ ، ١٦ يناير ١٩٣٣ ، ص٤٤ •

(٢٣) ص ٤٤ ، ٤٦ •

رابعا •• لم يدرك الحزب الوطنى أن الموقف المصرى ازاء قضية الاستقلال ، انما هو أمر يتوقف على قطبى القضية ، مصر وانجلترا ؛ والعوامل المحلية والدولية المؤثرة على كل منهما •• وضعف الحكومة المصرية ، وأقصد بذلك عدم وجود السند الشعبى لها ، من العوامل المؤثرة ، بل والمحيطة ، لرغبة بريطانيا فى الوصول الى اتفاق مع الحكومة المصرية •• لأن المقصود ليس عقد الاتفاق ، بل ضمان تنفيذه ••• ومن هنا كان تجميد القضية المصرية فى ظل هذا النظام •

واذا كان نظام صدقى لطبيعته أدى الى تجميد القضية المصرية•• فلم يكن ذلك مما يهدف اليه صدقى نفسه •• الذى كان يعتبر أن الاتفاق مع بريطانيا ، عاملا أساسيا لتدعيم حكومته •• فقد أعلن صدقى أكثر من مرة ، بأنه يتوق الى التفاوض مع الحكومة البريطانية، من أجل اتفاق يعطى مصر الاستقلال التام (٢٤) • وكان شغوفا لهذه المفاوضات ، من أجل الحصول على التأييد البريطانى لحكومته ، والخطوات التى اتخذها للمحافظة على القانون والنظام فى مصر (٢٥) •

ولكن القطب الآخر للمفاوضة ـ وأعنى به الحكومة الانجليزية ـ لم يكن مطمئنا فى التفاوض مع حكومة تفتقد التأييد الشعبى ، فقبل وبعد المحادثات التى تمت بين صدقى وسيمون فى سبتمبر ١٩٣٢ •• كانت جريدة التيمس اللندنية ، تنصح صدقى بعدم الدخول فى مفاوضات مع الحكومة البريطانية ، بسبب نقص التأييد الشعبى محكومته (٢٦) •

وكان هذا هو موقف الحكومة البريطانية ، ازاء حكومة صدقى والنظام الذى أقامه •• ففى مناقشات مجلس العموم البريطانى فى ٢٩

---

(24) Zayid, Op. cit., p. 140.

(25) Vatikutis, P.J. : The Modern history of Egypt, p. 284.

(26) Zayid, Op. cit., p. 140.

يوليو ١٩٣٠ ، مايؤكد هذه الحقيقـــة ، أو هذه السياسة ، ففى اجابة لمســـتر رامزى مكـــدونالد ردا على ما أثاره تشرشـــل ، حول حوادث الاضطراب فى مصر ، والتدخل البريطانى ـــ أوضح بأن الجميع يعلمون « حق العلم أن المعاهدة ، التى تبرم بين انجلترا ومصر ، ستعقد على أساس التحفظات الأربعة ، وان تلك المعاهـــدة لايمكن أن نوافق عليها ، الا حكومة تتمتع على كل حال ، بقسط كبير من التأييد فى مصر » (٢٧) . وهو مايشير اليه هندرسن صراحة بأن « الأسباب التى أدت الى عـــدم الاستمرار مع حكومة محمد محمود ، مازالت تقوم بالنســـبة لحكومة صـــدقى ، وان تفكيرنا لابد أن يعقد على أنه فى النهاية ، لابد من حكومة أغلبية ساحقة للتعامل معها .. » (٢٨) .

وفى نفس جلســـة مجلس العموم السابقة ، يؤكد مكدونالد بأن الاتفاق مع الحكومة المصرية يجب ألا تسبقه « محـــاولة أخرى لطبخ كشوف الانتخابات ، وتضيق حقوق الناخبين » ، مما يعطى خصـــوم صـــدقى فرصة القول بأن هذا الاتفـــاق تم وراء ظهور الأمة المصرية ، وان الأمة مسؤولة عن تنفيـــذه ، بوجه من الوجوه .. » (٢٩) كما طالب هندرسن من المنـــدوب السامى ، أن يبدد الفكرة الخاطئـــة عند الملك « بأننا نريد عزل النظام البرلمانى ، فالحكومة المتمتعة بالأغلبية البرلمانية ضرورية لنتفاوض معهـــا الحكومة البريطانية ، حتى تطمئن عدم نقـــد المعاهدة معها من حكومة تالية » (٣٠) .

ويشير ممثل المعارضـــة فى مجلس الشيوخ ، الى هذه الحقيقة ، عندما ذكر أن الحكومة البريطانيـــة ، كانت دائما هى التى تدعو مصر

---

(٢٧) وثائق عابدين محفظة رقم ٣٧٧ (المسألة المصرية) .

(٢٨) مصطفى النحاس جبر : سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية ١٩١٤ ـــ ١٩٣٦ .. رسالة دكتوراه غير منشورة ، ص ٤٢٠ .

(٢٩) وثائق عابدين محفظة رقم ٣٧٧ .

(٣٠) مصطفى النحاس جبر ، المرجع السابق ، ص ٤٢٠ ، ٤٢٩ .

الى المفــاوضات ، فهى التى دعت عدلى يكن وسعد زغلول عام ١٩٢٤، ثروت باشا عام ١٩٢٧ ، محمد محمود عام ١٩٢٩ ومصطفى النحاس عام ١٩٣٠ ، أما بعد سنة ١٩٣٠ الى الآن ونحن فى سنة ١٩٣٣ فلم تجب الحكومة البريطانية طلب الحكومة المصرية للمفاوضة .. » [٣١] .

كما أن الرغبة المصرية فى التفــاوض ، والتى تنـــاولتها خطب العرش المختلفــة ، وهو سبق الاشــارة اليها ، لم يكن يقــابلها شىء من الجانب البريطانى ، أو نفس الاهتمام .. وهو ما أشــار اليه محمد حافظ رمضان زعيم الحزب الوطنى بمجلس النواب ، وكذلك حســن صبرى ممثل المعارضة فى مجلس شيوخ [٣٢] .

واستعرض ممثل المعارضة فى مجلس الشيوخ ، كافة التصريحات البريطانية فى هذا الصــدد ، من رئيس وزرائهــا ، ووزير خارجيتها، ووكيلها فى مجلس العموم البريطانى ، وهى تعكس مدى ضعف الحكومة المصرية ، وعــدم قــدرتها على حل القضــية المصرية لفقــدها التأييد الشعبى ... وكان استعراضه لهذه التصريحات على الوجه التالى :

أولا .. تصريح لرئيس الوزارة البريطانيــة بمجلس العموم فى يوليو ١٩٣٠ (وهو رئيس الحكومة البريطانية عام ١٩٣٣) وجاء فيــه « وقبل أن تصل الينــا حوادث الاسكندرية المزعجة ، كانت أرســلت

---

(٣١) مضابط مجلس الشيوخ .. الجلسة السادسة ١٦ يناير ١٩٣٣ ص ٤٥ .

(٣٢) نفس المصــدر والصــفحة ، مضابط مجلس النواب الجلسة الحادية عشر ١١ يناير ١٩٣٤ ، ص ٩٧ .

(٣٣) اتبع الوفــد التحرك الجمــاهيرى ممثلا فى زياراته للمديريات والمظاهرات التى حركها لمواجهــة نظــام صــدقى .. ومنهــا المظاهرات بالاسكندرية .. وتصدت قوات صدقى لهذه المظاهرات فحدثت الخسائر .. وفى مظاهرات الاسكندرية بلغ عــدد القتلى ٢٠ والجرحى ٥٠٠ غصت بهم مستشفيات المــدينة وترتب على حوادث الاسكنــدرية البــلاغ البريطانى

التعليمات للمنـــدوب السامى ، ليوضح بجـــلاء ، ان حكومة صـــاحب الجلالة البريطانيـــة ، ماقصدت أن تستعمل آلة للاعتداء على الدستور المصرى ، واليكم النص الانجليزى :

«Had been instructed to make it quiet clear that his Majesty's Government did not intend to be used as an instrument for attack on Egyptian Constitution».

ثانيا •• فقد سأل مستر ريس ديفز Rhys Davies فى ٩ نوفمبر ١٩٣٢ « عمـــا اذا كانت الحكومة عازمة أن تشترط ، عندما تتفاوض فى أى تاريخ مستقبل ، لعقد معاهـــدة مصرية انجليزية — ان معاهـــدة كهذه ، يجب أن يصـــادق عليها برلمـــان مصرى ، منتخب انتخابا حرا — وعما اذا كان البرلمان المصرى الحالى يعتبر داخلا فى هذا النوع » •

فأجاب السير جون سيمون وزير الخارجية « ان السؤال غرضى محض ، لتعلقـــه بحالة لم تنشأ بعد » ثم قال « ولا يليق بى أن أصدر حكما على النظم البرلمـــانية الموجـــودة الآن بمصر ، ثم أشـــار جون سيمون ، الى التصريح الذىأدلى به المستر ايدن وكيلوزارة الخارجية جوابا على سؤال مستر ترتون Turton الموجه فى ٢٧ أكتوبر سـنة

=

بتحميل حكومة صـــدقى والنحاس مسئولية حماية أرواح وممتلكات الأجانب وارســـال بارجتين بريطـــانيتين للمحـــافظة عى أمن وســـلامة الأجانب . والحقيقة أن الأوامر كانت واضـــحة للمتظاهرين بالابتعـــاد وعدم التعرض للاجانب وهو ما وعاه المتظاهرون ولم تسفر حوادث الاسكندرية الا عن قتل أحد الايطاليين ونهب بعض السفن الأجنبيـــة وكان ارسال البارجتين تفويتا على ايطاليا فى ارســـال سفينة حربيـــة ايطالية (عبد العظيم رمضـــان : تطور الحركة الوطنيـــة ص ٧٣٥ ؛ ٧٣٦ ، مصطفى النحاس جبر ، سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنيـــة ١٩١٤ — ١٩٣٦ رسالة دكتوراه جامعـــة القاهرة ، ص ٤٣١ — ٤٣٢) .

١٩٣٣ ، فهو يحدد — موقفنـــا ازاء نوع الحكم الحالى — وتصريح ايدن ، الذى يشير اليه وزير الخارجية ، هو « لانحتفظ بشىء فيمـا يتعلق بالوزارة Administration المصرية الحالية كوزارة نمت معهـا العلاقات الانجليزية المصرية ، ويمكن أن تستمر فى النمو ، فى وقت وبالطريقة الأكثر ملاءمة للغرض ٠٠ » [٣٤] ٠

ثالثا ٠٠ فى ١٤ نوفمبر ١٩٣٢ وفى مجلس العموم ، سأل المستر روس تيلور « عما اذا كانت تقـدمت مقترحات للمفاوضات ، فى عقد معاهــدة انجليزية مصرية » ، فأجاب المستر ماكدونالد ، رئيس الوزراء بالنفى و « لـــكن الحكومة البريطانية كانت تعلم ، منذ تلاوة خطاب حضرة صـاحب الجـلالة الملك فؤاد ، فى حفـلة افتتــاح البرلـمـان المصرى ، فى شهر ديسمبر المـاضى ، أن الحكومة المصرية ، تتوق لفتح باب المفاوضات فى الوقت المناسب » ٠

رابعا ٠٠ فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٢ وفى مجلس العموم ، سأل المستر تشرشل وزير الخارجيــة « هل لفت نظره الى التصريح ، الذى ورد حديثـا ، فى خطاب العرش الذى القاه جلالة الملك فؤاد ، وهــو يتضمن أن المفاوضــات لعقد معاهــدة بين بريطانيـا ستتجدد فى وقت قريب » ٠ فرد عليه ايدن وكيل الخارجية قائلا « اطلعت على أنبـاء هذا التصريح فى الصحف ، ولكن لم يصل بعد النص الرسمى للخطبة — على أن صـديقى العزيز ، يقـدر أنه مادامت سـياستنا فى مصر ، قائمة على تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ ، فان للحكومة المصرية الحق فى تتوقع استئناف المفـاوضات — لم أر فى هذه الخطبة عبارة لاتعترف، بأن موافقة الفريقين ، أمر مطلوب قبل امكان البدء فى المفاوضة » [٣٥] ٠

ففى مقابل الالحاح المصرى فى طلب المفاوضة ، كانت التصريحات

---

(٣٤) مضابط مجلس الشيوخ ١٦ يناير ١٩٣٣ ، ص ٤٥ ، ٤٦ ٠

(٣٥) المصـــدر نفسه : ص ٤٥ — ٤٧ ٠

البريطانيـــة ، تعتبر أن مسألة المفاوضـــات ، مسألة فرضية .. ويرى العضو ، ان ذلك راجع الى ضعف الحكومة المصرية ، ويؤيد وجهة نظره بما نشره المحرر السياسى لجريدة الديلى تلغراف، وهو من أكبر المحررين السياسيين فى انجلترا ، وما نشرت خلاصته الأهرام فى ٥ يناير ١٩٣٢ حيث جاء فيـــه :

« ولـــكن هـــذا الوقت المنـــاسب ، (للمفاوضات) — لم يحن بعد كما نبـــه صدقى باشا الى ذلك مرارا من لندن ، على غير طائل ، وفوق ذلك فان من الشروط الأولى لفتح باب المفاوضـــة لعقد معاهدة، أن يكون الاستقرار الداخلى فى مصر مضـــمونا ، كما لابـــد أن يكون صدقى باشـــا قـــد فهم ذلك ، ولـــكن هذا مالا يستطيع حتى صـــدقى باشـــا ، أن يدعى أنه حصـــل عليه ، ثم يلوح من أحـــداث التطورات السياسية فى مصر ، أنه يبعد الآن أن يحصل على هذه الغاية أكثر من قبل » .. ويرى العضو بعد هـــذا العرض ، أن هنـــاك ترابطـــا بين الاستقرار الداخلى — وهو ماينفى وجوده العضو — وبين المفاوضات من أجل الاتفاق مع بريطانيا [٣٦] .

وكان ذلك لب القضـــية فى العلاقات المصرية البريطانية ، وأدرك ذلك البريطانيون والمصريون على السواء ، فتذكر السياســـة فى أحـــد مقالاتهـــا ، تصريح الســـير برسى لورين فى ١٧ أكتوبر ١٩٢٩ ، بأن « المعاهـــدة الوحيدة التى لها قيمة حقيقيـــة فى نظر بريطانيا ، التى يكون ثمت أمل حقيقى فى أن تكون ثابتة نهائيـــة ، هى المعاهدة التى تعقـــد مع مصر الحرة ، وبرضى المصريين المطلق من كل قيد ... واذا كان امضـــاء وثيقـــة ، أو ابرام معاهدة ، من الحوادث الهامة فهذ قد أصبح فى الوقت الحاضر ، غير كاف فى تعـــامل الأمم ، مع بعضـــها

---

(٣٦) المصـــدر نفسه : ص ٤٤ — ٤٧ .

بواسطة حكوماتها ، وان كانت الأمم التى اختارتها ، بل يجب أن تقترن ارادة تنفيذ المعاهدة بالرغبة فى امضائها •• » (٣٧) •

وهو ما دفع السير برسى لورين ، عندما أدرك فشل صدقى ، فى الحصول على التأييد الكافى لحكومته ، الى أن يقترح على عدلى باشا ، بطريقة غير رسمية ، بتشكيل حكومة قومية من كافة الأحزاب وبرياسته •• وان بريطانيا تؤيد ذلك ، وهو مايؤدى بأن تعقد بريطانيا اتفاقاً مع مصر ، على أساس مشروع اتفاق ١٩٣٠ ، بل وستنصح بعودة دستور ١٩٢٣ (٣٨) • وذلك بالنظر لاضطراب الأمن فى مصر ، وهو مايثير القلق بين البريطانيين المقيمين بها (٣٩) ويعنى ذلك انهاء نظام صدقى كلية •

كما تنشر السياسة اجابة وزير الخارجية البريطاننية ، على سؤال سير كنجسلى ، حول الاستعداد للمفاوضة مع الحكومة المصرية ، على أساس مشروع معاهدة ١٩٣٠ •• انه « اذا أعربت أية حكومة مصرية، تتمتع بثقة الأغلبية فى برلمان ، منتخب انتخابا حرا ، عن رغبتها فى استئناف المفاوضات المعلقة منذ الربيع الماضى ، فان الحكومة البريطانية ، على استعداد لأن تلبى هذه الرغبة ، على أساس الاقتراحات التى تضمنتها معاهدتها •• » (٤٠) •

وقد أيدت هذه السياسة البريطانية ، أو عبرت عنها الصحف البريطانية مثل مانشرته الصنداى تيمس ، بأن « أية معاهدة توقع فى ظل نظام الحكم الحاضر ، أو الدستور الذى لم ينفذ بعد ، لايمكن أن

---

(٣٧) أحمد شفيق : حوليات مصر السياسة .. الحولية السابعة ، ص ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ •

(38) Jayid., op. cit., p. 141, 142.

(39) Vatikiotis, op. cit., p. 284.

(٤٠) أحمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٣٦٦ •

تقبلها الأمة ، ولو كانت مطابقة لمشروع محمد محمود ــ هندرسن ، أو لمشروع ٩ مايو الماضى ، أو كانت أفضل منهما • ونحن نكرر اليوم هذا الرأى ونؤيده ، نكرر أنه يجب أن يكون مفهوما ، بكل صراحة وجلاء ، أن أى برلمان ينتخب تحت النظام الصدقى ، لا يمكن أن يبرم معاهدة مع انجلترا ، أو تكون قابلة للبقاء •• » [٤١] •

وتعلق السياسة ، على مثل هذه التصريحات البريطانيــة ، مؤكدة الارتباط الواضح والتــام ، بين النظام الداخلى فى مصر واستقراره، وبين حل القضية المصرية مع بريطانيا ، وان دستور صــدقى ونظامه ، قد جمد العلاقات المصرية البريطانية ، أو القضية المصرية •

فالاستعداد البريطانى لاستئناف التفاوض ، كان واضــحا منــذ فشل مفاوضات ربيع ١٩٣٠ ، فقد أعلن المستر هندرسون ، بأن مشروع اتفــاق ١٩٣٠ مازال مقاما ومتيسرا ، وانه وزملاءه ، مستعدون لبــذل الجهد للوصــول الى اتفاق بالنسبة للمسائل المتبقية على أن توضع فى مذكرة تضــاف لمشروع الاتفــاق ــ (١٩٣٠) ــ وذلك لجعل التوقيع ممكنا [٤٢] • كما كانت دار المنــدوب السامى ، لا تزال يحدوها الأمل، فى استئناف المفوضات وبقــاء الوزارة النحاسية الثانية فى الحكم ، بل لقــد عرض المندوب السامى على توفيق نسيم ــ الذى جاءه موفدا من قبل الملك ــ تــكليف رئيسى مجلسى الشيوخ والنواب ، بالتوســط لدى الملك والنحاس ، بغية انهاء الخلاف بينهما [٤٣] •

ولــكن نظام صــدقى أفسد هذه القضية ، فتقول السياسة بأن صــدقى باشا ومن يؤيده ، لايستطيع واحد منهم أن ينكر ، أن صدور الدستور الجديد ، الذى وقفت الأمة بأحزابها جميعا ضده « يقضى الى

---

(٤١) المرجع نفسه : ص ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ •

(42) Jayid., op. cit., p. 135.

(٤٣) سامى أبو النور : دور القصر فى الحيــاة السياســية فى مصر ١٩٢٢ ــ ١٩٣٦ ، ص ٢٤١ •

حين زوال هـذا الدستور ، على كل رجاء فى العود ، الى المفاوضات بين مصر وانجلترا ، لعقد الاتفاق المرغوب عقده من الجانبين المصرى والانجليزى •• » ، فنظام صدقى هو العقبة ، فى الوصول الى اتفاق مع انجلترا ، وهو أمر يعود بالضرر على مصر ، لأنه بعد الاتفاق ، يمكن الغاء الامتيازات الأجنبية ، وتوزيع الضرائب بالعدالة على الجميع ، ولعل « هذا السبب » هو الذى يجعل الأجانب ، يقفون الى جانب وزارة صدقى ، لأنها توفر لهم الامتيازات وتعفيهم من الضرائب، وتترك حملها الثقيل على الفلاح المسكين •• » (٤٤) •

فصدقى باشا لا يمثل الا نفسه ، أو نفسه والملك ، وان الانتخابات التى أجراها زائفة ، وقد قاطعها حزب الوفد الذى يمثل أغلبية الشعب •• وكذلك الأحرار الدستوريون •• والبرلمان الذى أوجده ، لا يمثل الأمة بل مجموعة من طلاب المصالح الشخصية •• فكيف يرى الانجليز ذلك ، ويدخلون معه فى مفاوضات رسمية ، ويعقدون معه اتفاقا ، فان كان صدقى « قد تصور ذلك فهو اذن كان رجلا غير واقعى ، يسبح فى عالم من الأحلام والأوهام ، وأيضا كان يدل بذلك على أنه لايفهم حقيقة السياسة البريطانية ، ولا السياسة فى مصر » (٤٥) •

فالسياسة الثابتة للحكومة البريطانية ، هى عقد الاتفاق مع حكومة مصرية تمثل الشعب ، ويصدق عليه برلمان منتخب انتخابا حرا ، وكان ذلك هو السبب فى سقوط وزارة محمد محمود ، ومجىء الوفد سنة ١٩٣٠ وهو ما جعل المعارضة تتساءل ، أو تحاول حل اللغز •• اذا كانت حكومة صدقى ونظامه عقبة فى سبيل التفاوض،

---

(٤٤) احمد شفيق : المرجع السابق ، ص ١٣١٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ •

(٤٥) ضياء الدين الريس : الدستور والاستقلال ج ١ ، ص ١٦٢ •

بنـــاء على المبـــدأ البريطانى •• فلماذا التأييد البريطانى لهـــا ، ففى مقالة للأستاذ عبد الرحمن عزام بعنوان (الجلاء غاية لابد منها فماذا يؤخرها ؟) ••• يحل هـــذا التنـــاقض ، بأن الانجليز وان كانوا أعلنوا مبدأ سياستهم نظريا ، الا أنه لم يكن هنـــاك مايدفعهم ، أو يضطرهم لتغيير الوضع القـــائم •• فهو يخـــدم أغراضهم من نواحى أخرى ، ويمكن لاستعمارهم ، فقـــد انفردوا بحكم السودان •• فما هو الدافع اذن لعقـــد المعـــاهدة من جانب الانجليز ، ثم « هل يضمنون اذا عاد الوفـــد ، أن يوافق على المعـــاهدة ويتنـــازل عن مطالبـــه بشـــأن السودان ؟ » •• وربما كما يقول الـــكاتب فى تفسيره لهذا اللغد » انه كانت هنـــاك سياستان أو اتجاهان ، فى داخل الوزارة البريطانيـــة ، فمستر هندرسون ، يريد عقد المعاهدة مع برلمان حر ، وحكومة دستورية ، ومستر مكدونالد لايريد هـــذا البرلمان ، لايريد هذا البرلمان الحر ، ولا الحكومة الشرعية ، ولا يريد عقد المعـــاهدة ، ويرى أن يستمر هـــذا الوضع الشاذ ، لأنه هو الذى أقامه أو وافق على اقامته ، وهو يحقق أغراضه الاستعمارية » •• ولـــكن مهما كان الأمر ، فان مبدأ الحكومة البريطانية ، قائم على مفاوضـــة حكومة تمثل الشعب ، ومؤيدة ببرلمان منتخب انتخابا حرا (٤٦) •

واذا كنا قـــد استعرضنا وجهات النظر المختلفة ، حول أساسيات المفاوضـــة ، بين الحكومة المصرية والانجليزية مؤكدين أن نظام صدقى ، لفقده التأييد الشعبى ، كان هو العقبـــة فى سبيل الوصول الى اتفاق مصرى بريطانى ، حول القضـــية المصرية ، وهو ما تجاهله صدقى ، ولم يدركه الحزب الوطنى فلم يلبث نظـــام صـــدقى نفسه ، ان قدم الدليل

---

(٤٦) المرجع نفسه : ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

القوى ، بعجزه التـــام — لافتقاده التأييـــد الشعبى — فى أن يخطو خطوة واحدة ، فى قضـــية الاستقلال الوطنى ؛ وذلك عندما ســـعى صـــدقى ، لمقـــابلة وزير الخارجيـــة البريطانية ، لاقناعه بما توهمه ، بقوة نظامه وقـــدرته على التفـــاوض ، وعقد معاهدة مع بريطانيا •• فلم تكن هذه المحاولة ، الا وهما وسرابا ، ودليلا عمليا ، قدمته حكومة صـــدقى على ضعفها وعجزها — لفقـــدها التأييد الشعبى — فى أن تكون طرفا صـــالحا ، فى مفاوضـــــات مصرية انجليزية ، فلقـــد كان صـــدقى ، هو الساعى لاجراء المبـــاحثات مع بريطانيا ، للاستيثاق من رضاها عن نظامه ، واعترافها بأن حكومته ، جديرة بأن تتحدث عن مصر ، وان موقف المعارضة لم يحرمها هذا الاعتبار [٤٧] •

وربما رأى صدقى ، أن الظروف فى مصر ، قـــد تهيأت له للدخول فى مفاوضـــات مع الحكومة البريطانية ، لحل القضية المصرية ، وتحقيق انتصـــار سياسى ساحق على خصومه السياســـيين •• ففى ذلك الوقت حدث التصـــدع فى معسكر المعارضـــة •• فلقد حدث الانشقاق داخل الوفـــد ، حول فـــكرة الوزارة القومية ، اذ خرج منه القابلون لهـــذه الفكرة ، كما انفض الائتلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين [٤٨] ، فلقد أحس صـــدقى بالثقة التامة فى استقرار وزارته فى صيف ١٩٣٢ ، مما يسمح له أن يطالب بالتفاوض مع بريطانيا • فقد شرح للسير برسى لورين ، ان « وراءه الفلاح المصرى الحقيقى » ، وانه حافظ على القانون والنظام ، وواجه المشكلات الاقتصـــادية بشكل مرضى ، كما أنه يتمتع

---

(٤٧) عبد الرحمن الرافعى : فى المكاسب الثورة المصرية ج ٢ ص١٦٨

(٤٨) عبد العظيم رمضان : الجيش المصرى فى السياسة ، ص٣٠٩ .

بالأغلبيـــة البرلمانية ، لقد اعتقــد صدقى أنه أهل لأن يكون رئيســا لوزارة ، على قدم المساواة مع محمد محمود ، وسعد زغلول ومصطفى النحاس ..كان أمله أن يصبح الرجل ، الذى يعود الى مصر بمعاهدة.. وأراد كذلك ، أن يبرهن بأن حكومته تتمتع برضا الحكومة الانجليزية(٤٩)

وكان صـــدقى هو الساعى لهذه المحادثات فقــد طلب من حافظ عفيفى ، وزير مصر المفوض فى لنــدن ، أن يهيىء لمقــابلة مع وزير الخارجية البريطانية ، للتحدث معه فى امكانية استئناف المفاوضات .. ونجح فى تحقيق ذلك ، وتقرر أن يكون اللقاء فى جنيف يومى ٢١ ، ٢٢ سبتمبر ١٩٣٢ (٥٠) ، ولذلك هاجمت صحف المعارضة صدقى ، لسعيه لهذا اللقاء ، ووصفته بأنه « يستجدى الحكومة البريطانية » (٥١) .

وتمت المقــابلة فعلا فى الموعد المحدد ، فى جنيف بين اسماعيل صـــدقى وجون سيمون ، بحضور حافظ عفيفى باشا ، والمستر ايدن الذى كان يشغل الوكيل البرلمــانى لوزارة الخارجيــة ، وكان موجودا بجنيف لحضور مؤتمر نزع السلاح ، والمستر رونالد السكرتير الخاص للسير جون سيمون (٥٢) .

على أية حال فهى لم تكن محادثات مجدية ، ولكنها كانت شــبه رسمية ، ولم تسفر عن نتيجة ايجابية (٥٣) .

---

(٤٩) عفاف لطفى السيد : تجربة مصر الليبرالية ، ص ٢٣٨ .

(٥٠) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(٥١) ضياء الدين الريس : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٥٢) عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية ، ص ٧٥٨ .

(53) Berque., Jacques, Egypt imp erialism and rcuolt ulion, p 466.

فيبدأ صدقى مذكرته وحديثه مع السير جون سيمون ، وهو يعرض قضية استقلال بلاده ، بانتحال الأعذار لبريطانيا ، بعدم الاهتمام بالقضية المصرية ، فمذكرته ستكون مختصرة ، نظرا لضيق الوقت ، الذى يمكن أن يخصصه الوزير البريطانى ، « لحديث يكاد يكون عرضيا » ، فالقضية المصرية ، كما يقول صدقى، بالنسبة لبريطانيا لاتتعدى ، غاية من شتى الغايات التى ترمى اليها •• « وأن الوقت غير مناسب للتفاوض ، فصدقى يدرك تماما أنه مع عدم استقرار الحالة السياسية والاقتصادية ، التى تسود العالم فى الوقت الحاضر ، وازاء المصاعب الحادة التى تواجهها الآن السياسة البريطانية ، فلا يكون من سداد الرأى ، طلب فتح المناقشة على الفور فى المسألة المصرية » (٥٤) •

وبعد كل هذه المعاذير لبريطانيا ، يطلب •• اذا سلم بمبدأ الدخول فى مفاوضات — باجراء محادثات شبه رسمية بين رئيس الحكومة المصرية ، والمندوب السامى ، تمهيدا للمفاوضات المقبلة ، حتى يقترب الطرفان بقدر الامكان من اليقين بالنجاح (٥٥) •

ويشرح صدقى بعد ذلك ، ضرورة استئناف المفاوضات بالنسبة لمصر ، ويحمل ذلك فى عدة أمور :

أولا •• استغلال المعارضة للحالة الراهنة ، واتخاذها دليلا على عدم الاستقرار السياسى ، مما يدعوها للشطط فى سياستها •

---

(٥٤) جمهورية مصر العربية : القضية المصرية ، ص ٤٥١ •

(٥٥) المصدر نفسه والصفحة •

ثانيا .. ان التأخير فى حل المسائل المحتفظ بها ، فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، ينتج عنه فى كل لحظة ، بل وقد وقع فعلا « مواقف يؤسف لها ، لا يكون من الميسور تفاديها ، الا باتباع سياسة رشيدة حكيمة .. » فهناك من المصالح المادية والأدبية ، ما لا تحتمل الابطاء .. فعدم عقد اتفاق مع بريطانيا ، ينص على استخدام نفوذها ، لدى الدول صاحبة الامتيازات ، لحل هذه القضية ، يؤدى الى « استمرار حالة ، لم يعد لنا قبل على احتمالها » والغاء الامتيازات أمر ضرورى ، بالنسبة للتشريع المالى ... الخ ، وكذلك دخول مصر عصبة الأمم .

ثالثا .. رغبة صدقى فى تتويج جهوده ونظامه ، بعقد الاتفاق، فهو يرى من واجبه أن يتوج « هذا العمل ، بتركيز نظام البلاد ، وذلك بتحقيق الاتفاق المنشود » (٥٦) .

ويحاول صدقى فى هذا اللقاء ، أن يطمئن وزير الخارجية البريطانية ، بقوة نظامه واستقراره ، لازالة الشكوك الخاصة بعدم صلاحية النظام القائم ، « فمصر لا تخضع اليوم لنظام دكتاتورى مفروض عليها ، قابل للزوال ، وهى ليست أيضا بالبلد ذى المظاهر الدستورية . فقد يحكها فى الواقع زمرة من الأفراد لا رقابة عليهم Oligarchia ، فلربما كان الحال كذلك فى عهود أخرى فمصر — لا تتمتع بدستور منسجم الأوضاع فحسب ، بل أن حرية الرأى مكفولة تماما فى حدود القانون ، مادام لم تدع الى الخروج على النظام، أو الاخلال بالأمن .. » (٥٧) .

---

(٥٦) المصدر نفسه : ص ٤٥٢ ، ٤٥٤ .

(٥٧) المصدر نفسه : ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

وعلى نفس النهج ، يحاول صدقى اقناع بريطانيا ، بالتفاوض مع نظامه ، فقد سبق أن تفاوضت مع حكومات مصرية ، لم يكن لها من القوة والرسوخ ، ما للنظام الحاضر [٥٨] .

وفى حديث السير جون سيمون ، الذى بدأه بمجاملة صدقى ... اذ أوضح أنه يسر بريطانيا ، أن ترى امضاءه ممهورة على اتفاقية بين البلدين ... أوضح اعتماد صدقى على ثقة الملك !!... ثم تطرق الى المسألة المصرية ، وانه يجب اتخاذ اتفاقى على ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ كأساس للمفاوضة .. وان هناك مسائل انتهى البت فيها ، كانتهاء الاحتلال البريطانى ، التحالف بين البلدين ، المساعدة على الغاء الامتيازات العسكرية ، وقبول عضوية مصر فى عصبة الأمم [٥٩] . ولكن الحكومة البريطانية ، ترغب فى اعادة فتح موضوع المعسكرات للقوات البريطانية ، والاحتفاظ بادارة السودان .. وان الحكومة البريطانية سترضى مصر ازاء هاتين النقطتين [٦٠] .

فلم يسفر اللقاء بين صدقى وجون سيمون عن شىء ، سوى تراجع السياسة البريطانية فى المسألة العسكرية ، عن مفاوضات سنة ١٩٣٠ [٦١] .. ولكن كان موقف صدقى من محاولة التراجع العسكرى هذه ، بأن أعلن أن حكومته لن تقبل أى تراجع عن مشروع سنة ١٩٣٠ ، فى المسائل التى اكتسبتها مصر .. أما موضوع السودان ، فلا يزال بكرا ، يتطلب كل مناقشة حول الأساس المزمع ادخاله [٦٢] .

---

(٥٨) المصدر نفسه : ص ٤٥٣ .

(٥٩) عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية ، ص ٧٥٩ .

(60) Jayid., op. cit., p 140.

(٦١) عبد العظيم رمضان : الجيش المصرى فى السياسة ، ص ٣١١

(٦٢) عبد العظيم رمضان : تطور الحركة الوطنية ، ص ٧٦٠ .

وطلب صـــدقى فى نهـــاية مذكرته ، نظرا « للتعليقات المغرضـــة وللأخبار المتضـــاربة ، التى تتناقلها بعض الدوائر ، بمناسبة استئناف المفاوضـــات بين بريطانيـــا العظمى ومصر ، فقد يكون من المرغوب فيه، اصدار بلاغ يطمئن المصريين ، ويزيل ما بنفوسهم من مخاوفهم » [٦٣]

على أية حال فقد قبل السير جون سيمون ، فــكرة المحـــادثات التمهيدية ، شبه الرسمية بالقاهرة ••• ووعـــد ببحث موضـــوع فتح المبـــاحثات مع حكومته [٦٤] • وظل صدقى ينتظر صدور البلاغ الرسمى من الحكومة البريطانيـــة ، بالموافقة على مبدأ استئناف المفاوضات••• ولـــكن دون جدوى ، فلم تصـــدر الحكومة البريطانية ما كان يطلبـــه صـــدقى [٦٥] •• وهكذا كان مصير صدقى الفشل فى هذه النـــاحية ، ويعلق الأستاذ شفيق غربال على ذلك بقوله « •• انه لم يمكن ولا يمكن ولن يمكن ، لمفـــاوض مصرى كائنا من يكون ، أن يكسب شيئا لمصر ، وهو فى حرب فعليـــــة مع غيره من المصريين •• رحم الله الوزارات الادارية ، لقـــد كانت مسكينة ، ولـــكنها كانت تعلم أنها مسكينة ، ولا تحاول أن تزعم أنهـــا ليست كذلك ، ورحم الله مصر من المساكين ، الذين لا يعرفون أنهم مساكين !! » [٦٦] •

---

(٦٣) جمهورية مصر العربية : المصدر السابق ، ص ٤٥٤ .

(64) Zayid., op. cit., p. 140.

(٦٥) ضياء الدين الريس : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(٦٦) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانيـــة ، ص ١٦٣ .

المصـــــادر

أولا ‥ وثائق غير منشورة :

١ ــ وثائق عابدين محفظة رقم ٣٧٧ المسألة المصرية ‥ دار الوثائق المركزية بالقلعة •

ثانيا ‥ وثائق رسمية منشورة :

١ ــ جمهورية مصر : القضـــية المصرية ١٨٨٢ ــ ١٩٥٤ ‥ المطبعـــة الأميرية ــ القاهرة ١٩٥٥ •

٢ ــ مضابط مجلس النواب ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ ــ ١٩٣٤ •

٣ ــ مضابط مجلس الشيوخ يناير ١٩٣٣ •

ثالثا ‥ الدراسات العربية :

١ ــ أحمد شفيق ‥ حوليات مصر السياسية ‥ الحولية السابعـــة ١٩٣٠ الطبعة الأولى ‥ المطبعة الهندية ‥ القاهرة •

٢ ــ سامى أبو النور ‥ دور القصر فى الحيـــاة السياسية فى مصر ١٩٢٢ ــ ١٩٣٦ ــ الهيئة العامة للـــكتاب ‥ القاهرة ١٩٨٥ •

٣ ــ ضياء الدين الريس ‥ الدستور والاستقلال ‥ الجزء الأول ، مطبوعات الشعب ‥ القاهرة ١٩٧٥ •

٤ — عاصم الدسوقى الدكتور ، كبار ملاك الأراضى الزراعية ودورهم فى المجتمع المصرى ١٩١٤ — ١٩٥٢ •• دار الثقافة الجديدة •• القاهرة ١٩٧٥ •

٥ — عبد الرحمن الرافعى •• فى أعقاب الثورة المصرية ، الجزء الثانى •• القاهرة •

٦ — عبد العظيم رمضان (الدكتور) الجيش المصرى فى السياسة ١٨٨٢ — ١٩٣٦ •• القاهرة •

٧ — عبد العظيم رمضان (الدكتور) تطور الحركة الوطنية ١٩١٩ — ١٩٣٦ ، دار الكاتب العربى •• القاهرة •

٨ — عفاف لطفى السيد (الدكتورة) تجربة مصر الليبرالية ١٩٢٢ — ١٩٣٦ •• القاهرة ١٩٨١ •

٩ — على الدين هلال (الدكتور) السياسة والحكم فى مصر قبل ١٩٥٢ •• القاهرة ١٩٧٧ •

١٠ — محمد شفيق غربال •• تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ، الجزء الأول •• القاهرة ١٩٥٢ •

١١ — مصطفى النحاس جبر ••• سياسة الاحتلال تجاه الحركة الوطنية ١٩١٤ — ١٩٣٦ رسالة دكتوراه غير منشورة •• جامعة القاهرة •

THE ALAKE OF EGBALAND (1)

AN INSIGHT INTO THE HISTORY AND TRADITIONS OF THE EGBAS

By

Dr. Nasr Eldin Rashwan Hassan

Introduction :

Resounding blows and beats of a rythm most similar to that of the mystical sect of « Refa' eya » in Egypt or that of the followers of Dalai Lama I happened to see at Oxford Street in London, with an echo in the background, drew our attention while on a visit to the Alake. We were then under the « Olumo Rock ».

Enquiring about this fantastic incident we could know that it was a group of people who came to great their elder relatives, as it was the habit on that occasion.

Some of us were facinated by the atmosphere and tried to get to the top of the rock through zigzag ways, a risk similar to climbing the Pyramid of Cheops in Giza. Since it was the second time for me to come to the place, I was not very much attracted by the muscular part of the scene, instead, being interested in history, I was

---

(1) King of Egbaland, a part of Yoruba country in West Nigeria See Solanke, L. : A special Lecture addressed to A. K. Ajisafe. p. 38 for detailed definition of the word « ALAKE ».

all the time reflecting and trying to trace back the origins of these tales which at least must be branded as « fantabulous » (2).

In my first visit to the place, the guide introduced me to a mess where a priest was addressing a group of house wives, advising them about the ideals of conducting their little estates. Equally in the last visit, I met a ladypriest who came for a similar duty. All this motivated my desire for historical knowledge and revived my memory. I tried to find interpretation, judging from past experience about peoples I visited, met and talked to in other areas, in previously British or French territories in West and East Africa.

Waiting for the return of the Alake from a church service in downtown in Abeokuta, we were lucky to have the opportunity to look into the old « Afin Alake » (the palace of the king) then proceeded to the new and most updating and luxurious palace (3) centrally conditioned, almost ready for his majesty's dwelling, short of trivial final touches.

At last the car of the Alake pulled up near to us, the body — guard, a police deputy — superintendent descended and opened the door of the car for the Alake, flanked by «Iyalode and Iyaloja of Egba ». The royal family got into the palace, the Alake himself having taken to the throne, we were introduced to him, had a brief chat and some drinks then granted us some handouts usually distributed on the occasion at the end of the audience. These and some other books I collected from bookshops in Abeokuta, Ife, Ibadan and Lagos were the main sources of this paper, inspired by

---

(2) A Composite word (fantastic and fabulous) introduced by the Nigerians and later accepted by the British and included into their dictionaries.

(3) A fund was raised for the new palace at an estimated cost of over 12 million Naira (Naira equals $ 1.4 at that time).

this memorial visit. This paper is in fact, an attempt to trace back and have an insight into the history and tradtions of the Egbas and their kings and chiefs.

History of the Egbas :

The origin of the Yoruba nation is involved in obscurity. Like the early history of some African nations, the commonly received accounts are for the most part purely legendary. The people being unlettered, and the language unwritten, all that is known is from traditions carefully handed down. Bards and drummers in some cases serve as « national historians », it is on them, modern historians depend as far as possible, for reliable information they now possess. As may be expected their accounts often vary in several important particulars (4).

I clearly remember that occasion when an African leader said, when he was asked about his date of birth, that he didn't Know of sure about it but he could only remember that his mother related the date to an incident that took place in the village.

As to the history of the Yorubas we have in fact two main stories about their origin, one relating it to the Nile Valley, the other to Mecca. As of the first, they said, the ancestral home of the Yorubas was in the Nile Valley, somewhere, close to the ancient Egyptian civilisation. As a result of series of strange historical events which usually uproot people from their homeland and set them on a quest for new habitation, the people left the Nile Valley over a thousand years ago in waves of migration. The word « waves » is used with caution because they did not all come in one band. They journeyed south and then southwest passing through southern Sudan, Bornu, the Plateau region and crossing the River Niger. It is believed that the first wave to arrive settled at Ile-Ife,

---

(4) Johnson, S. : The history of the Yorubas, p. 3.

and subsequent waves, which were probably at distant intervals, settled in the surrounding areas — Ekiti, Ondo, Ijebu, Egba, Oyo, etc. (5)

As of the second, they said, Yorubas have sprung from Lamurudu one of the kings of Mecca whose offspring were : Oduduwa, the ancestor of the Yorubas, the kings of gogobiri and of the kukawa, two tribes in the Hausa country — it is worthy of remark that these two nations, notwithstanding the lapse of time since their separation and in spite of the distance from each other of their respective localities, still have the same distinctive tribal marks on their faces, and Yoruba travellers are free amongst them and vice versa, each recognising each other as of one blood. (6)

On line of this story the famous traveller Capt. Clapperton in his «Travels and Discoveries in Northern and central Africa 1822-1824) mentioned a similar origin of the Yorubas with a slight difference as to the name he gave to them i.e.. — Yarba — He said, « Yarba is an extensive province containing rivers, forests, sands and mountains .. the inhabitants of this province, it is supposed, originated from the remnant of the children of Canaan, who were of the tribe of Nimrod. The cause of their establishment in the West of Africa was in consequence of their being driven by Yar — rooba, son of Kahtan, out of Arabia to the Western coast between Egypt and Abyssinia — from that spot they advanced into the interior of Africa, till they reached Yarba where they fixed their residence. On their way they left in every place they stopped at, a tribe of their own people (7).

---

(5) Onabamiro, Sanya : Glimpses into Nigerian History, p. 36.

(6) Johnson, S. : Op. Cit., p. 3.

(7) Johnson, S. : Ibid., p. 5.

If tradition, bards and stories received from ancestors are the main sources of history for the Yorubas, certainly this is not the case with the Egyptians or the Arabs. In the latters' case, history of thousands of years before the advent of christ, is firmly documented on monuments ; by moslem historians and European travellers for later periods. So both stories about the origin of the Yorubas cannot be accepted.

Certainly, the Yorubas are not of Arab origin, and could not have come from Mecca whose history is universally Known and no such accounts have been found in the records of Arab writers. I think the confusion came from the fact that many Africans, especially the moslems, regard the east as Mecca, and Mecca as the east. But in all cases, there is no doubt, in my opinion that the Yorubas are culturally influenced by the east as will be manifested later in discussion of their manners and customs. I think also that Yoruba names and many other words bear witness to this effect.

The Egba tribe, being one of the five tribes forming the Yoruba people and named after the areas in which they settled, as mentioned earlier, consists of four clans : the Ebga Alake, Oka, Ona, Egba, Agura, and Owu ; their chiefs are respectively named, the Alake, Oshile, Agura and Olown. At first, each clan inhabited a distinct part of the country, but during the intertribal wars in the middle of last century especially the wars with the Dahomeyans, these clans were driven in on the centre of the country and there they founded Abeokuta (8).

The boundaries of Ebga were defined according to agreement entered into between governor of the colony of Lagos, and the king and authorities of Egba Nation residing at Abeokuta, signed at

---

(8) Report of the Commission of Enquiry into the disturbances in Egba Division, P. 1.

Abeokuta the 18th of January 1893. According to the first article of the mentioned agreement in the chapter on « Egba (Boundaries) »: the line of demarcation between the two countries shall commence on the eastward at the town of Orisi on the left bank of the River Ogun, which shall be considered as falling within the Lagos sphere of influence, the boundary line shall then cross the river at right angles, and take the most direct established road to the town of Ota, which as at present shall be considered as under Ebga jurisdiction. From Ota the boundary line shall follow the main road leading through Ilogo, Alogboro and Epoto to Ilaro. (9)

In Abeokuta the four clans are represented, and each one has its distinct quarter and each quarter was divided into a number of townships each under its own chiefs. Each township corresponded to a village or group of villages in the country. This division of Abeokuta has persisted up to the present and not merely are the own and other quarters distinct from each other, but the seperate townships within the quarter are also distinct. Of the four clans the Egba Alake was considerably the largest tribe ; the Alake was in consequence the senior of the four Head Chiefs but hc was by no means the paramount chief according to the original constitution of the country. He was merely « Primus inter pares » (10). (the first among equals).

Igbas movement to Abeokuta was, in fact, the out — come of inter — tribal wars that raged like wild fire in all parts of Yoruba land, thereby forcing different ethnic groups to flee from their homestead. The Egbas being affected, sent emissaries to Abeokuta, where the Egbas are today. When they reached Abeokuta, they found it a virgin forest where they discovered the Olumo Rock and found it most suitable as a hiding place from the invading enemies,

---

(9) Johnson, S. Op. Cit., pp. 656, 657.

(10) Report of the commission of Enquiry, p. 2.

by virtue of cave which provided shelters. Aftter the return of the emissaires, movement to Abeokuto started gradually and people increased in numbers, that was 1830 the year of first settlement in Abeokuta, meaning under the rock, since it provided accomodation. (11)

The Olumo Rock is sacred in Abeokuta history, as the place where the first settlers found refuge from their attackers. The importance of Olumo Rock to the Egbas is conveyed in the saying that « Abeokuta was the gift of the Olumo as Egypt was the gift of the Nile ». This is said to agree with the predictions of the Ifa Oracle which, when consulted, had assured the Egbas that they would become a great nation under Olumo's protection. On their arrival they foun in it, evidence of the fulfilment of that prediction. Today the Egbas demonstrate their pride in their origin by signing annually in its honour a special anthem captioned «I shall Rejoice On The Olumo Rock ». (12)

When circumstances allowed, the people spread out from Abeokuta to farm the land from which they had been driven, but and this is a very important fact in the history of Abeokuta, neither the principal Chiefs nor the Township Chiefs followed them, they all remained in Abeokuta. The whole township life of the Egbas was thus concentrated in Abeokuta : the rest of the country was merely the farm land and it is noteworthy that up to today the common native expression for Egbalan is « Abeokuta town and farm ». Had

---

(11) The tenth coronation Anniversary, 1972-1982, p. 1.

(12) The tenth coronation Anniversary of the accession of Oba, p. 23.

the chiefs followed their people into the villages there could not have been the same cohesion for defence and the country might have been attacked and conquered piecemeal ; in addition internal jealousies and dissensions would have arisen and weakened the clans and so made them an easy prey to their powerful neighbours. In course of time there was a certain intermixture of the clans in the villages and Egba Alake villages for instance are found amongst the OWU and other villaages but so far this has not destroyed the custom whereby each of the four clans is regarded as dominant in one of the quarters into which the country is roughly divided (13).

Placed inside the rock and worshiped annually by women is the « Orisi Igun ». The celebration lasts thirty days during which goats, rams, etc. are sacrificed. There is also the regularly performed traditional ceremonies marking the commencement of Yam harvesting season at the rock site. The Olumo Rock features so prominently in the national life of the Ebgas that no program of any national celebration is ever regarded as complete without being preceded by the booming of guns by the traditional hunters from the top of Olumo Rock. Those who believe that Olumo can change their lives for the better go privately to make sacrifices to the deity.

Many tales of mystery have been told about events that took place in the vicinity of the Rock. It was once said that when an attempt was made to blast the Rock, pus and blood gushed out,

---

(13) Report of the Commission of Enquiry, p. 2.

and the spot was quickly sealed up (14).

Traditions :

Since the Yorubas were subjected to the British rule in Nigeria and their extension in the state of Benin (formerly Dahomé) was subjected to the French, the impact of cultural exchange was felt especially in the areas around the boundaries from both sides. I felt this effect on my visit to Badagry Beach where people were able to communicate either in Yoruba language or English and French. The indigenous language remained the language of non — literate masses, nevertheless, I could easily communicate in English with Yorubas in Western Nigeria with anybody whatever his standard of education might have been. English is the «Lingua franca» for Nigerians who speak different national languages, it is for them a second language. As for the the illiterate speak what they call broken English, a kind of jargon not easily understood by foreigners. It took me some weeks to get allowed to it, especially that they have a horrible accent due to the interference of their source languages. It is more difficult than other standards of English spoken in India, East or South Africa. In my opinion it comes second only to Sierra Leonese Englisk.

Since the Yorubas have no knowledge of letters their learning consists chiefly in oral traditions. The historians are the king's cymballists and ballad singers the chief of whom is called the Ologbo or Arokin. They chant to the king the story of the nation, and

---

(14) The tenth coronation Anniversary of the accession of Oba, pp. 23, 24.

history of former reigns, for his information and instruction. They are kept in the royal service and are well supported. The office is hereditary. They have their tradition about the creation. It is their belief that at the creation men fed on wood and water, that they had a long projecting mouth ; that the bat was originally a creature in human form, and was a blacksmith by trade, and that with his instrument he reduced men's mouths to their present shape, for which cause he was condemned to lose the human form and to assume that of a beast, and to use one and the same mouth for receiving food as well as for evacuation. The allegation that water was the original food of man is supported by the fact that it is the first thing taken by a new — born babe, as well as the last thing taken at a man's dying moments (15).

Ever since, a lot of water has passed under the Lafenwa Bridge, as the Yorubas say. The various constitutional changes in the Egba country, brought in its wake sweeping social changes in the country. Before the early 1950's the Egba Native Administration in furtherance of its educational policy which was designed to equip Egba sons and daughters with the basic tools of modern competition, provided scholarships and bursaries for numerous deserving Egba sons and daughters. Primary education became free in 1956. Various communities and religious societies supplemented the efforts of the state government by the building and running of several educational institutions through communal efforts. In 1976however, the Ogun State government took over the management and

---

(15) Johnson, S. : Op. Cit., pp. 125-126.

running of all post — primary institutions in the State (16).

Concurrent with the changes in education were modifications in the social institutions. First to be affected was the extended family which was characterised by common traditions of origin. They practiced marriage within one's home region, which also made for the stability of traditional marriage and purity of the culture. This was rendered obsolete in the face of transportation systems which opened new avenues for local spinisters and bachelors to pick their spouses from outside their home regions. Additionally the changes for greater mobility reduced the effectiveness of pre-European parental control and sanctions on the Youth (17).

In the past, the Egbas were mostly monogamic, out of necessity ; for although polygamy was not actually forbidden, yet only rich folk could avail themselves of indulgence in that condition of life. Besides in a community mainly pastoral and agricultural, where all were peaceful, and no one engaged in any occupation perilous to the lives of its male population e.g. warfare, sea - faring, deep mining, etc. where wants were few and easily satisfied, the young men married as soon as they were of an age to support a family, and therefore a superfluous female population was hardly ever known. Marriage laws and customs, as many other disciplines, have undergone changes brought about by intercourse with other peoples (18).

---

(16) Message delivered by Alake of Egbaland, p. 6.

(17) Asiwaju, A.I. : Western Yorubaland under European Rule 1889-1945.

(18) Johnson, S. : Op. Cit., p. 113.

My knowledge is that mixed marriages between adherents to different religions and denominations are not uncommon. I know of a friend who told me that her mother was moslem but converted to christianity after marrying her father, then she chose to go back to her previous religion and seperated from her father. She said that she herself married a moslem and therefore she is a moslem too. I could notice that she was not serious about choosing either religion.

The woman in the Egba society is a great help to the husband. I heard about a wife who took the responsibility of raising the family, her husband having been dismissed from his job and lying prostrate in the house due to severe illness. This noble wife resorted to borrowing money since her income was not sufficient, but unfortunately, unable to continue, she chose to commit suicide, prefaring to give the little kids a chance for being taken care of by a benevolent.

Women work in different fields of activity, the older ones seed cotton and spin thread, shell the kernels from the palm nuts, and also tend poultry, goats and sheep for the market. Dying is done by women who prepare indigo balls for the market. They are equally engaged with men in trading and weaving. Palm oil making and nut oil making from the kernels of the palm nuts, as well as shea butter from the shea fruit are exclusively female industries. Also they manufacture beads from the hard shells of palm nuts, in addition to pottery and hair dressing (19).

---

(19) Johnson, S. . Op. Cit., pp. 123-125.

Some Egbas practise medicine, they use substances for treating or preventing disease or illness. Thus the professional skill of a medicine man includes curing, alleviating and preventing disease as well as restoring and preserving health. In many cases he is a diviner, a priest as well as a manufacturer of charms. Religion and magic are so closely connected that it is difficult to say when one passes from one realm to another. The offices of a priest and of the magician are sometimes held by one man (20).

Magic and witchcraft are real problems according to traditions which some well — educated people belive in them to the extent that they form secret societies and practise what they call « Jojo » (21). A friend told me that some children were kidnapped and thrown in deep ditches where snakes bite them fatally to death, the body is cut in small pieces to be used as « Jojo ».

Due to Yorubas belief in communion between the living and the dead, the ideal final resting place for a man was his lineage house. Traditional Yoruba burial took place inside the house. According to old customs they did not bury their dead in graveyards or cemeteries. Infants, however are not buried in the house, but their dead bodies are either thrown away into the nearest bush or forest, or are partially buried with a bit of earth sprinkled over them, and are thus left a prey to jackals prowling by night (22). I saw

---

(20) Awolalu J.O. : Yoruba beliefs and sacrificial rites, pp. 74-79.

(21) A Yoruba word meaning « magic ».

(22) Johnson, S. : Op. Cit., p. 137.

this practice when we were crossing the forest around Ibadan. I saw a dead body of a boy around twelve years of age lying by the road side, some parts of his limbs snatched and the whole body rotten. Amazingly I made a point of protest to a Nigerian friend who was accompanying me in the car. He did not respond, so I could not bring the argument any further.

Although the old practice was never abandoned, the gradual rise in the number of converts to christianity and Islam resulted in the creation of new cemeteries and the expansion of existing ones. Today public burial grounds have become a common feature (23).

It is the custom for every Egba now unless he be a pauper or a small child — to be brought to Abeokuta for burial in the township to which he or she belongs (24).

In case of the death of the Alake, many problems lie ahead. This was brought to discussion at an early time in 1924 during the British administration. The British resident called for a meeting under his chairmanship with Alake and other tribal chiefs of the Egbaland attending. They ruled that if an Alake dies the Ebgas select a chief of a general title or a senior Ogboni chief to act as regent to do all that they have to do in the Alake palace up till the time they will have new Alake. They also decided to build a Mausoleum at Ake palace Square for the purpose of burying the corpses of the Alakes. The practice is also observed when the Alake is out of the country as in 1904 when he went to England, the Seriki of the Egbas,

---

(23) Asiwaju, A.I. : Op Cit., p. 224.

(24) Report of the commission of enquiry, p. 2.

late Ali, was appointed to act as regent during his absence (25). In this way they deem their native customs quite valid and useful in preserving stability either during the absence of the Alake or during the interregnum.

The native traditions still have their impact on both moslems and christians, large numbers of them are among the active participants of pagant practices. They participate in the traditional festivals and the sacrifices involved. It is rare to find the adherents of the traditional religion running to the christian or moslem leaders seeking spiritual aid. They do not campaign for membership and they have no written literature to guide their adherents ; yet many christians and muslims revert to them in moments of need without feeling any sense of inconsistency (26).

They believe in an Almighty God, they term Olorun, i.e., Lord of Heaven, but they consider him too exalted to concern Himself directly with men and their affairs, hence they admit the existence of many Gods as intermediaries, and these they term Orisas. They believe in future state, hence the worship of the dead, and invocation of spirits as observed in the Egugun festival, a festival in which masked individuals personate dead relatives. They also believe in transmigration of souls, they say deceased parents are born again into the family of their surviving children. For this reason some children are named « Babatunde », i.e., father comes again, and « Ye tude », i.e. mother comes again (27).

---

(25) Interregnum and burial of the Alakes, pp. 5-6.

(26) Awolalu, J.O. : Op. Cit., p. 195.

(27) Johnson, S. : Op. Cit., p. 26.

Concessions to other religions, particularly Islam and Christianity, placed further limitatons on the scope of operation of these cults. Night meetings and drumming, which were vital practices of Ifa and Ogun worshippers, also suffered strictures. Offences against these anti — religious regulations were stringently punished (28).

Islam and Christianity, together with Western education, are imposed on the traditional religion, and the adherents find it difficult, if not impossible, to dissociate themselves from the traditional practices into which they were born, hence they revert to them from time to time. They maintain a divided loyalty to both the traditional religion and the new religion to which they have been converted. Thus it is a common thing to find some Christian Yoruba who have one foot in the Christian religion and the other foot in the traditional religion, Such Christians swing to one faith or the other as circumstances dictate. The same thing goes for moslems. What is uppermost in the mind of a Yoruba man is to have life — that is, to have peace, happiness, good health, prosperity and longevity and he is ready to utilise whatever means by which such good things are available.

It is not unusual to find a christian Yoruba seeking spiritual aid from an Imam or to find a moslem seeking aid from the Aladuura (a Christian prayer group) (28).

I watched at Bar Beach in Lagos the followers of this selfstyled Christian denomination « Aladuura » all dressed in white, men

---

(28) Asiwaju, A.I. : Op. Cit., p 212

and women, boys and girls flocking together around tents they dug into sands of the beach waiting for Jesus Christ to come out from the sea before dawn. I knew that they were declared a heretic sect.

I could notice this cross — cultural or rather cross — religious confusion with my own eyes. In our way from Lagos to Abeokuta, due to heavy traffic and hold — up, we had to put off the engine of our car, I noticed some Arabic scriptures on a Lorry, these were in fact some verses from Quran, to my astonishment I noticed also some symbols which are particulars of Christian faith. The only explanation for this riddle was simply that the owner of the lorry liked it in that way.

Conclusion :

Religions, creeds, and traditions are interrelated among the Yoruba, you can hardly take any body as true adherent of a certain religion. It is almost impossible to apply orthdox criteria or the tenets of a certain religion on a Yoruba. They do not take these things seriously. Conversion from a religion is not that difficult, it is « no problem », an expression that is quite popular among them. I heard of a high — ranking official who refused to give the oath by swearing with either Quran or the Bible but with his military honour. This official joined a certain sect called « Ja ». Its cults are based on murmurs and nothing else, a kind of pantomime practice. On the state T.V. I watched a preacher calling for Buddhism. A historian, equiped with historical knowledge about peoples, their history and traditions, is the best authority to give judgement not only about the past, though his area of interest is historical reality.

---

(29) Awolalu, J.O. : Op. Cit., p. 194.

Bibliography

1. Asiwaju, A.I. : Western Yorubaland Under European Rule 1889 1945, Longman, (London, 1976).
2. Awolalu, J.O. : Yoruba Beliefs and Sacrificial Rites, Longman, (London, 1981).
3. Gbadamosi, T.G. : The Growth of Islam Among the Youruba 1884-1908, Longman, (London, 1978).
4. Interregnum and Burial of the Alakes, Ebga Divisional Council, (Abeokuta, 1931).
5. Johnson, the Rev. S.J. : The History of the Yorubas, C.S.S. Bookshops, (Lagos, 1976).
6. Message Delivered by Oba Alaiyeluwa Oyebade Lipede, Alake of Egbaland (Abeokuta, 1980).
7. Onabamiro, S. : Glimpses into Nigerian History, Macmillan Nigeria Publishers (Ibadan, 1978) .
8. Report of the Commission of Enquiry into the disturbances in Egba Division of the Abeokuta Province, Balogun Printers (Abeokuta, 1914).
9. Solanke, L. : A Special Lecture Addressed to A.K. Ajisafe, Balogun Printers (Abeokuta, 1931).

10. The Fifth Coronation Anniversary of the Accession of Oba A.O. Lipede, Abeokuta Local Government (Abeokuta, 1977).

11. The Tenth Coronation Anniversary 1972-1982, Abeokuta Local Government (Abeokuta, 1982).

12. The Tenth Coronation Anniversary of the Accession of Oba A.O. Lipede (Abeokuta, 1982).